روايته "فتنة جدّة" في القائمة الطويلة
لجائزة بوكر العربية 2011

مقبول العلوي

طيف الحلّاج



رواية

دار الساقي

صدر للمؤلف عن دار الساقي:

- زرياب
- القبطي
- البدوي الصغير
- فتنة جدّة

تصميم الغلاف: سومر كوكبي

مقبول العلوي

طيف الحلّاج



دار الساقي

الطبعة الأولى 2018

ISBN 978-614-03-2019-2

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، ص.ب: 113/5342، بيروت، لبنان
الرمز البريدي: 2033–6114
هاتف: 442 866-1-961+، فاكس: 443 866-1-961+
email: info@daralsaqi.com

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني
www.daralsaqi.com

تابعونا على

 @DarAlSaqi

 دار الساقي

 DarAlSaqi

"النَّاسُ مَوتَى، وأَهلُ الحُبِّ أَحياءُ"

الحَلّاج

النهاية

... وغمرني شعورٌ مريحٌ من السكونِ والهدوءِ وطمأنينةِ النفس؛ لأنني - بكل بساطة - أعدتُ اكتشافَ نفسي. أمسكتَ بزمامها بعد أن كانت في لحظة طيشٍ وتهور تفلت مني للأبد. المصادفة وحدها ساقتني إلى برِ الأمانِ، وأخرجتني من ظلمات الجهل إلى نور البصيرة.

وجلستُ أحصي مكاسبي تمامًا مثلمَا يحصي التّاجرُ مكاسبَه: ما جناهُ من ربح وما مُني به من خسارة.

وسألت نَفسي: ماذا ربحتُ؟ وماذا خسرتُ؟

ووجدتُ أنَّ أكبرَ مكاسبي وأبرزَها من هذه التجربةِ المريرةِ هو: التغيير.

أقولُ هذا الكلامَ بعدَ مرورِ أكثرِ من خمسة وعشرين عاماً من العذاب والنعيم، والطمأنينة والقلق، والصّحة والسقم، والفشل والنجاح، والسقوط والنهوض. منذ زرع الحلّاج داخلي البذرةَ الأولي. صحيحٌ أنّ التغييرَ بطيءٌ، ولكنَّه ناضجٌ، ومكتملُ النمو، وفعالٌ، ومؤثرٌ في الوقت نفسهِ. تركتُ الزمنَ ينصفني من ظلمِ الأعداءِ

والكارهين والمتربصين، وقد أنصفني أيَّما إنصاف. قد يتأخَّر العدلُ، ولكنَّه قادمٌ لا محالة. أينَ سمعتُ أو قرأتُ هذه العبارة من قبل؟ لا أعرفُ ولكنَّها صحيحةٌ مئة بالمئة...

الحلّاجُ غيّرني، وساعدني على إحداثِ هذا التغيير. أنا ممتنٌّ له أشدَّ الامتنانِ لأنَّه جعلني أنظرُ إلى الحياة بمنظورٍ آخرَ. وأنا ممتنٌّ لهلوساتي، وأمراضي، وكوابيسي، وخيباتي، وسقطاتي، وعذاباتي، وممتنٌّ حتَّى لصنَّاعِ الكراهيَّةِ والأحقادِ ممّن هُم على شاكلةِ الدكتور فالح وبقيَّةِ الزملاءِ ومَن لفَّ لفّهم. أقولُ ذلك رغمَ ضآلة ما حدث لي مقارنةً مع ما حدث للحلاَّجِ من أهوالٍ ومصائب تحار فيها الألباب ويتزلزل لها الوجدان. كانت كلُّ هذه الأمور مجرَّد إرهاصاتٍ أوليَّة لمرحلةِ ما قبل التبدُّل الكبير. فبسببها أصبحَ لكلِّ شيءٍ حولي تفسيرٌ وقيمةٌ. طفرةٌ سلوكيَّةٌ ومعرفيَّةٌ وروحيَّةٌ هائلة علَّمتني أنَّ ظواهر الأشياءِ والأحداثِ خدَّاعةٌ ما لم تُسبر أغوارها قبل إصدارِ الحكم الصحيحِ عليها.

وعلَّمني الحلّاجُ أنّ للحياةِ قيمةً عظمى إذا جرّدتها من عوالقِ الشهواتِ والامتلاكِ والأنانيَّةِ. أصبح للكلماتِ من نوع: إيثار، تضحية، إخلاص، تفانٍ، محبة. وجد، شوق، تسامٍ... معانٍ أكثر غنى وصدقيَّةً.

وأشعر بذلكَ الفيض من الشفافيَّة، الذي جعلني أدركُ أنَّ المحبَّةَ سلوكٌ يتَّسم بالذاتيَّة المفرطة، وهذه الذاتيَّة المحبّة عندما تفيضُ منك تغمرُ بالضرورة الآخرين من حولك. تصبحُ المحبَّةُ لا مجرَّد أفعالٍ لا معنى لها، بل رحمةً سابغةً، ومقامًا عاليًا، وحالاً زاهيًا، ويصبحُ

للمحبة لغةٌ خاصّةٌ لها دلالاتٌ وإشعاعاتٌ مبهرةٌ لا يدركها إلاَّ القلَّةُ القليلةُ.

والآن أشعرُ بقليلٍ من الارتياح. أتنفَّس بعمقٍ. أشعلُ سيجارة. أنفثُ منها نفثاتٍ متلاحقةً. أفكرُ بصوتٍ عالٍ، وأقول لنفسي معزّيًا: لكنّني رغم ذلك تطهّرت وتخلّصت من عوالق الدنيا في آخر المطاف. أما أولئك الذين أعرفهم جيدًا، فلا يزالون مختبئين كالفئرانِ في جحورهم... وكانَ هذا أكبر انتصار، وأفضل عزاءٍ لي، والحمدُ للهِ من قبل ومن بعد...

نوري إبراهيم

البداية

١

أعرفُهم... هؤلاء...

وهنَا المشكلةُ...

ولأنّني أعرفُهم جيِّدًا، كان حزني وغضبي وغيظي أكبر. هم أصدقائي، أو كانوا أصدقائي بمعنى أصحّ. جمعتنا سنواتٌ من الزَّمالة في أمكنة مختلفة، في العمل وخارجه. الدكتور فالح راشد، والدكتور فايز، والمُعيد الجديد الأستاذ راضي... وعددٌ لا بأسَ به من الرفقاء الأعزّاء، أو الذين كانوا أعزّاء في أيّام مضت...

التقينا في أيّام وليالٍ كثيرة. وحّدتْ بيننا روابطُ متينة كوّنتها سنواتُ الدّراسة، والعمل، والأحلام، والذّكريات، والصور، والكلمات، وشملتها حتّى الذنوب الكبيرة والصغيرة، والأفعال الصائبة والطائشة.

لكنّ هؤلاء "الأصدقاء" سحبوا منّي شهادة الدكتوراه، ولم يصادقوا عليها. رفضوها تحت حججٍ لا تُسمنُ ولا تُغني من جوعٍ.

فليسحبوها...

أيّ أسبابٍ واهيةٍ تلك التي ساقوها لي؟

قالوا:

"الحلّاجُ الذي اخترته في جزءٍ من موضوعكَ، في رسالة الدكتوراه الخاصّة بكِ، كافرٌ، صريحُ الكفرِ، وزنديقٌ"!

كافرٌ وزنديقٌ؟! ومَا يهمُّني أنا من كفره أو زندقته، إذا كان ما قالوه صحيحًا؟

كانت رسالة الدكتوراه في موضوعها الرئيسي: "الظروف السياسيَّة والاجتماعيَّة التي ساهمتْ في ظهور التصوّف في العصر العباسيّ الوسيط - الحلّاج نموذجًا".

هذا هو موضوعها: الظروف السياسيَّة والاجتماعية فقط، ومَا الحلّاج إلاَّ نموذج، مجرَّد نموذجٍ. إذن... فأين منها الدخول في النيات والتشكيك في عقيدة رجلٍ مات منذ أكثر من ألف ومئة سنة، ونيف؟

هو رجلٌ مرّت على وفاته قرون كثيرة، فلماذا نحاكمه الآن؟ ما الجدوى من ذلك؟

لا أعرفُ عنه - أيّ الحلّاج - إلاَّ ما وجدته في الكتبِ والمراجعِ التي استندتُ إليها في موضوع دراسة الدكتوراه. لم أتعمَّقْ كثيرًا في حياته المثيرة للجدل والغنيَّة بالأحداثِ المؤلمةِ والرهيبة، وهذا ممَّا يُؤسفُ له فعلاً. ذكرتُ جزءًا من أقواله، وسردتُ القليلَ من أفعاله، ولكنَّه مرّ مرور الكرام في دراستي...

الآنَ فقط، تأكَّدتُ أنّ الحلّاج ما هو إلاَّ مطيَّةٌ وسببٌ واهٍ لحرماني شهادة الدكتوراه.

لقد "اصطادوني" بعناية فائقة.

جاؤوني من حيثُ لم أكنْ أتوقَّع. هؤلاء هم متصيِّدو الأخطاء دومًا، في كلِّ زمان وفي كلِّ مكان. من زمن الحلّاج، وما قبلَ الحلّاج وحتّى اللحظة الراهنة، وربما القرون اللاحقة، سيجدون حتمًا في كلِّ أمر ما نقيصةً، أو ثغرةً، أو شيئًا ما يبنون عليه خيالاتهم المريضة. يلوون أعناقَ الحقائق بدهاءٍ حتّى تُجيَّر لما يسعون إليه ويدبرون له ويحقِّق أهدافهم وطموحاتهم. لا يزالون محبوسون داخل دائرة حواسهم الخمس، ولم ولن يدركوا معاني وقيم الأشياء في يوم ما.

شكّلوا مجلسًا "علميًّا" من رؤساء بعض الأقسام، برئاسة مدير الجامعة شخصيًّا، وبعض أعضاء هيئة التدريس، وكلّهم اتّفقوا على رفض المصادقةِ على الشهادة رغم أنّها سُجِّلت في قسم الدراسات العُليا.

ذات ظهيرة، استدعيت إلى مجلسٍ أكاديميٍّ مغلقٍ. جئتُ متوجِّسًا منهم والتساؤلات تأكلني أكلاً. ما إن أخذتُ مجلسي، حتّى بدأت المحاكمةُ...

نعم، أُسمِّيها المحاكمة، وليست جلسةً علميَّةً عاديَّةً.

كانوا يحاكمونني بنيات مسبقة وشرورٍ عظيمة مشتعلة داخل صدورهم. قبل ذلك كانت مناقشاتنا تتَّخذُ طابعَ الحِدَّةِ والتَّمسكِ بالرأي الفرديِّ، ويكثرُ فيها الجدلُ البيزنطيُّ العقيم. كنتُ أغلبهم بالمنطقِ والحجّةِ القويّة، ولكنَّهم – للأسفِ – تكالبُوا عليَّ كالضّباع، ينهشُون لحمي، ويلوكُون – في ما بعد – في سيرتي، وها هم الآنَ يمنعونني حقًّا من حقوقي. كافحتُ من أجلها سنواتٍ طويلةً، جُلُّها

مضتْ في البحث في مراجعَ كثيرة، تتحدَّثُ عن ظروفِ نشوءِ التصوّفِ في العصرِ العباسيِّ الوسيط، واتَّخذتُ من الحلّاج نموذجًا بصفته مؤسسَ ظاهرةِ التصوّفِ الأشهر، والأكثر تأثيرًا منذ تلك الحقبةِ الزمنيَّة، وحتَّى وقتنا الحاضر...

وماذا بعد؟

أخرجني من شرودي صوتُ الدكتور فايز الجهوري: "يا أستاذ نوري، ألمْ تجدْ شخصيَّةً من الشخصيَّاتِ التاريخيَّةِ سوى الحلّاج لتكتبَ رسالةً كاملةً عنهُ، وعن زندقتِه وإلحادِه؟!".

توقَّفَ قليلاً عن الكلام، ثمَّ قال بصوتٍ خفيضٍ: "ألَا تدرك أنَّ هذا الأمرَ كافٍ لإشعالِ الجامعةِ طلابًا وأساتذةً؟".

تنهدتُ ملءَ صدري، وقلتُ للدكتور فايز: "رسالتي تتحدَّثُ عن الحلّاج في سياقٍ زمنيٍّ تاريخيٍّ اجتماعيٍّ، ولا دخلَ لما تسمُّونه زندقتَهُ في الأمرِ. هو رجلٌ ذهب ضحيَّة استبدادِ الحكَّام، وذوي المصالحِ والأحلام الشخصيَّة الواسعة، وتسلُّط الفقهاءِ السطحيين، و...!".

قال الدكتور فالح راشد مقاطعًا وهو يقبضُ على حبَّات مسبحته الكهرمانيَّة بعصبية: "مهما يكنْ، سنُضطرُ إلى سحبِ الشهادةِ منكَ، ولنْ نصادقَ عليهَا".

- "ولماذا منحتموني إيَّاها من الأصل؟".

- "لا أستطيعُ أنْ أجيبكَ عن سؤالكَ هذا تحديدًا. هناك مستجدَّاتٌ قد حدثت. تستطيعُ القولَ إنَّها كانت غشاوةً منعت اللَّجنة من التحقُّق جيِّدًا في موضوع رسالتكَ، ولأنَّ رسالتكَ لمْ

تستخدم المنهجَ الصحيح المتعارف عليه لنَيل الشهادة، وهناك الكثيرُ من الأسباب، ولكنَّ الذي أستطيعُ قولَهُ لَكَ: إنَّنا - بكلِّ أسفٍ - سنسحبُ منكَ الشهادة حفاظًا على الأمنِ الفكريِّ الجامعيِّ"!

الأمنُ الفكريُّ الجامعيُّ؟! هكذَا مرَّةً واحدةً!

كلماتٌ كبيرةٌ. أكبرُ من عقولِهم الخاوية التي خبرتها جيِّدًا. حتَّى أسفك يا دكتور فالح كانَ مصطنعًا، وسخيفًا، ولا معنى له.

أيُّ كذب هذَا؟

أعرفُ تمامًا أنَّ تلكَ "الهوجة" الدينيَّة الصحويَّة قد سيطرتْ على الجامعةِ، وألقتْ بظلالها الكئيبة على كلِّ شيءٍ، في الجامعة وخارجها، وحينئذ بدأ التَّصنيفُ، وبدأ الإقصاءُ في أسوأ صوره. كنَّا نعيشُ ردَّةً ثقافيَّةً مرعبةً بكلِّ المقاييس، ونتخبَّطُ في غيمةٍ مظلمة عنوانُها الأبرز الخوفُ والتَّوجسُ. نراوحُ مكاننا بين أفعالٍ، وردودِ أفعالٍ تغلِّفُ الأجواءَ وتحيلها إلى سوادٍ داكنٍ وكثيفٍ.

٢

أعرفُ أنَّ الدكتور فالح ممَّن ركبوا تلك الموجةَ البغيضةَ لجني المكاسبِ الآنيَّة من وجاهةٍ اجتماعيَّة، وتزلُّف لطبقةٍ فارغةٍ ومليئةٍ بالأوهامِ والجهلِ المُركَّبِ ولا تملكُ من أمرها شيئًا. هُم مجرَّد بيادق في رقعةِ الشطرنج، تحرّكها طبقة من الجهلة المتكلّسين. ضجيجُ أوانٍ فارغةٍ تُصدرُ أصواتًا عاليةً، وداخلُها مترعٌ بالفراغ. التَّدينُ لديهم مجرَّد وسيلةٍ للحصول على المناصبِ، وللسيطرةِ، وتدجينِ العقول لا أكثر. لا يريدُون للنَّاس أن تستخدمَ عقولها، ولا تقرأ إلاَّ ما يريدُون لهم أن يقرؤوه. نصَّبوا أنفسهم أوصياءَ على النَّاس، وشغلوهم بتوافهِ الأشياء. ضيّقوا مساحاتِ الرؤية والانفتاح، وحشروها في مجرَّد سلوكيَّاتٍ ومظاهرَ فقط. وها هُو تلميذهم النَّجيب، الدكتور فالح، قد استخدمَ أساليبها معي بلا رحمة، وبمساعدةِ ثلَّة من "مستشيخين" يُطلق عليهم رجالُ الدِّين، وهُم أقربُ إلى طبقة "الأكليروس" منهم إلى رجالِ الدِّين، تلك الطبقةُ التي ظهرت في أوروبا في عصور الظلام. شرذمةٌ أحاطتْ بنا من كلِّ جانب، وتغلغلتْ في كلِّ مناحي الحياةِ، فحجَّرتنا وخلَّفتنا عن الرَّكبِ والتطوّرِ، فأصبحنا نعيشُ في

زمنٍ قروسطيٌ بامتيازٍ...!

قال الدكتور فالح: "ولا تنسَ أنْ تتوبَ".

لسعتنِي الكلمةُ... شعرتُ بشيءٍ حارقٍ ومُرٍّ وكاوٍ يتصاعدُ من أسفلِ بطني حتّى حنجرتِي:

- "أتوبُ مِن ماذَا؟".

أجابَ ببرودٍ: "من كميَّةِ الكلماتِ الكُفريَّةِ التي تخرجُكَ من الملَّةِ التي وردتْ في رسالتِكَ، وتستغفر ربَّكَ أيضًا...".

أجبتُ بانفعالٍ: "إنَّني - يا سيِّدي - أستغفرُ ربِّي في كلِّ وقتٍ وحينٍ، ولستُ بحاجةٍ إلى مَن يذكِّرُني بهذَا. ثمَّ إنِّني لمْ آتِ بكلمةٍ من عندِي. كلُّ الكلماتِ، والأحداثِ، والمنقولاتِ، والشخوصِ استقيتها من المراجع التي كانت تحت يدي...".

نظرتُ إلى الدكتور فايزٍ لعلَّهُ يساعدُني حتى بكلمةٍ واحدةٍ، ولكنَّهُ كانَ منكّسًا رأسَهُ، شاردَ اللُّبِّ والبصرِ.

أدركُ جيدًا أنَّه حتَّى الدكتور فايز يدورُ في فَلَكِ الدكتور فالح ولا يستطيعُ البتَّ في أيِّ أمرٍ يخصُّ الجامعةَ دون الرجوع إليه شخصيًّا.

ومَن يلتقي الدكتور فالح لأوَّل مرَّة، فقد كان يبدو رجلاً متوازنًا وقورًا، ذا سمت هادئ، وعلى محيَّاه ابتسامةٌ صفراءُ تعلو وجهه، وتفوح منه عطورٌ شرقيَّةٌ، ويرتدي ثيابًا مكويَّةً ومنشَّاةً، و... ولا شيءَ غير ذلك. منذُ تسنَّم رئاسة القسم وأنا أتوجَّسُ منه. أحاولُ دومًا الابتعادَ عنه بقدر استطاعتي. ولكنَّني كنتُ أعرف أنَّه لا مفرَّ من الاصطدام به، وها قدْ حدث ما كنتُ أخشاه!

ولمْ أكنْ أنا الضحيَّة الوحيد للدكتور فالح في هذا المكان الذي

يُطلقُ عليه – مجازًا – "الجامعة". لقد ساهمَ في مضايقة كثيرون من الأساتذة الجامعيين والجامعيَّات المرموقين. سفَّر بعضَهم إلى أوطانهم، وحوَّل عددًا منهم إلى الأعمالِ الإداريَّة، وألغى عقودَ علماء متميِّزين في تخصُّصاتهم، بل وصَّى بنقل ناقدٍ شهيرٍ من الجامعة، بدأ نجمه في الصعود إلى جامعة أخرى، إبَّانَ مرحلة الحرب على تيار "الحداثة" وفي أوج عزِّها ومجدها. تلك الحرب الحداثويَّة إذا جازت التسمية. الحداثة التي تركها العالمُ المتحضِّرُ والمتمدِّنُ منذُ سنوات بعيدة، وتلقَّفناها بعدما ماتت، أو كادت أنْ تموتَ...

ولكِنْ تلكَ قصةٌ أُخرَى.

حتَّى أنتَ يا فالحُ؟ حتَّى أنتَ يا ابنَ العمِّ؟

كنتُ أردِّدُ هذه الكلمات في صدري وأنا أتفحَّصهُ ببصري، وأدركُ تمامَ الإدراكِ أنَّه السببُ وراءَ كلِّ ما يحدث لي...

٣

أعصرُ – مسترجعًا – ذاكرتي التي لمْ تَمُتْ، ولمْ تعدْ حيَّةً في الوقت نفسه. ذاكرتِي التي تعيشُ وسطَ عالم مائع حيثُ لا موت ولا حياة. أحاولُ أنْ أتذكّر أيّامًا وأحداثًا مضت وجمعتني بالدكتور فالح راشد.

الدكتور فالح ابنُ العمِّ، والصديقُ العزيزُ – سابقًا – تجمعنا علاقةُ نسبٍ عند جدٍّ يربطنا معًا باسم مشترك. نحنُ من السلالة نفسها. نشتركُ في ما بيننا بروابط النسبِ، والعائلةِ، والدم، والقبيلةِ الواحدة. لمْ نكنْ أصدقاءَ فقط، بل أبناء عمٍّ، ولو كانَ من بعيد. أذكرُ أنَّ جدَّنا المشترك كانَ يجمعُنا من حولِه ونحنُ صغارٌ ويافعون أمامَ حجرتِه، فيحكي لنا، ربّما للمرَّةِ الألف، حكاية عام الجدري الذي حصد أرواحَ معظم رجال القبيلة ونساءها منذُ ما يقاربُ نصفَ قرنٍ. كنّا نستمعُ لها بشغفٍ كأنّه يحكيها لنا للمرَّة الأولى.

في ذاك الزمانِ البريء، كانت معظم أوقاتنا واحات من البهجة والانطلاق العفويِّ. كان فالح يقول لي: "إنَّ الحياةَ متعةٌ عابرةٌ. لذائذُهَا مطمورةٌ تحتَ لحظاتِ الفرحِ والمِحَنِ".

كان يبهرُني بكلماتهِ، وأفكارهِ، وسِعةِ أفُقه...

كنَّا نغترفُ لذَّتها كما يغترفُ الجائعُ الذي لمْ يعرفْ يومًا الشبعَ.

الدكتور فالح هذا، لا أعتقدُ أنَّه نسيَ اللَّيالي الحمراءَ التي عشناها معًا في علب الليل على شواطئ الأطلسيِّ والمتوسط، وفي حاناتِ لندن، وباريس، وكان.

تلك الأيَّامُ أذكرها الآن بوضوح. كانت لحظات مكثَّفة تغوصُ في الحلم والذكرى. كنَّا صديقين حميمين. حدث ذلك في عهود الطيش وفوران الشباب قبلَ أن يقصِّرَ ثوبه، ويتلاعبَ بمسبحته ذات فصوص الكهرمان المزيَّف، الرخيص الثمن، الداكن اللون. كان يكبرني بخمس سنواتٍ تقريبًا، وَوُلدنا في القرية نفسها، وضمَّنا الشارع المترب إيَّاه، الذي ذرعناهُ طولاً وعرضًا ونحن نتبادلُ قذفَ كرة القدم، وقد تتخلَّلها المضارباتُ والمشاحناتُ الطفوليَّةُ التي تنتهي مع غروبِ شمس ذاك اليوم. كان بسنواته الخمس التي يفوقني بها، يرى أنَّ ذلك أعطاه الحقَّ – نوعًا ما – في الوصايةِ عليَّ. يتدخَّلُ أحيانًا في أدقِّ شؤوني موجِّهًا وناصحًا، فأتقبَّلُ منه ذاك بطيبِ خاطرٍ.

أنَا بدوري، كنتُ في ذلكَ الزمن البعيد المبهج والجميل، أعتبرُ فالحًا شخصيَّةً فذَّةً، لديه طموحاتٌ وأحلامٌ كبيرةٌ يسعى إلى تحقيقها، وهذا ربَّما كانَ أهم الأسباب التي جعلته يتركُ الالتحاق بالثانويَّة العامَّة ليلتحق بمعهد إعداد المعلِّمين الذي يتخرج فيه معلِّمو المرحلة الابتدائيَّة مبكرًا. كان يُطلقُ عليهم معلِّمو الضرورة. أرادت الحكومة أن تحلَّ المعلِّمين المحلِّيين مكانَ المعلِّمين العربِ، فأنشأت معاهدَ إعداد المعلِّمين لسدِّ العجز الكبير في المدرِّسين الوطنيين. اتَّجهَ ولدُ العم فالح إلى المعهد الثانويِّ، فيما توجَّهتُ إلى الدِّراسةِ في الثانويَّة

العامَّة، ليس لأنَّني أريدُ ذلك، ولكنْ لكوني تقدَّمتُ إلى معهد إعداد المعلِّمين، فرفضوا قبولي بحجَّةِ أنَّني صغيرٌ في السنِّ. افترقتُ عن ابنِ العمِّ فالح، فذهب إلى إحدى المدن القريبة لإكمال دراسته في المعهد، فيما انتظمتُ للدِّراسة في الثانويَّة العامَّة في البلدة الأكبر المجاورة للقرية. طوال الدِّراسة لمْ نكنْ نلتقي مثل سابق العهد. كنَّا لا نلتقي إلاَّ في الإجازات الكبيرة، وليست الأسبوعيَّة بسبب ظروفنا الماديَّة الصعبة آنذاك. حتَّى سفرنا إلى المدن القريبة لتلقي العلم، كان من الصعوبة بمكان. ننتظرُ سيَّارة البضائع التي تربط بين جدَّة وجازان، ننتظرُها على الطريق العام. ندفعُ أجرةَ الركوب، ثمَّ نغادرُ القرية، كلّ إلى مسعاه. كانت الحياةُ صعبةً، ولكنَّها كانت مقبولةً بسبب بساطتها وعفويتها. كنَّا نخلقُ بهجاتنا البسيطة، فنعيشها بكلِّ حلاوتها ومراراتها، والأهمّ من هذا كلّه أنَّ القلوبَ كانت أنقى، والنفوسَ متصالحةٌ مع بعضها بعضاً.

كان يعتبر نفسه وصيًّا عليَّ بحكم أنَّه أكبرُ منّي سنًّا، ولكنَّ هذه الوصاية قد توقَّفتْ منذُ زمنٍ بعيد. طَمرتها الاختلافاتُ والأحقادُ الرماديَّةُ الباردةُ التي تحزُّ في علاقتنا كحدِّ السكين. تغيَّر الزمنُ، وفَقَدَ كلُّ شيءٍ بريقَهُ وقيمتَهُ. ما إن نلتقي حتَّى تختلجَ شفتاه المكتنزتان، وترتعدا بحركات لا إراديَّة تنبئُ عن مكنونات نفسه. أعرفُ حينئذ أنَّ أعماقه تتناسلُ بالكُره. أعرفُ أنَّ جروحه لم تندملْ بعد، وتسري في جسده رجفةٌ يختلُّ بسببها كلُّ شيءٍ في دواخله...

ولكنْ ما ذنبي أنا في كل ذلك؟!

هل نَسِيَ ابنُ العمِّ الدكتور فالح زاهيةَ وسعادًا؟

في أوَّل سفرةٍ جمعتنا معًا، وفي إحدى حانات حيٍّ "سوهو" في لندن، تعرّفنا على فتاتين عربيَّتين. كانتا من بلدٍ واحدٍ. تبدوان توأمتين لتقارب ملامحهما. أذكرُ اسميهما جيِّدًا: "زاهية، وسعاد". التقينا بهما في أوَّل سفرة لنا خارج الديار. وتلاحقتْ لقاءاتنا في ما بعد، وزادتْ وتنامتْ حتَّى وصلت مرحلة من الصداقة "الموسميَّة". كانتا بلونيهما الأبيض تبدوان مثل بهاء معتق، وتطلُّ من عينيهما رغباتٌ جارفةٌ تنشدُ الوصولَ إلى الكمال. كانت زاهية تجلسُ على فخذه، وبيدها الكأس. تبتسمُ في وجهه، وهو يرقبها بانبهارٍ وإعجاب. كلُّ شيءٍ كان يمورُ كأنَّه لحظةُ انبعاث بعد مواتٍ طويل. ظلَّتْ كلماتُ الإعجاب محتدمةً في صدره، ويدلقها على مسامعها بلا حساب. كانت الفتاتان تبدوان شاحبتين رغم المساحيق والعطور الفوَّاحة. كأنَّ طبقات الأزمنة الصعبة أضفت عليهما مسحةً من الرِّقة والدعة رغم تراكم الأيَّام السيئة والبؤس. كانتا عاهرتين. نعم، ولكنَّهما كانتا بالنسبة إليَّ وإلى ابنِ العمِّ فالح استثناءً عابرًا وسطَ عالم ينقصه العدلُ والإنصافُ. في بهو الشقَّة، كنتُ أجلسُ مع سعاد، وتتناهى إلى أسماعنا ضحكاتُ فالح وزاهية تنبعث من الحجرة المؤصَّدة. كنَّا نتبادلُ الضحكات المكتومة، ونهزُّ رأسينا، ونتبادل النكات الفاحشة عمَّا يفعلان في الحجرة المغلقة. يخرجُ فالح وبرفقته زاهية بعد ساعاتٍ طويلةٍ من حجرته، وقد تَعْتَعَهُ السُكرُ، فلا يعرفُ ماذا يقول أو ماذا يفعل! علاقتي مع سعاد انتهت بمجرَّد انتهاء أيَّام إجازتي، أمَّا علاقة زاهية وفالح، فاستمرت سنواتٍ طويلةً في ما بعد. التقطنا مع الفتاتين عشراتِ الصورِ الفوتوغرافيَّةِ. وبدا لي أنَّ ابنَ العمِّ قد

أسرفَ في تصويري صورًا فوتوغرافيَّةً كثيرةً مع سعاد، وبدرجة أقلّ هو نفسه مع زاهية. اكتشفتُ أنَّه كان مهووسًا بالتصوير مع الفتيات وهُنَّ في أوضاع مخجلة. والفتيات اللواتي كُنَّ لا يستجبن لفلاش كاميرته، كان يغرِّقهنَّ في السُّكْرِ، ثمَّ يستغلُّ فرصة غيابهنَّ عن الوعي لتصويرهنَّ إرضاءً لنزواته...

وعندما كنتُ أحتجُّ على مثل هذه التصرُّفات غير المعقولة واللاإنسانيَّة، وليس لها أيُّ داعٍ، كان يقول لي غاضبًا محمرَّ العينين: "إنهنَّ مجرَّد بنات ليل مومسات، خدماتهنَّ مدفوعةُ القيمةِ مسبقًا، فما الذي يضيركَ بما أفعله بهنَّ؟".

كان ينهرني بشدَّةٍ ويطلبُ منِّي الكفَّ عن التدخل في شؤونه الخاصَّة. تتعالى أصواتنا، ونصلُ درجة العِراك والاشتباكِ الجسديّ في غالبية الأحيان. لكنَّه كان يتغلَّب عليَّ بسبب قوَّته الجسديَّة الهائلة مقابل ضآلة جسدي وتواضع قواي. وسرعانَ ما ينتهي خلافنا، ونعودُ إلى سابق عهدنا كأنَّ شيئًا لمْ يكنْ!

٤

كلُّ شيءٍ كان يسير في طريقه المحتوم...

كنَّا في لحظات المغادرة نسيرُ في طريق العودة ونحنُ مثقلان بمشاعر الحنين والحزن والشعور بالفَقْد. أحاسيس كانت تثيرها لحظاتُ السفر والوداع. وعند عودتنا إلى أرض الوطن، كنَّا نبدأ فور وصولنا بتطهير أفلام الصور الفوتوغرافيَّة عند أرشد الباكستانيّ في مدينة جدَّة، بعدما ننفحه مبلغًا محترمًا من المال. كان يقولُ لنا إنّ لديه تعليماتٍ مشدَّدةً من الجهات المختصَّة برفض تحميض الأفلام التي يظهر فيها فتياتٌ عارياتٌ أو شبهُ عارياتٍ. كان أرشد صديقنا المشترك. في نهاية كلِّ سفريَّةٍ تجمعني مع فالح، نلتقي معه في محلِّه الكائن في حي البلد. نسلِّمه الأفلام لتحميضها، فيما نمكثُ، أنا وفالح، لمدَّة يومين في أحد فنادق البلد قبل العودة إلى القرية. نستلمُ الصور الكثيرة ونقلِّبُها بين أيدينا ونحن نتضاحكُ على طول الطريق الطويل الممتد بين مدينة جدَّة، وبين البلدة التي نسكنُ فيها. في الطريق العام الطويل، وفي المقاهي المنتشرة على الطريق؛ نطلبُ شايًا وشيشَ الجراكِ. نفردُ الصور أمامنا ونلبثُ وقتًا طويلاً نتطلَّعُ

فيها، ونسترجعُ الذِّكريات، وفي نهاية الأمر، يحتفظُ بالصور معه لكونه يملكُ في بيت عائلته حجرةً خاصَّةً به لا يستطيع أحدٌ الدخولَ لها حتَّى والده وأمّه. قال لي إنه يمتلكُ صندوقًا خشبيًّا مصنوعًا من خشب التيك، ومُطَعَّمًا بشرائح من النحاس القوي، وله قفلٌ كبيرٌ لا تستطيعُ قذيفةُ مدفع أن تكسره، كما كان يقول لي!

ثمَّ نشبت الحربُ الدَّاميةُ بيني وبينه...

الانفجارُ الكبيرُ الثاني الذي حدث في العلاقة التي تربط بيني وبين فالح وتسبَّبَ في قطعها للأبد هو حليمة... حليمة التي ربطني معها حبٌّ صامتٌ، ولم أتفوّه بهِ لأحدٍ...

تزوَّجها فالحٍ، ثمَّ طلَّقها، فتزوجتُهَا بعد طلاقها منه بسبعةِ أعوام...

انتظرتُ كلَّ هذه المدَّة حتَّى تندملَ جروحها التي سبَّبها لها فالحٌ. كانت تعرفُ جيِّدًا أنّي أميلُ إليها، ولكنَّها كانت تصدُّني برفقٍ. لكنَّني لمْ أستكنْ. لبثتُ أطاردُها حتَّى تزوَّجنا أخيرًا.

كنتُ في ذلك الوقت مشغولاً في تحضيرِ رسالة الدكتوراه المشؤومة إيَّاها، التي سحبت منّي عنوةً، ودون وجهِ حقٍّ!

منذُ ذلك اليوم أخذت العداوةُ بيني وبين فالح تنحو منحى جديدًا، وطغى عليها طابعُ التَّحدي بجانبِ الكُرهِ والاحتقارِ.

كنتُ أحبُّ حليمة، ولحُسن الحظّ، أو لسوئهِ، لمْ أخبرْ ابنَ العمِّ بهذا الحبِّ رغم أنَّ حليمة كانت ابنة خالتهِ أخت أمّه.

أذكرُ أنّه في الليلة التي تسبقُ عقد قرانَي على حليمة جاءني إلى البيت. كانت ملامحه غيرَ مريحة، وينفث كلَّ لحظة وأُخرى نفثاتٍ حارَّةً من صدره. حالما رأيته في هذه الحال المتوترة، أمسكتُ بيده،

فذهبنا إلى مجلس الرجال. يبدُو أنَّ الرجلَ لديه كلامٌ يريدُ قوله. صببتُ له كأسًا من الشاي، ولكنَّه لم يتناول الكأس من يدي، فوضعته أمامه على الطاولة. كان يزفرُ من الغيظِ، ويتمعّرُ وجهه الغضب: "ألمْ تجد من النساءِ سوى حليمة لتتزوَّجها؟".

فوجئتُ بكلماته. كان يغرسُ بصرَه في وجهي كنصلِ سكينٍ حادٍّ. أنفاسه متلاحقة، وعيناه محمرَّتان من الغضب، يريد الجواب، فنطقتُ باندهاشٍ: "وماذَا في ذلك؟ هل أنتَ وليُّ أمرِها؟ إذَا كان أمرهَا يهمُّكَ إلى هذه الدرجة، فلماذا طلَّقتهَا؟".

فجأةً لانت قليلاً ملامحُ وجههِ: "أنتَ شابٌّ لم يسبقْ لك الزواج، وتستحق أن تتزوجَ بكرًا...".

- "ولكنِّي أحبُّها يا ابنَ العمِّ، وأشعرُ أنَّها هي الزوجةُ المناسبةُ لي...".

ما إن سمعَ كلماتي، حتَّى نهضَ بغتةً من مجلسه. رمقني شزرًا بعينيه، ثمَّ خرج مسرعًا لا يلوِي على شيءٍ!

كانت تلك الزيارة قد شكّلت منعطفًا حادًّا في علاقتي بابنِ العمِّ الدكتور فالح...

٥

ما إن وقعَ بصري عليها حتَّى انقبضَ قلبي!

لها أسماءٌ كثيرةٌ تُعرفُ بها: "الخاتنةُ"، "المُشكِّكةُ"، "مُقطِّعةُ البظورِ"، "الخافضة". قطعت بظورَ نصفِ بناتِ القرية، والنصف الآخر قطعته أمُّها، قبل موتها. ورثت هذه المهنة من أمِّها التي ماتت منذُ سنواتٍ مضت. لمْ تكنْ مجرَّد خاتنة للبنات بل "مُشكِّكة". كانت عمليَّة "تشكيك" البنت قليلةً نوعًا ما. تلجأ إلأيها الأُسرُ المتزِّمتةُ والمتشدِّدةُ في تربية البنات. كثيرًا ما كنَّا نسمع في ليلة زفاف إحدى الفتيات أنَّها "مشكوكة"، فلم يقدر الزَّوج أن يفتضَ بكارتها. كانت عمليةُ تشكيكِ البناتِ تتمُّ في وقتٍ متزامنٍ مع ختانها، فبعدَ أن يُقطعَ بظرها أو جزء منه، تسد الخاتنةُ فتحةِ المهبل بإقفالها بتخييط الشفرين حتَّى لا يبقى سوى فتحة البول، وذلك بواسطة إبرة خاصَّة لهذه العمليَّة. وليلة زواج البنت يستدعون الخاتنة مرَّةً أُخْرَى فتشقّ الشفرين الملتحمين بواسطة موس حلاقة، ليس هذا فحسب، بل يُطلب من الزَّوجِ الدخول فورًا على زوجته ليفتضَّ بكارتها حتَّى لا يلتئم الجرحُ مرَّةً أُخْرَى.

وجاءَ يوم شؤمي مبكِّرًا...

كنتُ في السادسة من عمري أنتظرُ مجيء نوري لنلعبَ في ظلِّ البيت وقت الضحى. كان نوري يحملُ الأحجار الملوَّنة وهو قادم نحوي، وعند اقترابه منِّي، تعثَّرَ بأكوامِ الحجارةِ الملوَّنةِ التي أحضرتُها، فوقع بجسدهِ فوقي، فسقطنا معًا على الأرض. وقع بجسده فوقَ جسدي تمامًا. في هذه اللحظة بالذات، ألتفتُ فزعةً إلى الجهة المقابلة. رأيتُها واقفةً بطولها الفارع، وجسدها الضخم...

لم أشعرْ بحضورها إلاَّ بعد أن شممتُ رائحةَ إبطيها القوية، وطغى على المكان ظلُّها الثَّقيل على العين والنفس. عيناها الجاحظتان تكادان تخرجان من محجريهما. مؤخِّرتها الضخمة تكادُ تسقط على الأرض، ونهداها المترهِّلان يكادان يصلان إلى أسفل بطنها البارز. كانت واقفةً تنظرُ إلينا بازدراءٍ واضح. تهزُّ رأسها باستنكارٍ، ثمَّ نطقتْ قائلةً: "بنات آخرِ زمن... عهرٌ لمْ أرَ مثله!".

مضت تسيرُ ببطء. تنسلُّ في مشيتها مثل الحيَّة. نفضتُ نوري من فوقي مذعورةً. تابعتُها بعينيَّ حتَّى طرقت البابَ، ففتحتْ لها أمِّي مرحِّبةً بها، فيما تجمَّدتُ في مكاني من الخوفِ. انسحب نوري من المكان، ولمْ أشعرْ به.

بعد قليل نادتني أمِّي، فدخلتُ والخوفُ يأكلُ قلبي. كانت أمِّي تبدُو غاضبةً، وسألتني بحِدَّةٍ عمَّا كنتُ أفعل مع نوري. قلتُ لها وجِلةً: "كنَّا نلعب".

- "أيّ لعبةٍ؟".

أجبتُ ببراءةٍ: "نلعبُ بالأحجارِ الملوَّنة".

- "لماذَا تكذبينَ عليَّ؟".
- "أنَا لا أكذبُ عليكِ".

لا أعرفُ ما هو السببَ الذي جعلني أبكي في تلك اللحظة، ولكنَّني بكيتُ هلعًا من ضيفتنا ذات السمعة المرعبة.

احتقنَ وجهُ أمّي، وابتسمتْ ضيفتها ابتسامةَ تَشفٍّ أو استغراب. لَمْ أكنْ أستطيعُ تقديم أيِّ تفسيرٍ. سألت الضيفةُ أمّي فجأةً: "هلْ خُتنتْ؟".

أجابتها بهزَّةٍ من رأسها، ألحقتهَا بكلمةٍ واحدةٍ تكاد لا تُسمع: "نعم".

- "ومَن ختنهَا؟".
- "أمّكِ رحمها الله".
- "لا أَعتقدُ أنَّ ختانها تمَّ بطريقةٍ جيدةٍ. يبدُو أنَّ أمّي ختنتها في أواخر عمرها، حينما ضعف بصرُها، وفقدتْ مهارتها...".

صاحت فيَّ الضيفةُ بصوتٍ كالرعد: "اقتربي يا بنت!"

أصابني الفزعُ من صوتها، فاقتربتُ والخوف يمسكُ بتلابيبي، بل هو الخوف مَن ساقني إليها. حالما أصبحت في متناول يديها، امسكتْ بيدي، ووضعتْ منتصفَ صدري ووجهي تحت إبطيها، فصدمتني الرائحةُ وكدتُ أتقيأ. نزعتْ بيدٍ قويَّةٍ سروالي الداخليّ، فبكيتُ. باعدتْ بينَ فخذيَّ، فشعرتُ بأصابعها تفتحُ "مكمني"، ثمَّ تقولُ لأمّي: "أترين؟ ما هذا؟ لا زالت كما هي، لم تُقطع بطريقةٍ سليمة".

قالَتْ لها أمّي: "لكنّي ختنتها. لا يجوزُ أنْ أختنها مرّةً أُخرَى".

قالتْ لأمّي بصوتٍ عالٍ يشوبُه التقريعُ والتوبيخُ: "إذنْ، انتظري حتَّى تسببَ لكِ فضيحةً مدوّيةً في طول الوادي وعرضه. مثل هذا الحجم لا يجبُ أن يبقى. البنتُ لا زالت صغيرةً، وكلَّما تمَّ ختانها في سنٍّ مبكرة، كان أفضل لها...".

قالتْ أمّي وبدت قد اقتنعتْ بكلامها: "أخافُ على بنتي أنْ يحدثَ لها شيءٌ".

- "اسمعي كلامي، سوف أختنها وأشككها الآن. هكذَا أفضل لكِ، ولهَا، ولسمعتهَا".

- "لا، لنْ أفعلَ هذَا مرَّةً أُخْرَى ببنتي...".

- "ستندمينَ على قرارِكِ هذا. مَن في رأيك سيقبلُ أن يكون زوجًا لفتاة تملكُ كلَّ هذا الحجم من عضوٍ يجبُ أنْ يُقطع؟!".

ربَّما قدَّرتْ أمّي في ذلك الوقت أنَّ الخاتنةَ سوف تفضح بنتها في طول الوادي وعرضه. تخيَّلتها وهي تقول في كلِّ بيتٍ: "حليمة بنتُ ليلى لديها بين فخذيها بظرٌ حجمه مثل حجم عُرف الديكِ!".

كانت الخاتنة تصفُ بظرَ البنتِ بعُرفِ الديكِ، تقول ذلك وهي تمدُّ أصابع يدها الأربعة مضمومةً أمام عيون النساء المفتوحة على آخرها، فيندهشنَ، ويشهقنَ من وصف بظر بنتها. حينئذ لنْ تقبلْ أيُّ أمٍّ أنْ تزوِّجَ ولدها بنتًا غيرَ مختونة.

يبدو أنَّ أمّي قد فكَّرتْ سريعًا في العواقب، فوافقتْ على إعادة ختاني، ليس هذا وحسب، بل "تشكيكي" حتَّى لا أجلبَ العارَ إلى عائلتي!

وافقتْ أمّي على ختاني مرَّةً ثانية خوفًا من الفضيحةِ وكلامِ

النَّاس. كنتُ آنذاك أبكي، وأصرخ، ولكنْ لا أحدَ يعيرني انتباهًا.
قالت الخاتنة لأمّي: "امسكي فخذيها جيِّدًا".

مدَّت الخاتنةُ يدها داخل صدرها، وأخرجت كيسًا بلاستيكيًا، فتحتهُ، واستخرجتْ منه إبرةً وبكرةً يلتفُّ حولها خيطٌ قويٌّ أسودُ اللون. أدخلت الخيط في سَمِّ الإبرة. اقتربتْ منّي فتعالت صرخاتي. باعدتْ أمّي بينَ فخذيَّ، وشعرتُ بأصابع الخاتنة تمسكُ بقطعة لحم في أعلى "مكمني". غرست رأس الإبرة فيه، فشعرتُ بوخزها كأنّها اخترقت عيني، فزاد صراخي، واشتدَّ نحيبي. مرَّرت الإبرةَ حتَّى بلغَ الخيط منتصف طوله. ضمَّت طرفي الخيط، ثمَّ شدَّتهما إلى أعلى، فشعرتُ كأنَّ أحشائي تتقطَّعُ وتُنتزعُ من مكانها. استخرجتْ من صدرها موسَ حلاقة. أمسكت الخيط بيدها اليُسرى، والموس باليد اليمين. شدَّت قمّة بظري إلى أعلى. وضعت الموس أسفله، واحتزَّت قطعةَ لحم ورديَّة اللَّون. رفعتها أمام عينها فهزَّت رأسها استحسانًا. ارتاحتْ قليلاً، ثمَّ قالتْ لأمّي:

– ضعي سُكرًا في إناء. سخِّنيه مع مقدارٍ قليلٍ من الماء، وإذا أصبح المزيجُ سائلاً، دعيه يبرد قليلاً، ثمَّ احضريه.

نفَّذتْ أمّي ما طلبته الخاتنةُ. أحضرت السُّكر بعدَ أنْ أصبحَ عجينةً بُنيَّة اللَّون ومتماسكة. وضعت الإناء بجانبها. قالتْ لأمّي: "امسكيها جيِّدًا، سوف أشككها".

أمسكت أمّي بفخذيَّ بقوَّة بعد أن مدَّت رجليَّ إلى الأمام. وضعت الخاتنةُ خيطًا آخرَ في الإبرة، واقتربتْ منّي. غرست الإبرة في الطرفِ الأيمن من "مكمني"، وارتحلت به إلى الطرف الأيسر في

أربع شكّاتٍ يمينًا، ومثلها يسارًا. بعد أن انتهتْ من التقفيل صاحت على أمّي قائلة: "أعطني السُّكَّر المُذاب".

ناولتها أمّي عجينة السُّكَّر. وضعت الخاتنةُ المزيجَ على جرحي النازف دمًا، ثمّ لفّتْ بإحكام حول جزئي الأسفل قطعًا من القماش. حينذاك لمْ أعدْ أشعر بشيءٍ. رحتُ في غيبوبةٍ لمْ أفقْ منها إلاّ بعد ساعات...

٦

حينما أفقتُ من غيبوبتي، حاولتُ النهوضَ على قدميَّ لكنني لمْ أستطعْ. كانتا مقيَّدتين بقطع قماش من فوق الركبة حتَّى الحوض. صرختُ أنادي أمّي... جاءتْ. قلتُ لها كلمةً واحدةً، وأنا أشير باكيةً على نصفي الأسفل: "لماذا؟".

لم تجبْني بكلمة. أشاحت بوجهها عنّي. شملنا صمتٌ عميقٌ قطعته قائلة: "فكّي قيدي".

- "ليسَ الآن. بعد أسبوع ربّما، حتَّى يلتئم جرحكِ".

كنتُ خلال الأسبوع طريحةَ الفراش. آلامي التي لا تُحتمل، وأسئلةٌ كثيرةٌ تدور في رأسي، ولا أجدُ أيَّ جوابٍ شافٍ لها. كنتُ أتبوَّل على فراشي. بولي يخرجُ مخلوطًا بدمي، وبقطعٍ صغيرٍ من السكر المتجّمد.

كان التبوّل بحدّ ذاته تعذيبًا قاسيًا. فحالما يخرجُ مائي يمرُّ على جرحي الكبير، فأصرخُ وأبكي، وأتلوّى من الألم. حاولتُ في غياب أمّي أنْ أفكّ قيدي فلمْ تقدر يداي الصغيرتان على حلِّ الرباط المحكم بشدّةٍ حول وسطي. أحسستُ بكلِّ شرور العالم تصطخبُ في

صدري. وكرهتُ كلّ شيء. كرهتُ أمّي، وكرهتُ نوري، وكرهتُ اللَّعبَ، وكرهتُ بوتيرةٍ أشدّ الخاتنة. عزلتني أمّي في حجرةٍ بعيدةٍ حتّى لا أكونَ موضع تساؤلات زائراتها من نساء القرية. في نهاية اليوم السابع، بدأ الألمُ يتلاشى إلاَّ آلامَ قلبي. لا تزال حيّةً لم تمتْ، ولنْ تموتَ. بداية من اليوم الثالث على عمليّتي الختان والتشكيك، كانت أمّي في مساء كلّ يوم تضعُ على الطبقة السوداء الموضوعة على "مكمني" زيتَ السمسم لكي تلينَ قليلاً حتّى تسقط من تلقاء نفسها في اليوم السابع، أو ما بعده من الأيّام.

بعد مرور أسبوع جاءت أمّي بطشت فارغ وجردل مملوء بالماء. فكّت قيدي السفلي المحكم الربط. طلبت منّي أنْ أقفَ على قدميّ. حاولتُ الوقوفَ فسقطتُ على سريري. أمسكتْ أمّي بيدي، وأنزلتني برفق على الطشت. صبّت الماء على رأسي، وظهري، وذراعي، وحينما مدّت يدها لتزيل الطبقةَ السوداءَ التي تسدُّ مكمني، صرختُ باكيةً، لكنها لم تعرني أدنى انتباه. وبكثير من الحذر أزالت أمّي الطبقة السوداء من مكمني، ثمّ نظرتْ إلى مكان الجرح، فتهللّ وجهها بالفرح. قالت بهدوء: "جرحك طاب، أو كاد، والفتحةُ تمّت تغطيتها بنجاح".

لا أدري ماذا أقول. كانت الآلامُ تعاودني في الأيّام التالية حتّى تلاشت تمامًا. بدأت أعود تدريجيًا إلى ممارسة عاداتي اليوميّة الرتيبة. شيءٌ ما داخلي انكسر وتحطّم إلى أشلاء كثيرة. لم أعدْ كسابق العهد. انتقلتُ من مرحلة إلى أخرى جديدة تفصل بينهما هوّةٌ عميقةٌ. أبتسمُ حينًا، وأبكي أحيانًا أُخر كلّما تذكّرتُ ما حدث لي. الشيء الذي كان

يعكّر صفوَ سير الأيّام الحثيث هو رؤيتي الخاتنة ولو بالمصادفة. وإذا شاء حظّي العاثر والتقيتُ بها، كنتُ أبكي، وأضعُ يدي لا شعوريًّا على "مكمني". حتّى إنّني هممتُ في يوم ما التقيتُ بها مصادفة أنْ أرميها بحجرٍ، لكنْ بمجرّد أنْ نظرتْ إلي بنظرتِها الباردة تلك، هربتُ وأطلقتُ لساقيَّ الريح. اليوم الذي أراها فيه كانت الكوابيس تزورني ليلاً. يمرُّ ليلي ما بين بكاء، وصراخ، وغضب كبيرٍ أخفّفُ منه بعضَ وسادتي بأسناني حتّى يهدّني التّعبُ. كنتُ أسمعُ بين حين وآخر أثناء حدوث أيِّ عرس في القرية أنّهم قد استدعوا الخاتنة، لأنَّ العروسَ عاثرةَ الحظّ كانت مشكوكةً. أُمضي ليلي متفكّرةً، صامتةً، حائرةً. الخاتنةُ لعنةٌ كبيرةٌ حلّت على القرية وأهلها. في صلواتي كنتُ أدعو الله أن يُهلكها ويميتها شرّ ميتة. لمْ يكنْ أهلُ القرية يلجؤون إلى المستشفيات لفتحِ البنت "المشكوكة" لأنّها كانت عمليّة ممنوعة، وربّما تمَّ إبلاغُ الشرطةِ إذا لجأت إحدى الأُسر لفتح "الشكّ" في المستشفى. كانت تتم في السرِّ، وبعيدًا عن العيون، ولكنّها سرعان ما تنكشفُ في الأيّام التالية للعرس، إذا حدثت مضاعفات خطيرة للعروس. حينئذ كان أهلُ العروس يُضطرون للجوء إلى المستشفى، فينكشف أمرهم. كانت تحدث ملاسنات بين الأطباءِ والأهالي تصلُ حدّ التهديد بإبلاغ مركز الشرطة، لكنَّ هذا التهديد سرعان ما يتلاشى عندما تحدث الوساطات ليتمَّ وئد الأمر في مهده.

كنتُ أنظرُ إلى مكمني بشيءٍ من القرفِ الممزوج بالرعب والخوف. كنتُ أراهُ جزءًا لا ينتمي لي. أرتعبُ حينما تسرحُ بي الأفكارُ لتصلَ بي إلى يوم زفافي المُتخيَّل. أسألُ نفسي: ماذا سيحدث

حينئذ؟ لا شيء، سيدخل العريسُ عليَّ، ويجدني "مشكوكةً". يبلغُ أمّي فتلجأ بدورها إلى الخاتنة مرَّةً أُخْرَى؟

يا إلهي! هل سيحدث ذلك مرَّةً أُخْرَى؟ هل سألتقي بهذه المتوحّشة، والبشعة مرَّةً أُخْرَى؟

لا... لَنْ يحدث. أقولُ ذلك لنفسي معزِّيةً، ولكنّني أعرفُ تمامًا أنّه سوف يحدث يومًا ما، شئتُ أم أبيتُ. تنتابني نوبةُ بكاء طويلة ومتّصلة. أظلُّ أبكي حتّى أتعبَ من البكاء، وأنسحبُ إلى ذاتي صامتةً ومشوَّشةَ الذهنِ...

أقولُ لأمّي بإصرارٍ: "لَنْ أتزوَّجَ في يومٍ ما، ولَنْ أقبلَ أيَّ شخصٍ يرغبُ في زواجي".

تضحكُ أمّي وتقولُ لي: "فتاةٌ في مثل جمالك لَنْ يطولَ بها أمرُ الزَّواجِ".

تستغرقُ بالضحكِ واستغرقُ أنا بالصمتِ وكتمِ الغيظِ...

٧

صدقتْ تنبؤات أمّي...

لمْ أكنْ أعرفه. كنتُ أسمعُ النَّاس من حولي يقولون، ونظرات الإعجاب تطفرُ من عيونهم: "جاء الدكتور فالح، راح الدكتور فالح. طلع الدكتور فالح، نزل الدكتور فالح".

لمْ يكنْ يأتي إلى القرية إلاَّ على مدد متباعدةٍ. يزورُ فيها أمّه شبه العمياء. كانت خالتي، وأخت أمّي من جهةِ الأب. كنَّا نرعاها ونفعل لها ما يفعله القريبُ مع القريبِ. نتعهّدُ طلباتها. ننظّفُ بيتها. نجهّزُ طعامها. نزورها، أنا وأمّي، في اليوم أكثر من مرَّة كلَّما دعت الحاجة إلى ذلك.

في إحدى زياراته إلى أمّه، رآني. مررتُ بجانبه. توقّف عن المشي والتفت نحوي يتأمّلني. الدكتور فالح. كان دكتورًا، وليس طبيبًا. كنتُ أسمعُ من النَّاس أنَّه قد أصبح دكتورًا، فيختلطُ عليَّ الأمر: هل يعني هذا أنَّه طبيبٌ يعالج المرضى؟

لمْ أفهمْ إلاَّ بعد مدة طويلة أنه كان دكتورًا يعملُ في إحدى الجامعات، وأنَّ عمله يختلفُ عن عمل الطبيب.

"عقله متفتحٌ وفاهم كلّ شيءٍ كما يجب أن يكون"، هكذا كانت تقول لي أمّي بعدما طلبت منها أُختها أن تقبلَني زوجة لابنها الدكتور فالح. كانت عزوبيّته التي طالت موضعَ تساؤل أهل القرية: لماذا لمْ يتزوَّجْ حتّى الآن؟ ولماذا هو غائبٌ كلَّ هذا الوقت في المدن البعيدة؟ ولماذا يبدُو متبرِّمًا ضيّق النفسِ أثناء وجودِهِ هنا؟

انهارَ الوعدُ الذي قطعته على نفسي أنّني لنْ أتزوَّجَ ما دمت على قيد الحياة. وحينما بثثتُ شكوايَ لأمّي وأبديتُ لها تخوّفي من الزّواج وتوابعه، وخصوصًا في أيّامه الأولى لأنّني "مشكوكةٌ"، قالت لي: "لا تخافِي. هذا رجلٌ متنوِّرٌ ومتعلِّمٌ. سيعالجُ الأمرَ بطريقةٍ تزيل كلّ مخاوفك. ربّما أخذك إلى المدينة التي يعمل فيها، وهناك سيعرض حالتك على أطباء سينهون كلَّ شيءٍ دون شعورك بأيِّ وجعٍ أو ألمٍ".

لكنَّ خيبتي كانت كبيرةً!

في يوم "الدخلة"، بدا مرتبكًا ارتباكًا لا يليقُ بمَن هُم في سنِّه. كنتُ أنتظرُ منه أنْ يحتويني ويهوِّنَ مخاوفِي، لكنْ عبثًا. كانت التساؤلاتُ تشغلني من ناحية جرحي القديم. إذا رآه مشكوكًا، فكيف سيكون ردّ فعلِهِ؟ هل سيفعل مثل بقيَّةِ شباب القرية؟ يستدعون تلك الملعونة، فتفتح مكمني ويفضّ بكارتِي في اللحظة نفسها مثلما يفعلون؟ هل سيأخذني إلى مدينته التي يعملُ فيها ويعرضني على الأطباء، فيزيلون سببَ شقائي وأنا واقعة تحتَ التخدير حتّى لا أشعرَ بالألم؟

كان يتركني كلَّ يوم في الصباح الباكر. يركبُ سيارتَه. يذهب ولا يعود إلاَّ مع بواكير فجر اليوم التالي. كنتُ أرقبُ قلقه وارتباكه، وشعرتُ بحدس الأنثى الذي لا يخيب: إنَّه رجلٌ عاجزٌ...

يا لها من كلمة!

رجلٌ عاجزٌ في مواجهة امرأة عاجزة! أيّ سوءِ حظٍّ هذا؟

بعد ثلاثة... غادرَ القريةَ فجأةً...

غابَ حوالي نصف سنة، ثمَّ عاد، وليته لمْ يعدْ!

سألتُ نفسي: هل من المعقول أن يكونَ هذا أهم شباب القرية الذين يُشار إليهم بالبَنانِ؟ هل هذا هو الدكتور الذي وصلتْ سمعته إلى القرى المجاورة، وحتّى البعيدة؟

كانَ دنيئًا، وحشًا، جبانًا، حقيرًا...

خسَّته وحقارته ظهرتْ جليَّةً حينما وافق على أن تشق تلكَ المرأةُ اللعينةُ الخاتنةُ "مكمني" المشكوك مرَّةً أُخرَى ليلجَ بقضيبِهِ بينَ دمائِي وصرخاتِي ورجائِي!

جاءت الخاتنةُ في زيارتها المحتومةِ الثانية بعد مرور خمسة عشر عامًا من زيارتها الأولى!

لا تزال لها الملامح البغيضة نفسها وكذلك اليدِ الخشنة، والنظرةِ المرعبةِ والمخيفةِ عينها. فوجئتُ به يمدُّ لها يدَ العونِ بكلِّ برود. ساعد أمّي في إمساكي برجليَّ. كان يراقبُ عملَ الخاتنة بوجه جامدِ الملامح وعينان غائمتين، بل ساعدها في حشوِ قطعةِ القماش في فمي حتّى لا تفضحَ صرخاتي ما يفعلونه بي!

حينما طلبتْ منه الخاتنةُ أن يدخلَ عليَّ بعد عمليَّة الفتح، راهنتُ نفسي أنّه لنْ يفعلَ. مَن هُم في مثل عقلِهِ الراجح، وعلمِهِ الغزير، وثقافته ومستوى تعليمه لنْ يفعل...

ولَكِنّه فعلَهَا!

٨

توسَّلتُ إليه بنظراتي ألاَّ يفعلها ولكنَّه فعلها... اللئيمُ!

وقف أمامي كصنمٍ. عيناه تلمعان كعينيّ ذئبٍ. أنزلَ سروالَه، ثمَّ غرسَ رمحه في قلبي. حينئذ لمْ أعدْ أشعرُ بشيءٍ. ماتتْ صرخاتي، وجفَّتْ مآقيَّ وانطفأتْ مصابيحي للأبد.

طوال ثلاثةِ أيَّام لمْ أعدْ أتحمَّلُ وجودَه بجانبي. لمْ أطقْ رؤيةَ وجهه، ولا رائحةَ عطوره الغالية الثمن، ولا رائحةَ سجائرِه التي كان يدخنّها متوارياً عن الأنظار، ولا سماعَ خطواتِه المتمهلة داخل البيت. قلتُ له بصعوبةٍ وأنا أنتزعُ كلماتي انتزاعًا من صدري: "إذا كانت لديك أدنى ذرَّة من الرجولة فطلِّقني!".

توقَّعتُ أنْ يرفضَ، أنْ يقولَ على الأقل: لا... لكنَّه قالَ وسط دهشتي: نعم...

اقترح، أو أمّي - لا أعرفُ مَن كانَ صاحب الاقتراح - أنْ يتمَّ الطلاقُ بعد مرور وقتٍ مناسبٍ حتَّى لا تلوكَ النَّاس بألسنتها في سيرتنا.

لعنةُ اللهِ عليكَ، وعلى سيرتكَ، وعلى سيرتنا معكَ... هكذَا

هجستُ لنفسي عندما سمعتُ ما قاله.

أرسلَ ورقة الطلاق وهو في مكان عمله، فتنفستُ الصعداء، ثمَّ أغلقتُ قلبي دونَ الرجالِ إلى الأبد.

نوري هو فقط مَن استطاع أنْ يفتحَ كوَّةً صغيرةً تسرَّبَ منها الضوءُ إلى أعماقي المعتمة الغارقة في السواد، والإنكار، والنبذ.

نوري المدرِّسُ، الوسيمُ، الهادئُ، الغارقُ في كتبه وموسيقاه، نفذَ داخلي، وتربَّع على عرش قلبي. منذ "سقطته" المشؤومة فوقي، التي رأتنا فيها الخاتنة اللعينة معًا نلعب ذات ضحى...

أقفلتُ باب قلبي سبعَ سنوات، كان نوري خلالها لا يكلُّ، ولا يملُّ، كان يحفرُ بدأب فوق جداري الصلب. أرسل إلى أمّي رجالاً كثرًا يخطبونني منها، ولكنَّني كلَّ مرَّةٍ كنتُ أرفض. لمْ ولنْ أنسى ما حدث لي. جروحي تتجدَّدُ كلَّ يوم مئة مرَّة. ذات يوم قابلته مصادفة في أحد أزقة القرية فقال لي: "ما الذي يخيفك منّي؟ أنا لنْ آكلك، لمْ ولنْ أنساك يومًا ما...".

أزاحت كلماتُه الرقيقة آخرَ حصون ممانعتي، واستجبتُ لنداء العشق والهوى القديم، فوافقتُ على الزَّواج به.

تزوَّجتهُ ولكنّني لم أجرؤْ على إخباره أنّي كنتُ "مشكوكة". خاطرٌ ما عنَّ لي فمنعني من ذلك.

بعد أن شعرتُ بمخاوفي تتلاشى، وخيباتي السابقة تتآكلُ معالمها البائسة والمؤلمة، طرقتْ بابي ذات يوم امرأةٌ منقَّبةٌ تُغطي حتّى يديها بقفازين. سلَّمتني مظروفًا كبيرًا، ثمَّ مضت دونَ أن تنبس بكلمةٍ واحدةٍ. فتحتُ المظروفَ، ووجدتُ فيه خيبتي الكبرى الثانية...

صورٌ كثيرةٌ لنوري في أحضان فتيات شبه عاريات، وفي أوضاع مخجلة. كؤوسُ خمرٍ، وملابسُ نسائيَّةٌ مثيرةٌ. هلْ يُعقلُ أنْ يكونَ هذا "نوري"؟

الرجلُ الخجولُ، القليلُ الكلماتِ، الهادئُ الطبعِ. شعرتُ بنارٍ حارقةٍ تلسعُ أعماقي. شعرتُ أنَّني قد أصبحتُ هدفًا لطعناتٍ قاتلةٍ من سيوفٍ باترةٍ تقطعُ أجزاءَ جسدي بلا رحمةٍ. حينما عادَ نوري من عمله، أريته الصور. نهضَ على قدميه كأنَّ جمرًا لسعَ مؤخِّرته. تقلَّصتْ ملامح وجهه، وتكوَّنتْ حبَّات العرق على جبينه. نكسَ برأسه إلى الأرض وسكتْ...

كان ذلك كافيًا لي. صمتُه... تعرُّق جبينِه... بصرُه الزائغ... هدوؤه. كانت أدلَّةٌ تدينهُ وتكشفُ حقيقته.

قلتُ له بعد أيَّام من تلك الحادثة، الكلمات نفسَها التي قلتها لفالح: "إذا كانتْ فيكَ ذرَّةٌ من الرجولةِ فطلِّقني!".

انفصلتُ عن نوري ولمْ أشعرْ بالأسفِ. كنتُ أعتقدُ أنَّ الحبَّ له قدرةٌ هائلةٌ على إصلاح كلِّ الأخطاء بلمسةٍ حانية ساحرة تمسُّه مسًّا رقيقًا لكنَّني كنتُ واهمةً. قبل حادثة الصور تلك، أرسل إليَّ إشاراتٍ مقلقةً قبل انفصالنا، ثمَّ جاءت حكاية صوره الخليعة، فانهارَ كلُّ شيءٍ. كنتُ أصحو من النوم على كلماتٍ مبهمة يتفوَّه بها أثناء نومه، كلمات من نوع: الملاَّح... الجلاَّح... الحلاَّج... لا أعرفُ. كان يصرخ في أحيان، ويبكي في نومه أحيانًا أُخَرَى. يفزُّ من النوم جزعًا، وبصعوبة، كان يعودُ إلى النوم مرَّةً أُخْرَى. في آخر أيَّامنا قبل الانفصال، كان يبدو مهمومًا، وقد طال شعر رأسه وذقنه. يمكثُ

لياليَ طويلةً غارقًا بين الكتب.

الكتب... الكتب... الكتب، كرهتُ الكتبَ لأنَّني كنتُ أراها تشاركني فيه، وتسرقُ وقته منّي. أذكرُ أنَّه في أوّل أيّام زواجنا أحضر إلى البيت كراتين كثيرةً مملوءةً بالكتبِ. بعد الطلاقِ وضعتُها في حجرةٍ بعيدة نستخدمها كمخزن، ولفتَ نظري بين كراتين الكتب الكثيرة حقيبة من نوع سامسونايت من الحجم الصغير. حاولتُ أنْ أفتحها لأعرفَ ما داخلها ولكنّني عجزتُ. ربّما كانت فيها أوراقٌ تخصُّه، وقدْ قرَّرتُ أنْ أعيدها إليه عن طريق أمّي حالما أراه في القرية، خلال واحدة من إجازاته، وسأطلبُ منه أيضًا أنْ يأخذَ كتبه الكثيرة من بيتي.

لا أريدُ أنْ أرى أيَّ شيءٍ يذكّرني به بعدَ اليوم...

٩

قالتْ لي حليمة ذات جلسةٍ حميميَّةٍ إنَّ الدكتور فالح فشل معها زوجًا.

لمْ أفهمْ في بادئ الأمر مقصدها، فجاءتْ مفاجأتها المدوِّية الأخرى: "ابنُ عمِّك رجلٌ عاجزٌ جنسيًّا".

صمتتْ قليلاً كأنَّها تقيسُ وقع كلامها عليَّ قبل أن تطلقَ رصاصتها الثانية: "ليس هذا فحسبْ، بل مريضٌ نفسيًّا، ومختلٌّ عقليًّا. له تصرُّفاتٌ وأفعالٌ غريبةٌ...".

توقَّف تنفّسي، وسكنتْ حركتي، وأصبحتْ كلُّ حواسي في حالة استنفار وتوثّب لكلِّ ما ستقوله. وبهدوء لا أعرفُ كيف هبطَ عليَّ في تلك اللحظة، قلت لها: "تصرُّفاتٌ وأفعالٌ غريبةٌ مثلُ ماذا؟".

تردَّدتْ في الكلامِ لكنَّني شجَّعتها بضمِّها إلى صدري، فقالت: "كان يضربني بشدَّة قبل أنْ يمارسَ حقَّه الزوجيّ معي، لا يفعلُ ذاك الشيء معي إلاَّ بعد أُن أبكي بمرارةٍ، وأرجوه أنْ يكفَّ عن ضربي، ولهذا السبب طلبتُ منه الطلاقَ".

ولمْ تستطعْ أنْ تكملَ كلامَها، فأخذتْ تبكي، وخيَّمَ صمتٌ ثقيلٌ وكثيفٌ.

صُدمتُ وأصابني الذهولُ. أدركتُ حينئذ سببَ كلِّ هذا العداء الذي زجَّ فالح بي في أتونه. كان يحاولُ مستميتًا أن يمنعَ هذا الزَّواج حتَّى لا تكشفَ زوجته السابقة هذا السرَّ الكبيرَ والمفجعَ...

ومع ذلك، لمْ يتركني الدكتور فالح المختلُّ نفسيًّا والساديُّ في حالِ سبيلي. كان سببًا في طوي صفحةِ زواجنا. استخدم طُرقًا تتَّسمُ بالخسَّةِ والوضاعةِ وليست غريبةً ممَّن هُم على شاكلته في سبيل إنهاء هذه الزيجة.

لمْ يكنْ ذلك يحزنني بقدر ما كانت خيبتي كبيرة في كون حليمة انهارت أمام أوَّل امتحانٍ حقيقيٍّ لعلاقتنا. صمَّتْ أذنهَا وعقلهَا وقلبهَا عن توسُّلاتي، واختارت أن تنتهي علاقتنا الزوجية بمثل هذه البساطة.

الذي حدث أنَّني عدتُ يومًا إلى البيت تِعبًا ضجِرًا، ووجدتُ حليمة تبكي وهي تستندُ بذراعيها على طاولة، وبيدها مجموعةٌ من الصور. اقتربتُ منها مستفسرًا، فألقت في وجهي عشراتٍ من الصور الفوتوغرافيَّة. أمسكتُ ببعض الصور فذُهلتُ منها. كانت تلك الصور تخصُّني. كانت صورًا كثيرةً لي مع سعاد وغيرها من الفتيات اللواتي عرفتهنَّ في سفرياتي القديمة والسابقة برفقة الدكتور فالح. لقطاتٌ كثيرةٌ لي ولفتيات ونحنُ في أوضاعٍ كثيرةٍ ليست جنسيَّة فاضحة لكنْ فيها مجونٌ، وفسقٌ، وخمرٌ، وعريٌّ لا يصلُ حدَّ التجرُّد الكامل من الثياب. بعض الصور لا أعرفُ كيف التقطت لي. ربَّما كنتُ نائمًا أو سكرانًا في ذلك الوقت. لا أعرفُ! لكنَّها كانت صورًا مؤلمةً ومخزيةً

في الوقت نفسه.

سألتُها مذهولاً: من أين حصلتِ على هذه الصور؟ لم تجبْني سوى بالبكاء. لكنَّها لم تبكِ كثيرًا. في لحظةٍ خاطفة وقفت على قدميها بكلِّ هدوءٍ أدهشني فيه انتقالها من النقيض إلى النقيض. كفكفتْ دموعها، واستعادتْ رباطة جأشها، وطلبت الطلاق من الفور. تركتُها وخرجتُ ريثما تهدأ أعصابُها، ويستكينُ غضبُها. حاولتُ على مدى أيّام طويلة أن أثنيها عن رغبتها، ولكنَّها كانت قد أخذت قرارها الذي لا رجعةَ فيه...

قالتْ لي بينَ دموعها: "كلُّكم سواءٌ. مجرَّد كلاب تنهشُ لحمي وتطلبُ منّي بكلِّ وقاحةٍ أنْ أصمتَ ولا أتألمَ".

لمْ أتفوّه بأيِّ حرفٍ.

عرفتُ آنذاك أنَّ استمرارنا معًا قد أصبحَ مستحيلاً. عرفتُ ذلك من لمعةِ عينيها، ونبرةِ صوتها، والكلماتِ التي تعبِّر عن نفسها بكلِّ وضوحٍ، كلمات تشعرك أنَّ كلَّ شيءٍ قد وصلَ إلى نهايته وغايته القصوى، ولا مجالَ للنقاشِ أو للتراجعِ.

أمعنتُ الفكرَ في كيفية وصولِ هذه الصور إليها. وقررت أن أزور أرشد الباكستاني الذي كان يحمّض ويظهّر صورنا الخاصّة لأعرف منه الحقيقة. من المؤكد أن الدكتور فالح قد استعان به. والغريبُ أنَّ هناكَ صورًا لا أذكرُ كيفَ تمَّ التقاطها لي!

و... أدركتُ بعد أوَّل وهلةٍ من التفكير أنّني كنتُ في حالة من السُكْرِ الشديدِ الذي كان فالح يغرقني فيه على نحو مدروسٍ وخفيٍّ، ولعلَّه أفقدني الوعي بطرقٍ أخرى لا أعرفها، تمامًا كما كان يفعلُ

مع بائعات الهوى اللواتي كنَّ يرفضنَ أنْ يلتقطَ لهنَّ صورًا خادشةً للحياء. لعنتُه في سرِّي، ولمْ أكنْ أتوقَّعُ أن تصلَ سفالته وخسَّتُه إلى هذا المستوى المتدنِّي. لا شكَّ لديَّ في أنَّه مَن أرسلَ الصورَ الفوتوغرافيَّةَ الفاضحةَ. ما من أحد سواه لديه صوري الخاصَّة. تلك الصور التي تجمعني مع سعاد وغيرها ممَّن عرفتُ من فتياتِ التقيتُ معهنَّ في شققِ لندن وغيرها في رحلاتنا القديمة، في أيَّامٍ الطيش والتهوّر، حيثُ ينتفي النظرُ في عواقب الأمور.

١٠

انتهت علاقتي مع حليمة سريعًا، وبصورة مفجعة انتابتها الصرخاتُ، والبكاءُ، والنظراتُ المتوعدةُ بالويلِ والثبور...

تحطَّمَ الحبُّ على صخور الكبرياء الأجوف، والغيرة المرضيَّة، فكان الانفصالُ هو الحلُّ الأخير.

قالتْ لي كلماتٍ أوجعتني، وهزّتْ أعماقي من الداخل: "أنَا لا أرغبُ فيكَ. كنْ رجلاً وطلّقني".

تمَّ الطلاقُ سريعًا لأنَّ زواجنا لمْ يستمر سريعًا في الأصل. لمْ تكنْ هناكَ عِشرةٌ تحميه، ولمْ يشفعْ له الحبُّ الطفولي القديم فانهار سريعًا. بدا لي أنَّها تنتظرُ سببًا حتَّى لو كان تافهًا وغيرَ مقنع للانفصال؛ حتَّى في لقاءاتنا الحميمةِ، كانت حليمة تبكي كثيرًا قبل البدء في ممارسة الحقِّ الزوجيِّ المتبادل وخلاله أيضًا. كانت تصرُّ أنْ تتمَّ المعاشرةُ الجنسيَّةُ في ظلام دامسٍ بعيدًا عن كلِّ مقدِّماتٍ، وبأقصى سرعة ممكنة. كنتُ أقولُ لها: لا يمكنُ أن يكونَ لقاؤنا الحميمُ هكذاً. أنَا لستُ حيوانًا آكلُ وأشربُ وأمارسُ الجنسَ مثل أيِّ بهيمةٍ!

ولكنَّها لمْ تُعِرْ كلامي ورجائِي أدنَى اهتمام.

لا أدري ما الذي حدث لها. حاولتُ أنْ أجرَّها في الحديث لكنها كانت تصمتُ وتطلبُ منّي ألاَّ أفاتحها في مثل هذا الأمر مرَّةً أُخرَى.
احترمتُ رغبتها، فسكتُّ. كانت الخسائرُ المعنوية قليلةً بالقياس في ما لو كانت هذه العلاقة تستندُ إلى سنوات طويلة. لكن من المؤكَّد أنّ علاقتنا كزوجين لمْ تستمرْ كما كان متوقَّعًا لها.
مثلُ هذه العلاقة التي تهزُّها العواصفُ والأنواءُ والكلماتُ القاسيةُ في بداياتها ولا تصمد، فالأفضلُ لها أن تنتهي سريعًا، قبلَ أنْ يكونَ ألمُ الانفصال قاسيًا وشديدًا، وله تبعاتٌ كثيرةٌ في ما بعد. ذلك أفضل كثيرًا من أنْ تستمرَ حياةٌ يداخلها الشَّكُّ ويعتريها البرودُ العاطفيُّ والزوجيُّ، فيكون طعمها مُرًّا لا يُطاق.
الدكتور فالح...
بعد الذي حدث، أخذتْ عدواتنا صورة جديدة طغى عليها طابعُ التَّحدِّي بجانب الكُرهِ الذي تطوَّر إلى الاحتقار.
لكنَّه لمْ يكتفِ بذلك...
بلْ سدَّد دَيْنَه معي بأنْ ساهمَ مساهمةً جادَّةً في سحبِ شهادة الدكتوراه منِّي...
لا يمكنني إنكارُ أنَّني قد أُصبتُ بنوع من الانهيار النفسيِّ بسبب انهيار زواجي وسحب درجة الدكتوراه منِّي بلا وجه حقٍّ.
نعم... لقد انتقمَ منّي ابنُ العمِّ انتقامًا مروِّعًا آلمني أشدَّ الألم. جعلني أفقدَ الثقةَ بنفسي والنَّاس والضمائر والأمانة، و... وكلّ هذه الكلمات التي كنتُ أراها معيارًا ومقياسًا يميِّزنا عن الوحوش التي تسرحُ وتمرحُ في كلِّ غابات الأرض.

بعد طلاقي المؤسف من "حليمة"، قلتُ لنفسي ربَّما إنَّ موضوعَ اختلافنا قد انتهى هنا. ربَّما أن طلاقي من زوجته السابقة قد ألجمَ حقده حجرًا فأسكته، ولكنَّني كنتُ مخطئًا؛ ابنُ العمِّ كان حقودًا مثلَ جمل، وناعمَ الملمسِ مثلَ حيَّة.

لَمْ أكنْ أعلمُ أنَّه كان أخطبوطًا كبيرًا مدَّ أذرعه الطويلة حتَّى نالت مدير الجامعة شخصيًّا، فأصبح بين يديه كدُمية يلهو بها كيف شاء!

حاولتُ أنْ أعرفَ بطريقة شخصيَّة، وبعيدًا عن أجواءِ الجامعة، سببَ سحب الرسالة منِّي، فاتَّصلتُ به مستفسرًا عن سببِ كلِّ هذا العداء. قال لي بكلِّ برودٍ: "هذه بتلك. ولا تنسَ أنَّني لا أزال محتفظًا بـ"النيجاتيف" الخاص بالصور حتَّى الآن، وأستطيع نسخَ مئات الصور منه".

ثمَّ أقفلَ السمَّاعةَ في وجهي!

كنتُ أريد أنْ أسأله أيّ "هذه" وأيّ "تلك" يقصدُ؟

في اليوم نفسه، ذهبت إلى محل تطهير الصور الذي يعمل فيه أرشد لكنني وجدت المحل قد تم تحويله إلى محل يبيع ألعاب للأطفال!

شعرتُ بالغيظِ والألمِ لمدة طويلة. وانتابني إحساسٌ كأنَّني دلفتُ إلى كهفٍ مظلمٍ لا نهايةَ له. كنتُ خلال تلك المدة المؤلمة أنوي الذهاب له وأسدِّد دَيني باللَّكماتِ، والصَّفعاتِ، والرَّكلاتِ، ولكنَّني تراجعتُ خشيةَ أنْ يفسِّرَ ذلك بتفسيرات شتَّى حتمًا سيجيِّرها فالح إلى جانبه، وسأخسر سمعتي، وربما مستقبلي المهني الذي كان ناصعَ البياض، لا تشوبه شائبةٌ.

الغريبُ أنَّني تلقيتُ اتِّصالاً من الدكتور فايز بعد شهر، يخبرني فيه

بكلِّ أسى أنَّه يشعرُ بالندم لقبوله ضغوط الدكتور فالح وموافقته في سحبه درجة الدكتوراه منّي. يقولُ لي إنَّه في أشدِّ أسفه، وحينما قلتُ له ببرودٍ: "وما يفيدني أسفكَ الآن يا دكتور؟"، لم يتفوه بحرف.

لاحقته... سألته: "هل تعتقدُ أنَّني جديرٌ بتلك الشهادة؟".

قال دون تردُّد: "نعم".

فعاجلتُه بالقولِ: "إذنْ لماذا وقفتَ ضدِّي ولم تنصفني، وخصوصًا أنَّك المشرفُ على الرسالةِ من أوَّلها حتَّى لحظة مناقشتها؟"

– "...!".

عاد إلى الصمت مرة أخرى.

منحته قليلاً من الوقت لعلّه يلتقط أنفاسه ويجيبني عن أسئلتي التي أقضَّت مضجعي لأيام طويلة.

ولما استطال صمته، سألته بغلظة: "لماذَا أنتَ صامتٌ يا دكتور؟".

– "الأمرُ أكبر منِّي، ومنكَ، ومن الجامعةِ بكاملها!"

– "وما هُو هذا الأمرُ الكبيرُ؟".

– "...!".

– "أجبْني يا دكتور من فضلكَ؟".

– "...!".

خيَّمَ علينا الصمتُ قبل أن ينهيه الدكتور فايز بإغلاق سمَّاعة الهاتف بهدوءٍ...

١١

بعد اتّصال الدكتور فايز، شعرتُ بانتصارٍ صغيرٍ جدًّا جاء بين ضجيج الأحقاد والاضطراب النفسيّ الذي يأتي عادةً في أعقاب خيبات الأمل وانسداد الأفق. صحيحٌ أنّه مجرّد اعتراف عفويّ ربما أملاه عليه ضميره الذي بقيّ فيه ذرّة من حياة، اعتراف جبان وخجول حدث عبر أسلاك الهاتف، لكنه كان مهمًّا لديَّ، وربَّما ساعدني ذلك في فكّ دوائر الطلاسم التي تحيطُ بابنِ العمِّ الدكتور فالح الذي لمْ يكنْ يومًا ما فالحًا في حياته، وخصوصًا معي بالذات!

في لحظاتِ التيه وانقلابِ المفاهيم، يتمسَّكُ الإنسانُ بقشَّة الخلاص حتَّى لو كانت تافهةً، ولا معنى لها، لكنَّني رغمَ ذلك لمْ أكنْ تائهًا - على الأقلّ حتَّى اللحظة الراهنة - فالطريقُ مرسومٌ أمامي، وإنْ كانت تحفُّه الأشواكُ والمصاعبُ والآلامُ من جانبيه. ولا بدَّ أنْ أسيرَ فيه كما سارَ الحلّاج يومًا في طريقه المحدَّد، رغم صرخته المدوِّية وقد انتابته حالةُ وجدٍ لا حدَّ لها في أحد أسواق بغداد، منذ أكثر من ألفٍ ومئة عام ونيف:

أيُّهَا النَّاسُ: اعْلَمُوا أنَّ اللهَ قَدْ أبَاحَ لَكُمْ دَمِي فَاقْتلُونِي؛

اقْتلُونِي تُؤْجَرُوا وأسترِحْ، اقتلُونِي تُكْتَبُوا عِندَ اللهِ مُجَاهِدِينَ، وأُكتَبُ عِندَ اللهِ شهيدًا...

الحلّاج مرّةً أُخْرَى! ماذا يريدُ هذا الرجلُ منِّي؟

كلّما غابَ في طيّات النسيان وكمُن في تجاويفِ الذاكرة المعتمة، يبرزُ لي مرّةً أُخْرَى في حالاتِ الفرح أو الترح. أجده ماثلاً أمامي في كلِّ طريقٍ ومسلكٍ. أقوالُه وكلماتُه تضجُّ في أذني، وتتراقصُ كألسنة اللَّهبِ في عقلي. لا بدَّ من الاعتراف بأنَّ بذرةً تمَّ زرعها داخلي، ونَمَتْ خلال السنوات السابقة، سنوات الإعداد لرسالة الدكتوراه. بذرةٌ ترعرعتْ واستطالتْ حتّى أصبحتْ شبحًا يقضُّ مضجعي، هذه البذرةُ اسمها: الحلّاج...

حالةُ توقٍ وشغفٍ تشدُّني شدًّا إلى تتبّع آثار هذا الرجل مرّةً أُخْرَى والتنقيب عن سيرته... عن أفعاله... وأقواله... ورحلاته، وإخضاع كلِّ ما كُتب عنه للفحص والتدقيق. كيف يمكنُ لي أنْ أنسى ما قرأتُه عنه أثناء مقتله وصلبه، حينما التفت نحوَ الجموع المحتشدة لرؤية تقطيع أطرافه، وقطع رأسه وهو يقول:

هَؤلاء عبادُكَ، قَدْ اجتمَعُوا لقَتلي تَعصُّبًا لدينكَ، وتقرُّبًا إليكَ، فَاغفرْ لَهُم، فإنَّكَ لوْ كَشفتَ لَهُم مَا كَشَفْتَ لِي، مَا فَعلُوا مَا فَعلُوا، ولوْ سَتَرتَ عنّي مَا سَتَرتَ عنْهُم، مَا لَقِيتُ مَا لَقِيتُ...

أيّ غفرانٍ هذا؟ وأيّ كشفٍ هذا؟ أتطلبُ من اللهِ – جلَّ وعلا – أنْ يغفرَ لجلاّديكَ وقاتليكَ في لحظاتِ انسلالِ الروح وتقطيع بعض

أجزاء جسدكَ ببطء قاتل يحيِّرُ القلوبَ، ويذهلُ العقولَ!

أحسستُ بنوعٍ من التقصير لأنني لمْ أُولِ هذه الشخصيَّةَ المثيرةَ للجدلِ الاهتمامَ الذي يليقُ بها. درستُ قشورَ الأشياء وتركتُ لبَّها. اهتممتُ بالتاريخِ وأحداثه وتركتُ الإنسانَ بكلِّ تجرُّدهِ ووضوحه. تركتُ الجوهرَ وانصرفتُ لتفنيدِ كتب التاريخ التي كتبها المؤرِّخون الذين كان أكثرهم مجرَّد مرتزقة، يُملون ما يُفرض عليهم ممَّن هم فوقهم ليلمِّعُوا صورتهم، ويضخِّمُوا انتصاراتهم الوهميَّة للأجيال اللاحقة. ذهبتُ إلى المراجع التي اعتمدت لها في دراستي للدكتوراه. وجدتُ الكثير منها، ووجدتُ "ملازمَ" كثيرةً منسوخةً. نفضتُ عنها الغبار، ورصصتُها فوق مكتبي...

سأبدأ من جديد...

كنتُ أقولُ لنفسي: إنَّ مئات من القراءات حول هذا الرجل لن تكفيني؛ في كلِّ مرَّةٍ أخرجُ منها بجديد مذهل كان غائبًا عنِّي، ولا أعرفُ كيف توارى وغاب، ولمْ أنتبه في ذلك الحين إليه. لنْ أدعَ الحلّاج يضيعُ منِّي في ركام الأحداث التي كانت تُكتب بمداد باهت في صحائف صفراء. سأحاولُ أنْ أزيلَ عنه غبارَ الأزمنةِ، وأهمِّشَ قليلاً تضخيم المؤرِّخين للسلاطين، والقوَّاد، والوزراء، والحجَّاب، وما إلى ذلك.

سأحاولُ قراءتها صفحةً صفحةً وبعنايةٍ كاملة. سأحاولُ التعرُّف على الحلّاج. هذا الرجل الذي تسبَّب في حرماني شهادتي، والذي أوغر صدرَ "صديقي" وابنِ عمِّي الدكتور فالح راشد، والدكتور فايز، و...، و... بقيَّةِ الزملاء، وتسبَّب أيضًا في طلاقي من زوجتي.

على مدى شهور طويلة كانت متخمة بالقلق والتوتر والاستنفار الحثيث، قرأتُ كلَّ ما وقَع تحت يديَّ ممّا كُتِبَ عن الحلّاج: سيرته... أقواله... أفعاله... رحلاته... كلماته... تلاميذه... خصومه... كلّ ما كان متعلّقًا به.

وخرجتُ من قراءاتي مذهولاً مصعوقًا... ثمَّ نصَّبتُ نفسي قاضيًا! جلبتُ المتّهم الحلّاج، وأتيتُ بالشهود، والخصوم. سأحاولُ إعادة محاكمته بمقاييس عصرنا هذا، لعلّني أجدُ لحيرتيَ مرفأً أرسو فيه بسفينتي الضّالة.

١٢

فتحتُ كتابَ البداية والنهاية لابن كثير، الجزء الحادي عشر، توقَّفتُ عند صفحات الأحداث سنة ٣١١ من الهجرة، وبدأتُ أقرأ: يقول ابن كثير:

... ثمَّ دخلتْ سنةَ إحدَى عشرةَ وثلاثمئةٍ، وفيها: عزلَ المقتدرُ عن الوزارةِ حامدَ بن العباس، وعليَّ بن عيسى، وردَّهَا إلى أبي الحسن بن الفرات مرَّةً ثالثةً، وسلَّم إليهِ حامدًا، وعليَّ بن عيسى، فأمَّا حامد، فإن الحسن ابن الوزير ضمَّنه من المقتدر بخمسمئة ألفِ ألفِ دينار، فتسلَّمه فعاقبه بأنواع العقوبات، وأخذ منه أموالاً جزيلةً لا تُحصى ولا تُعدُّ كثرةً، ثمَّ أرسله مع موكَّلين عليه إلى واسط، ليحتاطوا على أمواله وحواصله هناك، وأمرهم أن يسقوه سُمًّا في الطريق، فسقوه ذلك في بيضٍ مشويٍّ كان قد طلبه منهم، فمات في رمضان من هذه السنة...

انتهى حديثُ المؤرِّخ الحَبر ابن كثير.

قررتُ استدعاء شهود عيان شهدوا قتلَ الحلّاج من بطون أمّهات كتب التاريخ. بدأت بأهمّ شاهد على ذلك العصر في تلك الحقبة السوداء...

١٣

كانَ الشاهدُ الأوّلُ هو وزير الخليفةِ المقتدرِ، حامد بن العباس.

الشّاهدُ الأوّلُ: الوزيرُ حامد بن العباس

... القافلةُ تسيرُ بمحاذاة النهر؛ نهر دجلة. كانت تضمُّ رجالاً قليلي العدد: الوزير المخلوع حامد بن العباس، ونصر القشوري، الحاجب السابق للخليفة المقتدر، وثلاثة غلمان، وجاريتان، وخمسة عشر جنديًّا مدجَّجين بالسلاح.

الطريقُ إلى واسط ليس طويلاً. كانت واسط تبعد عن بغداد ثلاثين فرسخًا. ورغم قربها النسبيِّ فإن السفرَ عبر الصحراء بمثل كلِّ هذه المرارات والآلام التي تكويِ الصدور مرهقٌ ومتعبٌ. بدا الوزيرُ المخلوع زائغَ البصر، متغضنَ الوجه، محمومًا، متدثِّرًا بقطعة من وبر الجمل رغم القيظ وصهد الشمس. جسده الواهن يقفُ على الحدِّ الفاصل بين الحياة والموت، ليس هذا فحسب، بل كان يهذي وتتفلّت الكلماتُ القليلةُ الهادرةُ من بين فكّيه: "تلك

النظرة... تلك النظرة...".

كان نصر القشوريِ تابعه الأثير، يميلُ نحوه قائلاً بهمسٍ لكيلا يسمع الجنود كلمةً ممّا سيتفوّه به: "أيّ نظرة يا سيّدي؟".

لا ينبسُ الوزيرُ المخلوعُ ببنتِ شفةٍ. يزدادُ اللهاث ويتفصّدُ جبينه بالعرق. الشمسُ ترسل حممها بلا رحمة. نورها ساطعٌ كأنّه عقوبة إضافيّة يرسلها الله لتزيده تعبًا على تعبٍ. الريحُ والزوابعُ التي تهبُّ محمّلةً بروائح الرمال، والشجيرات اليابسة، والبهائم النافقة في تيه الصحراء، يكمنُ في صفيرها الموتُ والفناءُ. لم يبقَ له شيءٌ. كانت خسائرُه كبيرةً، وضخمةً ومدوّيةً...

لحظة من الصمت تخيّم على القافلة المنهكة والمتوجهة بالوزير المخلوع إلى واسط حيث سيقضي أيّامه هناك منفيًّا مجرّدًا من المناصب والأموال بأمر من الخليفة المقتدر. لقدْ جرّدوه من أمواله، وغلمانه، ودوره، وضياعه. ترك خلفه كلَّ الجواري، والعبيد، والقهرمانات، والخصيان، وخمسمئة ألف ألف دينار، سلّمها الوزيرُ المخلوع للخليفة لكي تكونَ ثمنًا لشراء حياته. أموالٌ ضخمةٌ كانت كفيلةً بإبعاده عن الموت، أو على الأقل السجن مدى الحياة. دفعها عن طيبِ خاطرٍ أو دونه للوزير الجديد أبي الحسن ابن الفرات، وابنه، الذين كانوا يمثّلون دور الوساطة بينه وبين الخليفة. لقد استنفدَ الوزيرُ الجديدُ ثأرَه القديم. انتقمَ من منافسه على الوزارة. حتّى ساعده وعضده الأيمن عليّ بن عيسى لم يفده. تركه ومصيره الكالح. سجنوه شهرين وعذّبوه بالضرب بالسياط، ولكنَّ المالَ الكثيرَ أسالَ اللّعابَ، فقرّرَ أن يتخلّى عنه لهم. كانت له بعضُ البيوت وبستانان في ظاهر

واسط، فقرّر أن يكونَ نفيه إلى هناك بعد أنْ دفعَ أموالاً إضافيَّةً ليحققوا له رغبته. يعلم الوزيرُ المخلوعُ أنَّهم سيأخذون حتَّى هذين البستانين وبيوته في واسط لاحقًا، ولكنْ لا مفرَّ من الابتعاد عن بغداد في هذا الوقت العصيب. بعد قتل وصلب الحلّاج، اختلطت عليه الأمور. ما إن رأى الرأس، رأسَ الحلّاج المقطوع في سلَّةٍ من الخوص، ورأى تلك النظرة، الراضية، الحالمة، الغاضبة، المتسائلة حتَّى ارتجَّ عليه عقلُه وحارَ لُبُّه. بعد شهور قلائل من صلبه انهارَ كلُّ شيءٍ، فللندمِ ثمنٌ يورث لحظات من الجزع، والخوف، والكوابيس، وغياب اليقين. الحزن، والكمد، والغضب تتناوب عليه، فتخرج الكلمات من فيهِ تحملُ رنَّةَ الخوفِ، والندمِ، واللوعةِ: "تلك النظرة... تلك النظرة...".

كان نصر القشوري يعرفُ مَن يقصد ولكنَّه كان يتغابى. يهزُّ رأسه، ثمَّ يشيحُ بوجهه إلى الجهة الأخرى، ولا ينبسُ ببنت شفة. يتذكَّرُ تمامًا وساطاته للحلاّجِ لدى الخليفة المقتدر بمشاركة أمِّ الخليفة نفسها. لمْ تكنْ من الحرائر، بل كانت من جواري الخليفة السابق المتوكِّل والد الخليفة الحالي. كان اسمها شغب، وكانت تنحدر من نفس أرومة نصر القشوري الذي كانت أصوله تعود إلى بلاد الإغريق. يتذكَّرُ أيضًا إصرارَ الوزير المخلوع حامد بن العباس على إفسادِ كلِّ هذه الوساطات بدأبٍ وحرصٍ. وها هو اليوم يسير برفقته إلى منفاه. يشعرُ بالأسى يعتصر قلبه. لم يحتمِّل كثيرًا تلك الكلمات الحادَّة كضربة سيف باترةٍ. أراد أنْ يضعَ حدًّا لهذا العذاب، فقرر أنْ يكونَ صريحًا هذه المرَّة.

- "هل تقصدُ الحلّاج يا سيّدي؟".

توقّف رأس الوزير المخلوع من الاهتزاز. لمعتْ عيناه كعيني قط سُلِّط عليها قبسٌ من نورٍ باهرٍ. شخرَ، ونخرَ، وبصقَ على الأرض. مدَّ بصره إلى رمال الصحراء الممتدة أمامه كبساطٍ من ذهبٍ.

- "الحلّاج... الحلّالالالاجُ...".

يتركه نصر القشوري. لا يتلفتُ نحوه. يدركُ تمامًا أنّه قد وضع يده على مكمن الجرح الذي كان يقضُّ مضجعه. لا يريدُ أن يرى لحيتَه المدببةَ، وعينيه المستديرتين، ولا جسدَه الذي أصابه الهزالُ بسبب السجن والضرب بالسياط في سجون المقتدر في بغداد. يريدُ نصر القشوري أنْ ينسى، ولكنْ كلُّ شيءٍ لدى سيِّده كان عصيًّا على النسيانِ.

نصر القشوري كان له هدفٌ يسعى إلى تحقيقه في القافلة، وله مهمَّةٌ أخرى في بغداد. المهمَّةُ التي كانت في القافلة هي قتلُ أستاذه القديم، الوزير المخلوع قتلاً بطيئًا، بسمٍّ بطيءٍ المفعول، والمهمَّةُ الأُخرَى التي كانت بانتظاره في بغداد هي استمرارُ عمله حاجباً للخليفة بإشراف الوزير الجديد والقوي أبي الحسن بن الفرات...

يتذكّرُ كلامَ الوزير الجديد، وهو يُشرف على خروجه من بغداد: "اسمع يا فتى. أنا أعرفكَ منذُ زمن بعيد، منذُ وزارتي الأولى، ثمَّ الثانية، وحتَّى هذه الثالثة، ولا أريدُ الوزارة إلاَّ لصديقٍ أنفعه، أو عدوٍّ أقمعه. اقتل حامد بن العباس وعد إلى هنا. مكانُكَ سيكونُ شاغرًا حاجباً للخليفة كما كنت".

يناوله قنينةً صغيرةً يدسُّها في راحته، ثمَّ يقول مبتسمًا بخبثٍ: "ما

داخل هذه القنينة سيساعدكَ على إنجاز مهمّتكَ بنجاح".

يتناولها نصر، ثمَّ يدسُّها في حزامه، ويهزُّ رأسه بالإيجاب!

على الوقع الرتيب لسير القافلة، والصمت المسيطر عليها، يتذكَّرُ نصر القشوري ما حدث منذ شهورٍ من محاكماتٍ مضنية، ومطاردات للمتَّهمين وللشهود، ولكنَّه لم ينسَ ذلك المشهد المروِّع: مشهدَ صلب الحلّاج، وتقطيع أطرافه، ثمَّ حرقه وتحويل جسده إلى رمادٍ.

١٤

يتذكَّرُ نصر القشوري تلك الأيَّام الثلاثة، بكلِّ أحداثها، وتفاصيلها بدقَّةٍ:

كانت السَّاحةُ غاصَّةُ بالنَّاس. وعلَى باب خراسان المطلِّ على نهر دجلة من الجهة الغربيَّة، كان القاضي أبو عمر محمد بن يوسف المالكي يقفُ مع ثلَّةٍ من القضاةِ يراقبُون المشهدَ بملامحَ جامدةٍ. الوزيرُ حامد بن العباس كان يتحرَّكُ هنا وهناك كالنحلةِ. يريدُ أنْ يتمَّ الأمر بأقصى سرعةٍ ممكنةٍ حتَّى ينتهي قلقُ وأرقُ وسهرُ شهورٍ طويلةٍ كانَ يحاكَم فيها الحلّاج في بلاطِ القضاءِ...

الحلّاجُ المصلوبُ، والمقطوعُ الرأس، والقدمين، والرجلين، يبثُّ في نفس أعتى الرّجال شجاعةُ الرعب والخوف. الدِّماء التي سالت لم تتشرَّبها الأرضُ، بل كوَّنت منها طبقةً حمراءَ من دمٍ متجمِّدٍ لأنَّ الأرض لا تتشرَّبُ الدم بأمرٍ إلهيٍّ منذُ بدء الخليقة. حينما قطعوا

رأس الحلّاج، حَمل الرأس جنديٌّ وجاء به إلى الوزير حامد بن العباس في سلّة من خوص النخيل، وأسدل عليها بقطعة قماش. حين كشف الجنديُّ عن الرأس كانت عينا الحلّاج مفتوحتين، ويخيَّلُ للرائي أنَّها تنظرُ نحوَه بنظرةٍ لا يقدر على تفسيرِها أيُّ أحدٍ. حين وقعَ بصرُ الوزير حامد بن العباس على الرأس ورأى العينين تنظران إليه، ارتبكَ وسقطتْ عباءته من فوق كتفه، ودون شعور منه مشى بقدميه خطوتين وكاد يسقط على الأرض، لولا أن نصر القشوري أمسكَ به في آخر لحظة.

حينذاك، وحينها فقط، اختلَّ عقلُ الوزير. لم ينمْ لأيَّامٍ طوالٍ. انتابه القلقُ والأرقُ وشرودُ الذهن، واحمرَّت عيناه من قِلَّة النوم. كان يستيقظُ من غفواته القصيرة في منتصف الليل صارخًا: "تلك النظرة... تلك النظرة!".

تنهضُ زوجته مفجوعةً، ويدخلُ الغلمان المخصيُّون، والجواري، وهم يدعكُون أعينهم المثقلة بالنوم، فيطردهم الوزير مهتاجًا ويصيحُ بهم: "أحضرُوا سيفي... أحضرُوا سيفي...".

يسارع الغلمان لإحضار سيفه. يمدُّون له بالسيف، فيسلُّه من غمده، ثمَّ يبدأ في مبارزة عدوٍّ وهميٍّ. ينفضُّ من حوله غلمانه، وجواريه، وزوجته حتَّى لا يصيبهم الأذى من السيف المُصلت في يدِ رجلٍ مُهتاجٍ. يطعن الوزير في الهواء أطيافًا لا يراها سواه، وهو يصيحُ: "اخفضْ بصرك يا حلاَّجُ عنِّي... اخفض بصركَ. لا أريدُ أنْ أرى عينيكَ".

يظلُّ الوزيرُ على هذا المنوال، يطعنُ الهواءَ، ويقاتل كائناتٍ لا

مرئيَّة، يراها وحده حتَّى يتهاوَى على الأرض من الإنهاك زائغَ البصر. لعابُه يسيلُ على صدره، وطبقة من الزبد تجمَّعت في زوايا فمه. في تلك اللحظة، ينامُ قليلاً قبلَ أن يستيقظَ صارخًا، ويعاودَ الكرَّةَ مرَّةً أُخْرَى.

كان الوزيرُ السابق أبو الحسن بن الفرات يراقبُ سيرَ الأحداث عن كثبٍ. طموحاته لم تتوقَّف يومًا ما عن العودة إلى الوزارة، فقدْ خلع من الوزارة مرَّتين: المرَّةَ الأخيرة كانت بسبب الوزير الحالي حامد بن العباس. وحين خرجَ من السجن، خرج مغتاظًا ولم ينسَ ثأره. أخرج كنوزه المخبَّأة، فاشترى الوزارةَ بأموالٍ طائلةٍ أسالت لعاب الخليفة الجشع صغير السنِّ. همس في أذن الخليفة المقتدر أنَّ الوزير حامد بن العباس رجلٌ فاحشُ الثراء يمتلكُ الكثير من الأموال، وهو الآن يتظاهر بالجنون ليهربَ بأمواله إلى خراسان، وربَّما كان وجوده هناك خطرًا على الخليفةِ.

استوعبَ المقتدرُ كلامَ وزيره، وأصدر قرارًا بإبعاد الوزير حامد بن العباس عن الوزارة. ليس هذا فحسب، بل نفاه إلى واسط.

وفي جنحِ الظلامِ لثلاثِ ليالٍ بقين من شهر شعبان، خرجت قافلة الوزير المخلوع من بغدادَ يلفُّها الصمتُ والحذرُ. خرجت بهدوءٍ وبلا ضجيجٍ. حينما لاحَ نور الصباح، كانت قدْ خرجت من البوابة الجنوبيَّة وخلَّفت وراءها السور الكئيب اللون، الذي يحيط ببغداد بشكلٍ دائريٍّ ليحميها من غوائل الغزاةِ، والزمنِ...

ولأنَّ الوزيرَ المخلوع كانت تنتابه تلك النوبات من الهذيان التي لازمته في بغداد، فقدْ استغرق الوصول إلى واسط ثلاثة أيَّام بلياليها

بسبب لحظات التوقُّف الكثيرة لكي تتاحَ الفرصة لتلك النوبات أنْ تنتهي، وهي قد ازدادت حِدَّتها بالتَّزامن مع خروجهم من بغداد.

دخلُوا إلى واسط مع بداية شهر رمضان. كانَ السُّمُّ يُقدَّم إلى الوزير المخلوع بمقدارٍ معلوم عن طريق نصر القشوري في وجبة من البيضِ المشوي الذي كان يُحبُّ أكله في كلِّ وقت وحين. يضعُ نصر نقاطًا من السُّمِّ الزُّعافِ على البيض قبل أنْ يقدِّمها إلى سيِّده المريض. كان الوزيرُ يلتهم من البيض كميَّاتٍ كبيرةً لمْ تنقصْ حتَّى في حالته المرضيَّة الآنيَّة.

مع انتصاف الشهرِ الكريم ماتَ الوزيرُ حامد بن العباس. في أيَّامه الثلاثة الأخيرة جافاهُ النومُ، وزادَ صراخه، وتساقطَ شعرُ رأسه، وأصابه إسهالٌ شديدٌ فمات...

بعدَ موت الوزير المخلوع، عاد نصر القشوري إلى بغداد، وهناك تسلَّم عملَه مرَّةً أُخرَى حاجبًا للخليفة المقتدر.

١٥

الشّاهدُ الثّانِي: القَاضِي أبو عمر محمد بن يوسف المالكيّ

كان الحلّاجُ واقفًا يرسفُ في أغلالهِ مقيَّدَ القدمين والرِّجلين. في صدر المجلس، يجلسُ القاضي أبو عمر محمد بن يوسف، يستمعُ اهمس الوزير حامد بن العباس، ويُمسِّد بأصابعه الغليظة المترعة بالخواتم الفضيَّة المزينَّة وبفصوص الزبرجد لحيته الكثَّة بين فينة وفينة، ويرسلُ نظراتٍ خاطفةً نحو الحلّاجِ. كان يتمتمُ: "حقًّا... أقالَ ذلكَ الكلام؟".

يلتفتُ القاضي نحوَ الحلّاجِ ويسألُه بصوتٍ حادٍّ: "هلْ صحيحٌ أنّكَ قلتَ: مَن أرادَ الحجَّ ولمْ يتيسرْ له، فليبنِ في دارهِ بيتًا لا يناله شيءٌ من النجاسة، ولا يمكن أحدًا من دخوله، فإذا كان في أيّام الحجِّ، فليصمْ ثلاثةَ أيّام، وليطفْ به كمَا يُطاف بالكعبةِ، ثمَّ يفعل في داره ما يفعله الحجيجُ بمكّة، ثمَّ يستدعي بثلاثين يتيمًا، فيطعمهم من طعامه، ويتولّى خدمتهم بنفسه، ثمَّ يكسو كلَّ واحدٍ منهم قميصًا، ويُعطي كلَّ

واحدٍ منهم سبعة دراهم، فإذا فعلَ ذلك، قام له ذلك مقامَ الحجِّ؟!"

- "...!"

يعرف الحلّاجُ أنَّ هذه الكلمات مدسوسةٌ عليه من خصومه، فيلتزم الصمتَ.

لم يجبْ الحلّاجُ بكلمة، فاستأنف القاضي استجوابه.

- "ألمْ تقلْ: مَن صلَّى في ليلةٍ ركعتين في أوَّل اللَّيلِ إلى آخرِه، أجزأه ذلكَ عن الصلاة؟".

سكتَ القاضي قليلاً ثمَّ قال: "... وأنَّ مَن صامَ ثلاثة أيَّام لا يفطرُ إلاَّ في اليومِ الرابع على ورقاتِ هندباء، أجزأه ذلك عن صيامِ رمضانَ... أخبرني مِن أينَ لكَ هذا؟".

يصمتُ الحلّاجُ، ولا يجيبُ. يعرفُ أنَّ كلَّ ما قاله القاضي كانَ كلامًا فيه زورٌ وبهتانٌ لم يقلْه ولم يفعلْه. يعرفُ أنه في الأوان الأخير ازدادتْ وتيرة تلفيق الأقوال والأفعال والأكاذيب المنسوبة إليه. لا يجيب. فضَّلَ الصمتَ، لكنَّ القاضي لم يتركه. صرخَ في وجهه:

- "أجبْ...".

كان يريدُ جوابًا أيَّ جواب. يعرفُ الحلّاجُ أنَّ القاضي الموتور لنْ يدقِّقَ في ما قِيل عنه، وما نُسب إليه من أفعالٍ وأقوالٍ. مَن يترصَّد الزَّلات عليك، سيصدِّق كلَّ ما يُقال عنكَ حتَّى لو عرفَ أنَّها مجرَّد أكاذيبَ وشاةٍ وكيدَ حُسّاد!

بعدَ تردُّدٍ قصيرٍ أجابَ الحلّاجُ بصوتٍ يكادُ لا يُسمع: "من كتابِ الإخلاص للحسن البصريّ...".

قال الحلّاجُ ذلكَ وهو يعرفُ أنَّه لا يوجد كتابٌ وضعه الحسنُ

البصريُّ يُسمَّى الإخلاص. كان يريدُ أن يتخلَّصَ من إلحاح القاضي فقطْ!

انتفضَ القاضي كأنَّ عقربًا لسعته، ثمَّ قال بأعلَى صوته: "كذبتَ يا حلالَ الدم. قد قرأنا كتابَ **الإخلاص** للحسنِ في مكَّة، وليس فيه شيءٌ ممَّا ذكرت!".

ابتسمَ الحلّاجُ ولمْ يقلْ شيئًا.

حالما لامست كلمة "حلال الدم" صيوانيّ أذنيّ الوزير حامد بن العباس، التي تفوَّه بها القاضي، صاحَ بانفعالٍ قائلاً: "لقدْ قلتَ يا حلالَ الدم، فاكتبْ ذلكَ في هذهِ الورقة".

وألحَّ الوزيرُ حامد بن العباس على القاضي لكتابة تلك الكلمات، وقدَّم إلى القاضي الدواةَ فكتبَ القاضِي ذلكَ في الورقة.

ابتسمَ الوزيرُ بزهوٍ ابتسامةَ انتصارٍ أخرجه منها صوتُ الحلّاجِ الواضح الكلمات وهو يقولُ بهدوءٍ وسكينة: "ظهري حِمَى، ودمي حرامٌ، ولا يحلُّ لكم أنْ تنالُوا عليَّ ما يبيحه، واعتقادي الإسلام، ومذهبي السُّنَّة، فالله... الله... في دَمِي...".

لم يجبه أحدٌ، واكتفى الوزير بهزِّ رأسه، ثمَّ نادى بصوتٍ جهوريٍّ على الجندِ قائلاً: "أحضروا محمد بن علي القنائي الكاتبَ".

١٦

الشّاهدُ الثّالثُ: محمد بن علي القنائي الكاتب

يدخلُ الرجلُ وجِلاً وهو محاطٌ بالجنود من كلِّ جانبٍ. يرسلُ بصره إلى الحلّاجِ الذي بدا كأنّه مسافرٌ بعقله ووجدانه خارج ديوان القضاء، فلا يشعرُ بمَن هُم حوله. يخرجه صوتٌ غليظٌ من لجّة أفكاره: "أأنتَ محمد بن علي القنائي الكاتب؟"، يسألُ القاضي.

- "نعمْ... أنَا هو يا سيّدي...".
- "هلْ صحيحٌ أنّكَ كنتَ تعبدُ الحلّاجَ كإلهٍ؟".
- "لا... يا سيّدي..."

قالَ القاضي بنبرةٍ عاليةٍ: "حسنًا. بماذا تفسّر ما وجده الجنودُ في بيتك أثناء البحثِ فيه من كتابات لمخطوطات كُتبت بيدِ الحلّاجِ، والمكتوبة بماءِ الذهبِ على ورق الحرير، ومجلّدة بأفخرِ الجلود؟!".

يزفرُ القنائيُّ. يشيحُ بوجهه إلى الجهةِ الأخرى ثمّ يقولُ بهدوء: "يا سيّدي: أنَا أعرفُ الحلّاجَ، ولكنّني لا أعبده. هناك فرقٌ بين أنْ

تعرفَ رجلاً، وبينَ أن تعبدَه...".

يتجاهلُ القاضي على مضضٍ السخريةَ الكامنةَ في كلامِ الشاهدِ، ويواصل استجوابه.

- "وما تقولُ في ما وجدَه الجنودُ في بيتكَ من أشياء مثيرةٍ للريبةِ... أشياء من قبيلِ إناءٍ فيه بولُ الحلّاجِ، وقِطع من ملابسهِ، وبقيَّة من زاده؟!".

- "الرجلَ حلَّ ضيفًا في بيتي، ووهبته حجرةً ليمكثَ فيها، ولا علمَ لديَّ بما وجده الجنودُ فيها...".

- "حجتكَ واهيةٌ لا نقبلها. ألاَّ يوجد لديك ما ترغب في قوله؟".

- "...!".

لا يجيبُ الرجلَ فيهزُّ القاضي رأسه، ويطلب من الجنودِ إعادته إلى السجن.

يلتفتُ القاضي نحوَ الحلّاجِ فيقولُ له: "هلْ قلتَ لتابعيك من العامَّة والسوقةِ إنَّك إلهٌ، وتدعو النَّاس إلى طاعتكَ، وأنَّكَ تُحيي الموتى؟!".

بعدَ برهة قالَ الحلّاجُ بصوته العميقِ الواضحِ النبراتِ: "أعوذُ باللهِ أنْ أدَّعي الربوبيَّةَ أو النبوَّةَ، إنَّما أنا رجلٌ أعبدُ اللهَ وأُكثِرُ من الصومِ والصلاةِ والنوافلِ وفعلِ الخيرِ، ولا أعرفُ غيرَ ذلك...".

ثمَّ بدأ الحلّاجُ ترديدَ الشهادتين، وكان يقولُ بصوتٍ هامسٍ: "سبحانكَ لا إلهَ إلاَّ أنتَ، عملتُ سوءًا، وظلمتُ نفسي، فاغفرْ لي، فإنَّه لاَ يغفرُ الذنوبَ إلاَّ أنتَ...".

١٧

الشَّاهدُ الرَّابعُ: هارون الأوراجيّ

يهمهمُ القاضي بكلامٍ غيرِ مفهومٍ، بدا منه أنَّه لمْ يكنْ راضيًا عن الشهود وأقوالهم. كانَ يريدُ شهودًا من نوعٍ آخر. ينادي بأعلى صوته: "أحضروا البقيَّة من الشهود".

يدخلُ رجلان أحدهما قصيرُ القامة، والآخر طويلها. يؤشِّرُ القاضي بسبابته على الحلّاجِ ويقولُ لهما بصوتٍ كالرعدِ: "هلْ تعرفانِ هذَا الرجلَ؟".

يجيبان بصوتٍ واحدٍ مرتعشٍ: "نعم...".

يقولُ القاضي لأحدِهمَا: "مَن أنتَ؟".

فيجيبُ الرجلُ القصيرُ: "هارون بن عبد العزيز الأوراجي...".

- "ماذا تقولُ في هذا الرجلِ؟".
- "هذَا رجلٌ كاذبٌ، أفَّاكٌ، أشرٌ..."

يقولُ القاضي: "ومَا دليلُكَ على ما تقولُ؟".

- "سمعتُه بأذنيَّ يطلبُ من إحدَى الجواري أنْ تسجدَ لهُ...".
- "ثمَّ ماذا؟ هل سجدتْ لهُ؟".
- "لا...".
- "فماذَا فعلتْ؟".
- "قالتْ لهُ الجاريةُ: أوَيَسجدُ بشرٌ لبشرٍ؟".

أشرقَ وجهُ القاضي بابتسامة شامتة، ثمَّ قال: "فماذَا أجابَ؟".

- "قالَ لها: نعمْ، إلهٌ في السَّماءِ، وإلهٌ في الأرضِ".
- "أسمعتَ ذلكَ بأذنيكَ؟".
- "نعمْ، يا سيِّدي...".

بدا الارتياحُ واضحًا على وجهِ القاضي والوزير حامد بن العباس.

١٨

الشَّاهدُ الخامسُ: ابن الدَّبّاس البصريّ

يلتفتُ القاضي إلى الرجلِ الآخرَ: "ما اسمُكَ؟".

- "ابن الدبّاس البصريّ...".
- "هكذَا اسمُكَ؟"
- "أجلْ".
- "وما هُو عملُكَ؟".
- "أبيعُ دبسَ التمرِ".
- "هلْ أنتَ مِن الموالِي؟".
- "نعمْ...".
- "هلْ تعرفُ هذَا الرجلَ؟"
- "نعمْ...".
- "ماذَا سمعتَ ورأيتَ منهُ؟".
- "إنَّني - يا سيِّدي - كنت أتعاطَى السحرَ قبل أن أتوب إلى

الله، لقدْ تعلَّمتُه في بلادِ فارس، وأعرفُ حقَّ المعرفة أعمالَ السحرة، وما يفعلُون من أمورِ السِحر، ووجدتُ الرجلَ هذَا ساحرًا كبيرًا...".

- "ماذا رأيتَ منهُ؟".

- "رأيتُ منهُ ما يرَى الساحرُ من كذبٍ وتدليسٍ وتفريقٍ بينَ النَّاس وإهانة لخلقِ الله...".

- "أتقصُدُ بقولِكَ أنَّه ساحرٌ ويفعلُ كما يفعلُ السحرةُ؟".

- "نعمْ...".

يهزُّ القاضي رأسهُ، ثمَّ يطلبُ من الشاهد الانصراف. يأمرُ بإعادةِ الحلّاجِ إلى السجنِ. يطلبُ الانفرادَ بالوزير حامد بن العباس وصاحب الشرطة محمد بن عبد الصمد، فغرق الرجالُ الثلاثة في حديثٍ هامسٍ.

١٩

أفاقَ من نومه في الهزيع الأخير من الليل. قبيل صلاة الفجر، كان القاضي أبو عمر المالكي يبدو مهمومًا. كان مثل شخصٍ وُضع على مفترق طرق، لا يعرفُ إلى أين يؤدِّي كلُّ طريق منهما. كان عليه أنْ يتَّخذ قراره النهائيّ. لا يعرفُ كيفَ نام، ولكنَّه نام واستيقظ نشطًا كأنَّه لبث مئة عام غارقًا في النوم. ربَّما لَمْ يسمعه أحدٌ وهو يهجس لنفسه بهذه الكلمات وهو يذرعُ بقدميه باحة الدار، عاقدًا يديه وراءَ ظهره، ويفكِّرُ بصوت عالٍ: "... الممالكُ الهشَّةُ هي مَن يجرفُها التَّيارُ لأنَّها ليستْ مبنيَّةً على قواعدِ العدلِ والإنصافِ".

تنهَّدَ ملءَ صدره، واستمرَّ في مخاطبة نفسه: "... ليتَ أهلَ القصر، والحلِّ والعقد، يدركون هذه الحقيقة. بصعوبةٍ كثيرة أخمدت ثورة الزنج في البصرة، التي وصل شرُّها حتَّى البحرين، والأحواز. متى حدثَ ذلك؟ حدثَ منذ خمسٍ وعشرينَ سنة، ثمَّ ماذا بعد؟ هل انتهت الفتنُ؟ الجواب: لا...".

- "... بعد فتنةِ الزنجِ، ها هو القرمطيُّ اللعينُ يثور في الكوفة والبصرة. يتكاثرُ أعوانه في البحرين وهجر. له أكثر من ثلاثين عامًا

وهو يهدِّدُ عرش الخلافة. أبو طاهر القرمطيّ الذي استحلَّ الكوفة لمدة خمسة أيَّام. أطلقَ جنوده فيها، وحدث من المآسي ما تشتعل له رؤوس الولدان شيبًا. هذه التحرّكات المسّلحة ستعصفُ بالخلافة لو تركنا، نحن العلماءَ، أمثال هؤلاء المتصوّفة والدراويش يصرفون النَّاس عمَّا هو أهم. إنَّهم مجرَّد عيونٍ مبثوثةٍ ومرصودةٍ لهدم بيضة الدِّين. وصلتني أخبارٌ مؤكَّدةٌ أنَّ هذا المدعوّ الحلّاج قد انضوى تحت راية القرامطة. هُو واحدٌ منهم. قِيل لي أنَّه قد التقى قائدهم وكبيرهم أثناء ذهابه إلى الحجِّ. يتَّخذ من الحجِّ ذريعةً للوصول إلى هؤلاء الشرذمةِ الخارجةِ من ملَّةِ الإسلام لتحقيق أهدافهم الطامحة إلى الوصول إللى الحكمِ والسلطان".

توقَّف أمام نافذةٍ تطلُّ على الخارج، أزاحَ الستارة المسدلة عليها. نفذت إلى الحجرة دفقةُ هواءٍ منعش. نظرَ إلى الشارع الخاوي من الحركة والنَّاس. لا يزال الظلامُ دامسًا. لم ينبلجْ ضوءُ الفجرِ بعد. طوَّحت به الأفكارُ بعيدًا. ارتفعَ صوتُه عاليًا بعد أنْ كان هامسًا: "... مع ذلك، لا تزال هذه الخلافةُ آيلةً للسقوط، لأسبابٍ كثيرة منها: كثرة علوج الفرس والديلم والترك في دواوينِ الخلافة وجيوشها، وحتَّى في قصورها. كانوا - ولا يزالون -الحكّام الفعليين. لا أحدَ يستطيعُ الوقوف في وجوههم. هُم ذئابٌ يلبسون ثيابَ الحملان ليسيطروا على أوصالِ دولة بني العباس، وقد كان لهم ما أرادوا... ثمَّ، ثمَّ يأتي رجلٌ متصوّفٌ يرتدي ملابسَ غريبةً، وتصدر منه أفعالٌ وأقوالٌ ما أنزل الله بها من سلطان، وله أعوانٌ وأتباعٌ كثيرون ليقضي على البقيَّةِ الباقيةِ من تماسكِ البلاد المائلِ للانهيار في أيِّ لحظة. لا يمكن أن

أسمحَ برجلٍ معتوهٍ مثل الحلّاجِ أنْ يهدَّ أركان الدولة. لا بدّ من إيقافه عند حدِّه، وإلاّ انفرطَ العقدُ، وانتهى كلُّ شيءٍ...".

يتنهَّدُ القاضي. يتناولُ قدحًا من الماءِ القراح، يتجرَّعه ثمَّ يخاطبُ نفسه: "الشهودُ كثيرون، بلغَ عددهم أربعة وثمانين شاهدًا. استجوبتهم الواحد تلو الآخر على مدى أيّام طويلة، وكلُّهم شهدوا بردّة الرجل، وكفره، وزندقته، وما لديَّ في جعبتي من فقهٍ وعلمٍ ودينٍ يؤكّد لي أنّه صريحُ الكفرِ"...

- ماذا يقصدُ بقوله مثلاً أنَا الحقُّ؟ أليسَ هذا دليلاً كافيًا لزندقته وكفره؟! ومن أقوالِه أيضًا التي لا شكَّ لديَّ في كونها أقوالاً كفريَّةً صريحةً، ما قاله لذلك الأعرابيِّ حينما سألَ الحلّاج إمام مسجد المنصور: ماذا في جبّتِكَ؟ فكانَ جوابه مزلزلاً، يُخْرِجُ المرءَ من دِينه وعقيدته: مَا في جبَّتِي إلاَّ الله... أستغفرُ الله العظيمَ. أليسَ هذا كافيًا لإقامةِ حدِّ الردّةِ والكفرِ على هذا الرجلِ؟ هلْ يُنتظر منّي أنْ أتركه يسرح ويمرح في طول البلاد وعرضها دونَ عقابٍ، ولا حسابٍ؟".

- "لقدْ وصلَ تأثيره حتّى في دار الخلافة، فلقد صدَّق زندقته الكثيرُ من الجنود والحرس، ووصل شرُّه حتّى إلى الخدمِ والحشمِ التابعين للحاجبِ نصر القشوري. أعترفُ أنَّ له مريدين، ولكنَّهم مجموعةٌ من الجهلةِ والسوقة ضعافِ القلوبِ والعقولِ، وهم كثيرون... إنّني مسؤولٌ أمام الله إذا تركت هذا الزنديق يعيثُ فسادًا في الأرض. واجبي الدِّيني يحتّمُ عليَّ فعل ما يوقف شرّه المستطير... لقد حاكمته محاكمةً علنيَّةً وعادلةً، واسترشدتُ بأقوالِ كثيرين من الشهود. شاورتُ الكثيرَ من علماءِ المسلمين، وكلّهم مؤيدون لتنفيذِ

حكم الرِّدةِ في هذا الزنديق، فالخطرُ قريبٌ، والنَّاس أصابهم البلاءُ في دينهم، فلا بدَّ من إيقاف هذا الرجل عند حدِّه...".

لقدْ انتهى كلُّ شيءٍ. بانت الحقائقُ، ولم يبقَ سوى الحكمِ بنهايةِ الأمورِ.

ولكي لا يطيرَ توهَّج الأفكار التي تكون في قمَّة نضجها في ساعات اللّيل المتأخّر، حيث يعمُّ السكون والهدوء، قرَّرَ أنْ يكتبَ ما سيقدم عليه في يوم الغد. قال لنفسه ليس هناك أفضل وأصدق من تدوين ما تريد فعله في لحظة حقيقيَّة وصادقة في مثل هذا الصفاءِ العقليّ والهدوء القلبيّ في أوقاتِ السَحَر، وساعة بزوغ الفجر.

ابتسمَ لتلكَ الخاطرة.

جلسَ القاضي على مقعد أمامه طاولةٌ ضخمةُ الحجم. لبث متفكرًا قليلاً كأنَّه يقيسُ أو يضبطُ أفكارَهُ المتصارعة داخلَ عقله. أمسك بالدُّواةِ ووضعها بجانبه. غمسَ الريشةَ في الدواةِ، ثمَّ كتبَ:

بحمد الله تعالَى وتوفيقهِ، فقدْ قرَّرنَا مَا هُو آتٍ:

بسمِ الله الرَّحمنِ الرَّحيم

الحمدُ لله، وبه نستعينُ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ الله النبيّ الأمّي محمد بن عبد الله عليه صلوات الله وسلامه. فنحمدُ الله القائلَ في محكم آياته: ﴿فَمَن اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدي لنَفْسه وَمَنْ ضَلَّ فَإنَّمَا يَضلُّ عَلَيْهَا وَمَا أنَا عَلَيْكمْ بِوَكيل﴾، فإنَّه في يوم السبتِ، اليوم الخامسِ عشر من شهرِ ذي القعدةِ، من سنة ثلاثمئة وتسعةٍ من الهجرةِ النبويَّةِ الشريفةِ، قرَّرنَا نحنُ، القاضي

أبو عمر يوسف بن محمد المالكيّ، قاضي قضاة بغداد، تنفيذَ حدِّ الرِّدةِ والتعزيرِ بقتلِ الزّنديقِ الملحدِ المدعوِّ أبي المغيث الحسين بن منصور الحلّاج، وذلكَ بناءً على ما تبيَّنَ لنَا من كفرِهِ الصريح، وبناءً على أقوالِ الشهودِ البالغ عددهُم أربعةً وثمانينَ رجلاً، ثقاتٍ، عدولاً، وباستجوابِنَا لَهُم، وإقرارِهم بزندقةِ المدعو الحسين بن منصور الحلّاج، وبعدَ التشاورِ معَ بقيَّة القضاة، والاسترشاد برأيهم، ثَبتَ لنَا شرعًا بمَا لا يدعُ مجالاً للشَّكِّ صدقُ ردَّةِ هذَا الزنديق، وإحداثه الكثيرَ من الأقوالِ والأفعالِ التي تُخْرِجُ المسلمَ من الملَّة. وبعدَ استجوابِ الحلّاجِ، بحضورِ الشهودِ والقضاة، تبيَّن لنا من الأخطارِ ما الله به عليمٌ فيمَا لو تُركَ هذا الرجل يعيثُ فسادًا في عقولِ النَّاس. وقد تمَّ الاتّفاقُ علَى أنْ يسلَّمَ قرارنَا هذا إلى صاحبِ الشرطةِ في قصرِ الخليفة، محمد بن عبد الصمد، ليسلِّمه - بعونِ الله تعالى - إلى خليفةِ المسلمين - أيّده الله بنصره - لاعتماد تنفيذه بإذنِ الواحدِ الأحدِ، على أنْ يستتبعَ قرارنَا هذَا جمعَ وحرقُ كلِّ كتبِ هذا الزنديقِ من حوانيتِ الورَّاقين في طولِ البلادِ وعرضِها، وجمعها من بيوتِ مريديه، وأتباعِه المنكودين، لئلاَّ تقعُ في يدِ الدهماءِ من النَّاس، فتغيِّر عليهم دِينهم، وتُفْسِد عليهِم دنياهُم...

بعدَ أن كتبَ القاضي تلك الوثيقة، طوى الرقعةَ بعنايةٍ، وقررَ أن

يدفعَ بها صبيحة هذا اليوم إلى صاحب الشرطة، محمد بن عبد الصمد، ليسلّمها للخليفة. انتابه شعورٌ، للوهلة الأولى، بالرّاحة منذ أكثر من عام قضاه في منافحة هذه القضيَّة الشائكة التي أتعبته وأنهكته. وحالما انتهى من الكتابة، توضأ للصلاةِ، ثمَّ انطلق نحوَ الجامعِ، جامع المنصور، وأذانُ الفجر يوقظ النائمين، فدبَّت حركة المصلّين المتّجهين لأداء الصلاة، تظهر في الطرقات المعتمة.

٢٠

يا رب...

نحنُ شواهدكَ. نلوذُ بسنَا عزّتكَ لتبدي ما شئتَ من شأنك ومشيئتك. وأنتَ الذي في السماءِ إلهٌ وفي الأرضِ إلهٌ. تتجلّى لما تشاءُ مثل تجليك في مشيئتك لأحسنِ صورةٍ، والصورةُ فيها الروحُ الناطقةُ بالعلم والبيانِ والقدرةِ. ثمَّ أوعزت إلى شاهدك الآني في ذاتكَ الهوى. كيف أنتَ إذا مثلتُ بذاتي عند عقيبِ كرّاتي، ودعوتُ إلى ذاتي بذاتي، وأبديتُ حقائق علومي ومعجزاتي، صاعدًا في معارجي إلى عروشِ أزلياتي عند القولِ بريّاتي. أنتَ احتضرت، وقتلت، وصلبت، وأحرقت، واحتملت سافياتي الذّاريات، ولججت بي الجاريات...

بصوت رخيم، تصلني تلك المناجاة وأنا أمدِّدُ جسدي على كرسي المكتب الجلدي الوثير. أنظر إلى صورتي في المرآة الكبيرة المثبّتة

أمامي على الجدار المقابل. أمعنُ النظرَ في انعكاس صورتي. أرى رجلاً غريبًا. هذا ليس أنا. أفركُ عينيَّ لكي أتأكّد. الصورةُ المنعكسةُ في المرآة تتكلّم وتناجيني وتحدّثني. أحاول النهوض. لا أقوى على الحركة. أشعرُ بالتعب والإنهاك الجسديّ والذهنيّ. أصرفُ بصري عن النظر في المرآة. أرمي بنظارتي الطبيّة على المكتب، تنزلقُ من فوق الكتب والمراجع المرصوصة، فتسقط على الأرض من الجهة الثانية. أفركُ عينيَّ المجهَدتين بسببِ القراءة لساعاتٍ متواصلةٍ. عشراتٌ من الكتب ملقاةٌ أمامي على المكتب الكبيرِ المزدحم بالمراجع مثل: **البداية والنهاية** لابن كثير، **ووفيات الأعيان** لابن خلّكان، **وسير أعلام النبلاء** للذّهبي، **وآلام الحلّاج** للويس ماسينون، وغيرها كثير. وكان هناك أيضًا "ملازمُ" كثيرةٌ من الورق مصوَّرة من كتبٍ نادرة مصفوفة، وموضوعة هنا وهناك. أوراقٌ متناثرةٌ على الأرضيَّة، أكوابٌ كثيرةٌ من الشاي والقهوة بعضها مسكوبٌ على الأوراق، وبعضها استُخدم كمنفضة للسجائر، روائحُ مختلطةٌ تداعبُ أنفي، نعاسٌ قاهرٌ يداعبُ عينيّ. ألمح كبسولات العلاج التي صرفها لي الطبيب. منذ مدة راجعت طبيباً نفسيّاً بعد أن ساءت حالتي النفسية والعصبية. أعرف تماماً أن النفس تمرض كما يمرض الجسد. الإنكار لا يفيد، بل يزيد الأمر سوءاً. قال لي إنها مهدئات للأعصاب ولا بد أن أتناولها في مواعيدها بانتظام. أمد يدي إلى علبة الدواء. أتردد في تناول الحبّة الصغيرة البرتقالية اللون. كانت تخرجني من حال إلى أخرى. تدخل بي في شيء مثل غيبوبة. مثل موت رحيم بلا آلام أو أوجاع. أمكث قرابة يوم كامل غارقاً في النوم الذي تتخلّله الكوابيس

والأحلام التي لا تنتهي. أحسم أمري. أتناول الحبة البرتقالية وأشرب معها نصف كوب ماء. أمدُّ يدي إلى أسفل الكرسي الجلدي الوثير. أتحسَّسُ برغيَّ التحريكِ. أشدُّه في الجهةِ المعاكسةِ. ينداحُ الكرسيُّ إلى الوراء. أشعرُ بالخدرِ. أغمضُ عينيَّ. أرى نفسي أسير في دهليز طويل ومعتم. أتلمّس طريقي فيه بصعوبة. لا بصيص من نور. لا شيء سوى ظلام دامس. عتمة أبدية لا نهائية. متاهة لها أول وليس لها آخر.

و... فجأةً من خلال هالة من نور، يدخلُ من الباب رجلٌ ربعةُ القامةِ، أبيضُ اللونِ، مهذبُ شعرِ اللحيةِ، يلبسُ عباءةً بيضاءَ موشَّاةً بالقصبِ الذهبيِّ اللون. وجهٌ مريحٌ، وعينان تومضان بألقٍ، ورضاء، وسعادة. كان الوجه نفسه الذي كان ينظر نحوي في المرآة. أحاولُ النهوضَ فلا أستطيع. أشعرُ بحبالٍ من حديد تشدّني إلى أسفل. أستسلمُ من التعبِ والإنهاكِ... أسأله: "مَن أنتَ يا سيِّد؟ ولماذا دخلتَ عنوةً إلى مكتبي دونَ أنْ أسمحَ لكَ؟".

- "أنَا أبو المغيث الحسين منصور الحلّاج...".
- "الحلّاجُ؟!".
- "نعمْ".
- "أيعقلُ ذلك؟".
- "وما هو الذي لا يُعقلُ؟".
- "أما زلتَ حيًّا؟".
- "نعمْ".
- "ولكنّك ميّتٌ من ألفِ ومئة سنة ونيف...".
- "لا... لمْ أمتْ".

- "لمْ تمتْ؟ هذا أمرٌ لا يصدِّقه عقلٌ؟".

- "لمْ أمتْ. ضربوني ألفَ سوط قبل صلبي، وقطعوا يديَّ ورِجليَّ، ثمّ قطعوا رأسي وطافوا به في أرجاءِ بغداد وخراسان قبلَ أن يضعوه في خزانة الرؤوس في قصرِ الوضاح، ثمَّ أحرقوا جسدي، وألقوا برمادهِ في نهر دجلة ولكنّني لمْ أمتْ".

- "مستحيل!".

- "لمْ أمتْ... ولنْ أخذلَ مريديَّ ومحبيَّ الذين مكثوا بعد موتي ينتظرونني وينتظرون بصبر فارغ عودتي".

- "ولكنَّ ذلك يخالفُ نواميسَ الكونِ يا سيِّدي".

- "﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾".

- "...!".

- "ولماذا أتيتَ إلى هنا تحديدًا؟".

- "لكي أنقذكَ من حيرتكَ وأجيبَ عن كلِّ تساؤلاتك".

- "لا أصدِّق!".

- "ولِمَ لا تصدِّق هآنذا واقفٌ أمامك!".

- "هلْ أنتَ الحلّاجُ حقًّا؟"

- "نعمْ... أنا هُو ماثلٌ أمامكَ".

- "ولكن أريدُ أنْ أتأكَّدَ أكثر من كونكَ الحلّاج".

- "لكَ ذلك".

- "أخبرني عن يوم ولادتك".

- "وُلدتُ سنة ٢٤٤هـ، في موضعٍ يُقال له الطور، بالقربِ من بلدةِ البيضاء، بيضاء فارس... كان والدي يحلجُ القطنَ، فأصبحتُ

مهنته لقبًا لنا. وقيل أنَّ اللهَ وهبني استبصارًا أحلج فيه القلوبَ، أعرفُ فيه البَرّ من الفاجرِ... ولكنْ قبل أنْ أستمرَ في الإجابةِ عن تساؤلاتكَ، أخبرني أنتَ من تكون؟".

- "ألمْ تقلْ إنَّك جئتَ لتخرجني من حيرتِي وتجيبَ عن أسئلتي؟".

- "هو ذاك، أنا أسمع نداءك، وأرى تقلّب بصرك في الأحوال والرؤى، وأسمع صوتك عند انحسار النور وولوج الظلام، فحيرتك اخترقت الحجب ووصلت إلي. ولكنّني لمْ أعرفْ اسمكَ حتّى الساعة".

- "أنا أُدْعى الدكتور نوري... أوووه نسيت. لمْ أعد دكتورًا بعد الآن، فقد سحبوا منّي شهادة الدكتوراه!".

- "لا أعرفُ عن ماذا تتحدَّثُ يا سيِّدي".

- "وما هو الذي لم تعرفه؟".

- "ماذا تعني بالدكتوراه؟".

- "لا يهمُّ ما تكون بعد أن سحبوها منّي، لمْ أعدْ أهتم...".

- "ولماذا سحبوا منكَ هذا الشيءَ الذي تقوله؟"

- "لأنّني نقّبتُ في حياتكَ، وذكرتُ اسمكَ، وسردتُ قصّتكَ، وأوردتُ بعضَ أقوالكَ!".

- "من أجلي أنا؟ بعدَ كلِّ هذه السنين؟".

- "نعمْ".

- "ألهذَا الحدِّ لا يزال الجهلُ متفشّيًا في العقولِ؟".

- "لا يهمُّ يا سيِّدي. تلك قصةٌ أُخْرَى. فأنتَ لا زلت موضعَ

جدل كبير حتَّى يومنا. دعنا نَعُدْ إلى حديثنا الأهم. عندي تساؤلاتٌ كثيرةٌ تخصُّكَ، وأريدُ منكَ أن تجيبني عنها...".

- "سلْ مَا بدَا لكَ...

- "لماذا صلبوكَ، وقطعوا رأسكَ، ثمَّ أحرقوا جثَّتكَ؟".

- "أَوَ قَدْ فعلُوا ذلكَ؟".

- "نعمْ. ولقدْ قلت أنت على مسامعي قبل قليل ما فعلوه بكَ بالتفصيل...".

- "نعمْ. لقد ذكرتُ لكَ ما قاله المؤرِّخون في كتبهم...".

- "ألا تعرف ما فعلوه بكَ؟".

- "لا يهمّني ما فعلوه بي، فمَن هم على شاكلتي لا تهمّهم أفعالُ البشرِ، فأنا لا زلتُ حيًّا في قلوب كلِّ محبٍّ لي، ولا أريدُ أن أدخل معك في جدال. أعرفُ كم أنت مرهقٌ ومتعبٌ ومصابٌ بخيبةِ الأملِ...".

- "ولكنَّني أرغبُ أنْ أسمعَ منكَ ما الذي حدث لكَ بالضبطِ".

- "تريدُ أنْ تعرفَ لماذا صلبوني، وقطعوا يديَّ، وقدميَّ، ورأسي، وأحرقوا جثَّتي مثلما تقولُ؟"

- "نعمْ".

- "لأنَّ محبَّةَ الله عندي جهادٌ في سبيلِ إحقاقِ الحقِّ، وليست مسلكًا فرديًا بيني وبين خالقي".

- "أليست هذه هي حقيقة المتصوِّفة في كلِّ زمانٍ ومكانٍ؟"

- "المتصوِّفة؟ ما هذه الكلمة؟ ألاَ زلتم تسمُّونَنا الصوفيين حتَّى هذا الزمان الفاسد؟".

- "نعم".

- "حقيقة المتصوّفةِ، والزُّهادِ، والعُبّادِ، وأولياءِ اللهِ وخاصّتهِ يمكننا اختصارها بكلمةٍ واحدة: محبّة الله".

- "الصوفيون دائمًا يردّدون مثل هذه العبارات...".

- "أتقصدُ أنَّ مَن لبسوا الجبَّةَ المتقشّفةَ، والمخاطةَ من الصوفِ تسمُّونهم الصوفيين".

- "نعم...".

- "ليكنِ. ولكنَّ الأمرَ ليس كما يبدُو لك... أنت تأخذُ بظواهر الأشياء، لا بكُنهها وحقيقتها. المتصوِّفةُ هم أولياءُ الله الذين يواصلون حملَ راياتِ الخلاصِ، ويعيدون صناعةَ الحياة من جديد، وهم بالمحبَّة يحرِّرون الأرواحَ من أسر العجز والوهن. كلّ ما أريد أن تعرفَه أنَّ محبَّة الله ليست صوفيَّةً فقط، بل هي أيضًا جهادٌ ضدَّ الظلمِ والطغيانِ".

- "ضدَّ مَن؟ ضدَّ السلطانِ؟".

- "بدأت تتحدَّث بلغتهم؟".

- "مَن هُم؟".

- "فقهاءُ السلاطين والحروب...".

- "أنا لستُ منهم، ولنْ أكونَ منهم في يومٍ ما".

- "ولكنَّك تتحدَّث بمنطقهم الذي استحلُّوا فيه دمي".

- "ولكنَّهم هُم مَن سعوا لدى السلطان إلى قتلكَ".

- "نعم. الأمرُ مثلما تقول، ولكنَّهم لم ينتصروا عليَّ يومًا ما".

- "كيف؟".

- "لأنَّ الجهلَ عورةٌ، وقد كشفت عورة جهلهم. إنَّهم ليسوا إلاَّ جهلاءَ، فارغي العقول، يريدون السطوةَ، والقوةَ، والمالَ، والعزوةَ...".

- "ولكنَّهم قتلوكَ في نهاية الأمر".

- "الجسدُ إلى فناء، والروحُ تعودُ إلى بارئها، ولكنَّ الفكرةَ والكلمةَ والقدوةَ الحسنةَ تبقى أبدَ الدهرِ. ألمْ تقرأ ما كتبته في كتبي؟".

- "قرأتُ الكثير؛ لكن ماذا تقصد؟".

- "ألمْ تقرأ في كتابي **الطواسين** أنَّ أفهامَ الخلائق لا تتعلَّقُ بالحقيقة، والحقيقةُ لا تتعلَّقُ بالخليقة. الخواطرُ علائقٌ، وعلائقُ الخلائقِ لا تصلُ إلى الحقائقِ، والإدراكُ إلى علم الحقيقة صعبٌ، فكيف إلى حقِّ الحقيقة؟!".

- "بمثل هذه الكلمات سحبوا منّي شهادة الدكتوراه. ولكنْ مهلاً، ألمْ تقلْ لجلاديكَ يا سيِّدي إنَّ معبودَكم تحتَ قدميَّ؟".

- "نعم. ولكن أفهامهم وعقولهم القاصرة لمْ تدركْ ما أعنيه".

- "وماذا كنتَ تعني بهذه الكلمات؟".

- "كنتُ أعني أنَّ الذهبَ والفضةَ اللتين تحت قدميَّ في باطن الأرض هما معبودهم الحقيقيّ...".

- "ولكنَّهم لم يفهموها كما أردت؟".

- "حتَّى لو فهموا المقصدَ، فالكلمات قد تخونك، ومع ذلك، سيؤولونها لما يريدون تأويله كي يثبتوا الحجَّة عليَّ. قالوا عنّي إنني مع صاحبِ الزنج، وفي آخر أيَّامي قالوا إنّني قرمطيٌّ".

- "ما يحدث لك يا سيِّدي حدث معي!".

- "كيفَ ذاك؟".

- "دقَّقوا في شهادة الدكتوراه على الألفاظ والكلمات التي ذكرتُها على لسانكَ، ولم يكلِّفوا أنفسهم عناءَ فَهْم ما كنتُ أريد قوله، وبسبب ذلك سحبوها منِّي".

يضحكُ بصوتٍ عالٍ...

- "لماذا تضحك يا سيِّدي؟".

- "ضحكتُ لأنَّ العقول لبثت كما هي، لم تتبدَّل ولم تتغيَّر رغم مرور القرون والمئات من السنين".

- "هو ذاك يا سيِّدي".

- "وماذا ستفعل؟".

- "في ماذا؟".

- "فيمَن حرموكَ الذي تقوله هذا. ما اسمه؟".

- "شهادة الدكتوراه".

- "ماذا ستفعل؟".

- "لنْ أفعلَ شيئًا".

- "هل أنتَ مقتنعٌ بما ذكرته في ما تسمِّيها رسالتك؟".

- "نعم".

- "إذن، لا بدَّ أنْ تنافحَ عمَّا كتبته ما دمت مقتنعًا به".

ينهضُ من فوق الكرسي، ثمَّ يتَّجه نحو الباب، أناديه بأعلى صوتي: "إلى أينَ أنتَ ذاهبٌ يا سيِّدي؟ انتظر. لا يزال لديَّ الكثير ممَّا أريدُ قوله لك".

لا يعيرني أدنى انتباه. يخرجُ من الباب. أحاولُ النهوض من فوق

الكرسي لألحقَ به، ولكنني أجدُ نفسي مربوطًا بحبال متينة تشدّني إلى الكرسي. أحاول الوقوف... أصرخُ... ثمَّ أصرخُ... أفتحُ عينيَّ على اتّساعهما. لا أحد سوى الظلام قد حلّ وأسبل بكثافته على الحجرة. خيطٌ من الريق يسيلُ على خدي الأيسر، والعرق يبللُ ثيابي. أجوسُ ببصري خلال الحجرة. لا أحدَ. أنظر إلى ساعتي لكي أعرف الوقت. لا أرى شيئاً بسبب الظلام. أضيء ولاعة السجائر وأنظر إلى ساعتي. كانت تشير إلى التاسعة مساء. أتلفّت حولي. أنادي بصوتٍ واهن: "أينَ أنتَ يا سيّدي؟ لماذا تركتني؟".

لا أحد...

يرنُّ الهاتفُ فيخرجني من نومي وغيبوبتي العقليّة القسرية. أمسكُ السماعة. جاءني صوتُ جابر صاحب مكتبة "الثقافة"، يطلبُ مني المجيء على عجل قبل إقفاله المكتبة لكي أستلم الكتب والمراجع التي أوصيته بجلبها...

٢١

يزورك ذاتَ يوم.

كلُّ ما تذكرهُ أنَّ الوقتَ كان قبيلَ الفجرِ. كنت تقضي أيَّاما طويلةً تقرأ، وتعبُّ شربًا في أكواب الشاي والقهوة، والسجائر. كنت منكوشَ شعرَ الرأسِ، طويلَ شعرِ الذقنِ، أسودَ ما تحت العينين. تستمعُ للسيمفونيَّة رقم ٤٠ و٤١ لموزارت الذي تعشق موسيقاه مئات المرَّات دون أن يصيبك منها الملل. روحك هائمةٌ لا تجد لها مستقرًا. تحاربُ فظاظة الحاضر الفجِّ بالاستغراق في قراءة الكتب والمراجع والملازم الورقيَّة التي كانت تتحدَّثُ عن الحلّاجِ وسيرته. لا تقرأ للمتعة، بل تقرأ بطريقة استقصائيَّة مرهقة تمتصُّ كلَّ جهدك ووقتك. تحرِّكك سطوة الكلمة، وتستحوذُ عليك لمعةُ الفكرة. تجد في نفسك ذلك النزوعَ الملحَّ إلى معرفة الحلّاج الذي شوَّهت بعض الكتب سيرته. تغوصُ يومًا بعد يوم في سيرةِ الحلّاجِ، فتتكشَّف لك أمورٌ جديدةٌ كانت خافيةً عليك أثناء كتابتك رسالة الدكتوراه. هناك تقاطعاتٌ كثيرةٌ تجمع بينكَ وبينَ الحلّاج. ما حدث للحلاَّج يحدثُ لكَ الآن ولو جزئيًا. ربَّما خيالك صوَّر لكَ ذلك. كلَّما قرأت عنه،

وتعمَّقت في سيرته وأخباره، تجده يمسكُ بتلابيب نفسك، ولا فكاك. يسيطرُ عليك. تشعرُ كأنَّك تسبحُ في مواجهة لجج موج بحرٍ عاتٍ، كلَّما تقدمت مسافة قصيرة، أدركك الغرقُ، ولكنَّك لا تغرقُ ولا تموتُ. تلبث معلَّقًا بين الحياة والموت. تصلُ مرحلة اللاَّعودة، فتبدأ المحاولة مرَّةً أُخْرَى.

بعدت الشُّقةُ، وطالَ الطريقُ، ولاتَ حينَ رجوع...

مع مرور الأيَّام تزيد هلوساتك. تستحوذ عليك الرؤى المعتمة والكوابيس المتَّصلة. أصبحت تتكلَّم مع نفسك بصوتٍ عالٍ في البيت، وفي السيَّارة، وفي البقالة، وفي المقاهي، وفي المناسبات الاجتماعيَّة القليلة جدًّا التي تلبيها على مضض. النَّاس ينظرون إليكَ بريبة. يهزُّون رؤوسهم يمينًا ويسارًا، ثمَّ يغادرونك والأسى بادٍ على وجوههم. تفكرُ جديًّا في عرض نفسك على طبيبٍ نفسيٍّ آخر غير الطبيب الذي يعالجك في الوقت الحالي. تتذكر أنك قرأت في إحدى الصحف عن عيادة طبيب نفسي ماهر وله سمعه وصيت في البلد. تقرر عرض نفسك عليه لعلّك تجد علاجاً لحالتك المتدهورة. النفسُ والعقلُ يمرضان مثل الجسد تمامًا. الاعترافُ بالمشكلة المرضيَّة أوّل خطوة نحو الشفاء. أصبح وضعك العقليّ والعاطفيّ محرجًا لكَ ولمَن حولك. تناديه في نومكَ وصحوكَ. تصحو من نومكَ وقد تفصَّد جسدك بالعرق، وأنت تلهجُ باسمه: الحلاج... الحلّاج. الطيف لا يرحمك. يزورك بكثرة في الأوان الأخير.

تتناول الحبة البرتقالية الصغيرة الحجم الهائلة التأثير... ثمّ...

في ذاك اليوم يدخل عليك المكتب. يلقاك جالسًا على المقعد

الوثير في مكتبك. الكتبُ والمراجعُ كلَّ يوم تزيد حتّى لم تعدْ تجد متّسعًا لأيِّ كتابٍ آخر. ترسل بصرك بوجلٍ، وتردِّد نحو المرآة في الجهة المقابلة من حجرة مكتبك. لا تعرفُ هل خرج عليك الطيفُ، طيف الحلّاجِ هذه المرّة من المرآة أم من البابِ المواربِ، أم أنَّه انبثقَ من داخل نفسك!

يقتربُ منك بهيئته البسيطة. يلبسُ هذه المرّة ثيابًا متقشِّفة، كانت عباءة من الصوفِ على جسده النحيل، وشعرُه مرسلٌ على كتفيه. عيناه لامعتان ويتناسلُ منهما ضوءٌ شفيفٌ. كان يمسك بيده اليمنى أقلامًا من البوصِ، والريشِ، وفي الأُخرى محبرةً. يستخرجُ من خُرجٍ من الجلدِ معلّقٍ على كتفه الأيمن رقاعًا من الجلد، يضعها أمامك، ثمَّ يأمرك بصوت حاسم واضحِ النبراتِ: "اكتبْ!".

- "ماذا أكتبُ؟".
- "اكتبْ!".
- "أكتبُ ماذا؟!"

يصرخُ بأعلى صوته في وجهك:

- "اكتبْ مخطوطتي؟".
- "مخطوطتكَ؟"
- "نعمْ...".

تمتثلُ لأمره الصارم. تزيحُ المحبرةَ، ورقاعَ الجلد، وتستبدلُ بهَا الأوراقَ البيضاءَ، وتستبدل بأقلامِ البوص الأقلامَ العاديَّة. تمسكُ بالقلم والأوراق البيضاء أمامك، يغريك بياضُها بالكتابة. تفركُ جبهتك بإصبعيّ السبابة والإبهام متفكرًا، ثمَّ تندلقُ أفكارك على

الورق، وتتحوَّل إلى كلماتٍ وراء كلمات، جُمَل وراء جُمَل، فكرةٍ وراء فكرة. لا تشعر بنفسكً. كلّ حواسك أصبحت مرهونةً للكتابة. تتصارعُ الأفكارُ في رأسك بحثًا عن مخرج. ينفتحُ ثقبٌ صغيرٌ في عقلك، فتندلقُ الكلماتُ كالسيلِ الجارفِ. تبدل القلمَ بآخرَ. تصحو من غيبوبتك. لا أحد بجانبك. لا الحلّاج ولا أي شخص آخر. أنت شخص وحيد ومريض ومطلّق. لا زوجة ولا أولاد. لا أصدقاء ولا عمل. أنت موقوف عن عملك محاضرًا في الجامعة بسبب رسالتك عن الحلّاج. أنت مسكين، نعم، مسكين. تغوص في الكتب بحثاً عن قصص أناس ماتوا منذ مئات السنين. ماتوا واستراحوا وأنت تنبش قبورهم لتعيدهم إلى الحياة مرة أخرى. ثم ماذا كان الثمن؟ أمراض نفسيّة، عزلة قاسية، نظرات شك وريبة من المحيطين بك، زوجة طلبت الانفصال وحَصَلتْ عليه لأنها لن تعود قادرة على الاستمرار مع رجل "مجنون" فاقد العقل وله علاقات نسائية فاضحة ومثبتة بالصور. ترش وجهك بالماء من قنينة مياه معدنية موضوعة على مكتبك. تشعر بقليلٍ من صفاء الذهن. تمسك بالقلم ثمَّ، تكتبُ...

مَخطُوطةُ الحلّاجِ

كتبها

نوري إبراهيم

"إذَا اتَّسعتِ الرؤيةُ، ضَاقتِ العبارةُ"

النّفري

رِبَاطُ الزُّهَادِ

تسألُ نفسكَ: لماذا لمْ تعدْ للأمكنة التي احتضنت خطواتك الأولى أيّ شوق أو حنين؟

لماذا لمْ تعدْ تذكرُ قريتك الصغيرة، الوادعة: الطور؟

يقولُ لكَ أبوك حينما سألته: هلْ نحنُ عربٌ أم فرسٌ؟

كان يقولُ لكَ: "نحنُ لم نكن يومًا من الفُرس؛ فنحنُ عرب هذا الجزء من بلاد فارس القديمة. أنت حفيدُ أجدادك العرب الذين فتحوا هذه الأرض من بلاد فارس منذُ أكثر من ثلاثمئة سنة".

- "تقصد الأحواز؟"

- "نعمْ".

تزورك الأطياف قبل نومك فتسألك: لماذا أنت هنا؟

تنتابك حالةٌ من الصمتِ. لا جواب. حتّى الحركة في المدينة توقّفتْ، والزمنُ أصبحَ يمرُّ بطيئًا ثقيلاً. كلُّ شيءٍ تدثّر بغطاء من التوجُّس والتّرقب. في الصباح الباكر، توقظك أُمّكَ من النوم. تحمّمكَ، وتغسل شعرَ رأسك الطويل الناعم، الذي كانت تمتدحه كلَّ يوم، وتقول لكَ ضاحكةً إنّه الشيءُ الوحيدُ الذي ورثته منها،

أمَّا باقي ملامحك، فلأبيك النصيبُ الأكبرُ منها. في الصباح الباكر، تذهبُ مع أبيك حلاّج القطن إلى مربض القوافل في "البيضاء". يحملُ أكياسَ القطن المحلوج التي اشتراها من فلاّحي القرية على حمارين. يركِّبكَ على حمار ويمتطي أبوك الحمارَ الآخرَ. تسيران وقد بدأ نورُ الفجر يلوح في الأفق الشرقيّ، فتتَّضح ملامحُ الهضاب البعيدة وخلفها الجبال الشاهقة الارتفاع. في مربض ملتقى القوافل، يقايضُ أبوك التجَّار القادمين من الغرب، من بلاد العرب، بما لديه من قطنٍ محلوج ببعض الحبوب، والجلود، والخرز الملوَّن، وبعض المخطوطات الّتي ينسخها الخطّاطون في بغداد، ويبيعونها للتجَّار بسعرٍ زهيد، فيعيد التجَّارُ بيعها في المدن البعيدة بأسعار أعلى. كثيرًا ما كنت ترى أباك في أواخر المساء مكبًّا على هذه المخطوطات، يقرؤها على ضوءِ السراج. ترى هالةً من نور السراج تنعكسُ فوق وجهه وهو مستغرقٌ في القراءة. تمكثُ تراقبه حتّى يغلبكَ النومُ. وعندما ينتهي أبوك من قراءة المخطوطات كان يحملها ويذهبُ بها إلى "رباط الزُّهاد"، فيهديها لهم عن طيبِ خاطرٍ، وبلا مقابل. يجلسُ معهم يؤاكلهم من طعامهم البسيط. يستمعُ لحديثهم الأقرب إلى الهمس. تذهبُ دومًا برفقته إلى الرباط، ذلك المكان الذي لا تملُّ من الذهاب إليه. هناك تجد أناسًا يختلفون عن بقيَّة النَّاس. عيونهم لامعة، وقلوبهم تتَّقد بالدفء. أجسادهم هزيلة، ولكنَّها قوية. كلماتهم خفيفة كنسمة الهواء، لكنَّ معانيها واضحةٌ كلّ الوضوحِ. فيهم حياءٌ مع رقَّةٍ مع قوة. مزيجٌ غريبٌ من الصفات والشمائل النبيلة. تتأمَّلهم وتدور ببصرك في رباطهم البسيط: حياةٌ متقشفةٌ ولكنَّها

مكتنزةٌ بالغنى الروحيِّ، مترعةٌ بالحياة رغم فقرها المدقع. تتمنَّى لو أنَّك معهم. كانت البيضاء المدينة التي انتقلت إليها برفقة والديك من مسقط رأسك، قريتك الصغيرة المسمَّاة الطور تقعُ على طريق القوافل الرابط بين شيراز وأصفهان. في الطريق – طريق العودة إلى البيت – يقولُ لكَ أبوك إن البيضاء كانت – في سابق عهدها – معسكرَ المقاتلين المسلمين الذين جاؤوا لفتح بلاد فارس. يشيرُ بيديه نحو أرض فضاء، تطلُّ عليها قلعة أسفيد المهيبة الرماديَّة اللون. يقولُ لكَ هنا كان مقرُّ معسكرهم عندما أرادوا فتحَ مدينة أصطخر، ثمَّ ينفخُ أبوك صدره بزهوٍ، ويوجِّه إليكَ سؤالاً لا تعرفُ جوابه: "أتعرفُ مَنْ مِنَ الرجالِ المشهورين الذين كانوا منِ البيضاء، وكان لهم صيتٌ في دولة الخلافة في بغداد؟".

لا تجيب. يلكزُ أبوك حمارته لتلحقَ بحمارتك، ويجيب بدلاً عنك: "إنَّها بلدُ رائحة التفاح".

تتعجَّبُ من كلماته الغريبة، فتنظر إليه مستغربًا. يضحكُ ثمَّ يقولُ لك: "إنَّها بلدُ سيبويه عالم النحو الذي حفظ لغةَ القرآنِ والعربِ من اللَّحنِ، وكلمة سيبويه تعني رائحة التفاح. هل سمعتَ من قبل بسيبويه؟".

تلفت نظرك دائمًا طريقة أبيك في تعليمك وتوسيع مداركك. دائمًا تقولُ في نفسك إن والدك أقربُ أن يكون شيخًا ومعلِّمًا يُشار إليه بالبنان بدلاً من كونه حلاَّجًا للقطن. ولكنَّ الأقدار أرادت أنْ يكونَ حالجَ قطنٍ. يفصلُ القطنَ عن البذورِ. يستخدمُ قوس الحلج الطويل ذا الوترِ المشدود. يقضي ساعاتٍ طويلةً في عمله المرهق.

كانت مهنةً صعبةً، ولكنَّك لمْ ترَ أباك يجارُ بالشكوى يومًا ما. تحاولُ اقتناص لحظات هاربة وغير مفهومة، ولكنَّ كلَّ شيءٍ كان يتسرَّبُ من بين يديك كما يتسرَّب الماءُ من قبضة اليد. عزيمتك المتَّقدة لا تلين. ترغبُ في الرحيلِ عن المكان إلى حيث يجبُ أن تكون. ليلة البارحة لمحت شهبًا ضالَّةً تعبرُ الأفقَ البعيدَ، فتدرك أنَّ أيَّامك لمْ تعدْ توحي باليقين ولا بالطمأنينةِ. تضيقُ بكم الحال. أبوك يذهب إلى ملتقى القوافل بالقطن، فيعودُ به كاملاً. لا يجد أيَّ مشترٍ لبضاعته. يقضُّ مضجعك القلق المرتسم على وجه أبيك. تمكثونَ أيَّامًا لا تجدون سوى ما يسدُّ الرمقَ. بدأ الفقرُ والحاجةُ تطرقُ بابَ بيتكم السعيد.

واسطٌ

يدخلُ أبوك ذات يوم مهمومًا، وتسمعه يقولُ لأمِّكَ: "لَمْ يعدْ البقاء هنا مجديًّا. سنهاجرُ إلى بغداد".

يتنابك فرحٌ لا تستطيعُ إخفاءه. أخيرًا ستطأُ قدماك أرض العراق، أرض الخلافة. ستكون على مرمى حجرٍ من العلم والعلماء. تحققَ جزءٌ كبيرٌ من أحلامك. ذات صباح تحملون متاعكم القليل والزهيد، وتذهبون إلى ملتقى القوافل. يبيعُ أبوك الحمارين، ويدفعُ ثمنهما نظيرَ موافقة متصرِّف القافلة ليحملكم إلى بغداد. يستدينُ أبوك مالاً من أصدقائه القلائل، ليكونَ لكم عونًا في السفر. القافلةُ الكبيرةُ تسيرُ باتِّجاه بغداد. مَن يلمحها من بعيد، يراها كأنَّها قرية متحرِّكة تملأُ الأفق بحجمها الكبير. وحين يقتربُ منها يسمعُ صخبها وقضَّها وقضيضها. تستمع لأوَّل مرَّة لحداءِ القوافل: غناء جماعي رخيم يصطخبُ بالحنين، ويلهب الصدور بسياط الفراق ولوعته. أيَّام طويلةٌ مضت وأنت خافقُ القلب تتوق إلى الوصول. تسيرُ القافلةُ، وتمرُّ أمام عينيك المشاهدُ، والقرى، والجبال، والوديان شاحبة يغلِّفُها ضبابٌ كثيفٌ. ذات أصيل خريفي تنيخُ القافلة جِمَالها في

مدينة واسط التي تبعدُ عن بغداد ثلاثين فرسخًا. يجدُ أبوك الكثيرَ من الأصدقاء والمعارف، فيدبرون له أمر إقامته وعمله. قلبك يهفو إلى بغداد وأنت في واسط. تقولُ لنفسك إنَّك سوف تتسلَّح بالعلم قبل الدخول إلى هذه المدينة العظيمة. لن تدخلها خاليَ الوفاضِ. العلمُ سيكونُ سلاحك. يقولُ لَكَ أبوكَ ذات مساء: سأدخلك مدرسةَ القرَّاء في واسط. تفرحُ كثيرًا. لقد بلغتَ من عمرك الثامنة. في صباح اليوم التالي، تسيرُ مع أبيك إلى مدرسة القرَّاء. يلتقي أبوك بالمسؤول عنها. كان مؤسسها يحيى بن آدم الصلحيّ قد عهد بها إلى القاضي أبي بكر بن شعيب الصريفيني. تلتقي به. رجلٌ لطيفُ المعشرِ، طويلُ القامةِ، محدودبُ الظهرِ، طويلُ اللحيةِ، طلقُ المحيَّا. يستقبلك بابتسامةٍ، ثمَّ يدخلك إلى إحدى الحجرات. كانت ممتلئةً بالأولادِ منهم في مثلِ سنِّكَ، ومنهم مَن يفوقونك عمرًا. تتَّخذُ مجلسك. يأتي الشيخُ أبو بكر بن شعيب الصريفيني. يقرأُ بعض آيات القرآن الكريم، ويطلب من الصبيان الترديدَ وراءه. يردِّدون ما يُقال لهم، وتردِّدُ معهم. تشعرُ بالسعادة. هذا هو مكانك الحقيقيّ. تدركُ تمامًا أنَّك لا تنتمي إلى بلاد فارس إلاَّ بمكان الولادة. تعلمُ أنَّك عربيُّ الهوى واللسان. تنسلخُ من أرومتك لأنَّها لا تشكِّلُ لك شيئًا البتة. هذه هي لغتك، وهذه هي حياتك الحقيقيَّة. يأتي أبوك في آخر النهار ويصحبكَ إلى البيت. كان بيتكم يطلُّ على دير حزقيال الواقعة في طرف واسط. تذكِّرك الدير بقلعة أسفيد في البيضاء. شتَّان بين المكانين. هناك عزلةٌ ضاريةٌ، وهنا العلمُ والمعرفةُ. تشعر بالسعادة. في المساء، تستمع إلى أبيك يحكي لأمّك أنَّهم قد تأخَّروا كثيرًا في المجيء إلى هذا المكان.

اتّسع باب الرزق هنا، والحياةُ تسيرُ إلى رغدٍ، ودعةٍ، وراحةٍ. لمْ يعدْ الطيف يزورك يطلب منك الرحيل، ويسألك لماذا ما زلت هنا؟ تنامُ قريرَ العين حتّى يحين موعد الذهاب إلى مدرسة القرّاء في صباح الغد. في الأيّام اللاحقة، أصبحت تذهبُ وتعودُ وحدك. معلّمك أبو بكر الصريفيني يشيدُ بك دومًا أمام أبيك وأمام أترابك. تحفظُ القرآنَ سريعًا. تحفظه وتجوّده في خمس سنوات. تتقنه قراءةً وتجويدًا. يشعرُ معلّمك بالسعادة، وتشعرُ ربما أنت، للمرّة الأولى، بالسعادة. تحفظُ القرآنَ كاملاً بقراءة عاصم بن الأغلب، فتحوز قصبَ السبق، وتبزّ أقرانك. ترى المعلّم يقول لأبيك ذات يوم: "سيكون لولدك المبارك هذا شأنٌ كبيرٌ".

يفرحُ أبوك بكَ. يشعرُ بالرضا نحوك. يقبّلك بين جبينك. يلمسُ على شعرك يشدّه قليلاً. ترفع رأسك نحوه في زهوٍ، فتجد دموعه تنحدر فوق خديه. تضطربُ روحك قليلاً. تنكس برأسك حياءً، ولكنّك رغم ذلك تشعرُ بالفخر. تحتضنُ أباك فيضمّكَ إلى صدره حتّى تكاد تحسُّ بنبض قلبه. يمسك بيدك اليمنى. تذهبان إلى البيت. يولمُ أبوك وليمةً كبيرةً يدعو لها أصدقاءه، ومعلّمك الشيخ أبا بكر الصريفيني. بعد انقضاء الوليمة يزورك في الليلة نفسها الطيفُ بعد مضي ست سنوات. يقولُ لكَ بتصميم: "لمْ يعدْ لكَ من مكانٍ هنا. ارحل!".

- "إلى أين؟".
- "إلى تستر؟"
- "ولماذا إلى تستر؟".

- "ستذهب إلى معلّمك الجديد".
- "ومَن هو معلّمي الجديد؟"
- "سهل التستري".

لم يكن الاسمُ غريبًا عليك. لقد سمعتَ عنه الكثير من أبيك، ومن معلّمك أبي بكر الصريفيني. يطلقون عليه أسماء كثيرة فهو: العالِمُ، والزَّاهدُ، والحَبْرُ، والثَبتُ، و....

عمرك الآن ستة عشر عامًا. ذات صباح تخبر أباك برغبتك في السفر إلى تستر. يبتسمُ في وجهك برقّة ثمّ يقولُ لكَ: "لقد أصبحت رجلاً حافظًا كتاب الله، وما من سبيل للوقوف في وجه رغبتك".

تشعرُ بالحبِّ نحو هذا الرجل - أبيك - وتعرف أنّك تحبُّه من كلِّ جوانحك، ولكن لا بدّ من الرحيل. تبحثُ عن قافلة ذاهبة إلى تستر. تجد الكثير من القوافل. فالطريقُ سالكٌ وممتلئٌ بالقوافل الذاهبة والآيبة من كل مكان وإليها. ترحل. ذاتَ صباح تودّع أمّكَ، وأباكَ، وترحل إلى تستر. ترحلُ وفي قلبك غصّةٌ لكونك لمْ تزرْ بغداد طوال سنوات إقامتك في واسط القريبة منها. تعود إلى أرض الجذور مرّةً أُخرَى. تعودُ إليها بعد ست سنوات من الغياب. القافلةُ تستعد للرحيل، وتستعد، أنت. تركب دابتك ثمّ تتّجه إلى الشرقِ مرّةً أُخرَى، إلى تستر، وإلى معلّمك الجديد: سهل التستري...

تُستَرُ

في طريقك نحو تستر وأثناء مرورك بالبصرة وأهوارها، يلفتُ نظرك خلقٌ كثيرٌ يتجمَّعون من كلِّ مكان في جماعات كثيرة. المساحات الواسعة غاصَّة بالنَّاس. كانوا يرتدون أسمالاً وقد دبغت الشمس جلودهم. رجال مدجَّجون بالسلاح والعتاد. تسأل فيُقال لك إنهم الزنجُ...

تهزُّ رأسك. سمعت أباك وحتَّى أستاذك أبو بكر الصريفيني يتحدَّثون عن هؤلاء القوم. كانوا غاضبين من الخليفة. يقولون إن ظلمًا عظيمًا قد وقع عليهم. كانوا خلقًا كثيرًا جاؤوا من كلِّ فجاجِ الأرض، يغلبُ عليهم سوادُ اللون ليعملوا بالسخرة في أهوار البصرة وأرضها الطينية المشبعة بالماء والملح عبيدًا تحت حكم أسياد ظالمين. تلمح في نظراتهم عزمًا لا يلين. رجال موتورون. كلماتهم قاسية وأفعالهم تتَّسم بالحدَّة والقسوة. قبل ثلاث سنوات سمعت عن مجازر كثيرة حدثت من البصرة شمالاً حتَّى المختارة جنوبًا. في واسط، كانت تصلكم أخبارٌ متواترةٌ عمَّا يحدث في البصرة وأهوارها. تسأل نفسك والحيرةُ تعبثُ بك: أيفعلُ الظلمُ بالنَّاس

هكذا؟ يجعلهم قساةً غلاظَ القلوب، يحرِّكهم الحقدُ والكُره. تتشاءم من رؤيتهم. لا يعجبك كلامهم، ولا منطقهم. سمعت القاضي أبا بكر الصريفيني يقولُ لأبيك ذاتَ يوم: "جمعهم رجلٌ ادَّعى أنَّه من بيت النبوّة كذبًا وبهتانًا ليستميلَ عقولَ وقلوب البسطاء والفقراء. ما يطالبُ به هؤلاء المغبونون حقٌّ مشروعٌ، ولكن مَن يريدون الحكم تبنُّوا قضيتهم ليس دفاعًا عنها، ولكن لمطامعهم الخفيَّة المتطلِّعة إلى الحكم والسلطان".

يقولُ معلِّمك بحزنٍ ظاهرٍ: "إذا أردتَ أن يطيعكَ النَّاس، فانتسبْ إلى بيتِ رسولِ الله، وارفعْ رايةَ الجهادِ وغلِّفها بالظلم، وستجد حولك الكثير. قائدهم هذا يُدعى بهروز. عاش مدةً طويلةً في سامراء. رجل نكرة قيل أنَّه كان شاعرًا مغمورًا في بلاط الخليفة. يلقي قصائده وأشعاره، فلم يلتفت إليه أحدٌ. بدَّل اسمه إلى محمد بن علي، وجمع الجموع من حوله. كان خطيبًا مفوَّهًا، وداهيةً، وذا مراسٍ شديد".

في ظاهر البصرة، أوقف رجالٌ مسلحون قافلتكم. طلبوا بكلِّ وضوح من قائدها مكوسًا ليسمحوا له بالمرور. يعطيهم المتصرِّف على القافلة ما أرادوا، وتغادرُ القافلةُ بسلام إلى تستر. تبدو لك الأمور أنَّها سوف تزدادُ سوءًا في مقبل الأيَّام. لم يخبْ حدسك؛ مع توالي الليالي زادت الأحوالُ سوءًا على سوءٍ. تسيرُ القافلةُ المحمَّلةُ بالحبوبِ والجلودِ إلى الشرق. تعبر الأراضي السبخة بصعوبة. بعد أيَّام طويلة من المسير الذي تخلَّلته الوقفاتُ الكثيرة للبيع والمقايضة، تلمحُ نهر المسرقان تلمع مياهه تحت وهج الشمس. من ورائه تلوح تستر وادعةً تحت ندف من السحب الناصعة البياض معلَّقة في

الأفق الشرقي البعيد. قِيل لك أنَّ في هذه المدينة تُجهّز كسوة الكعبة المشرّفة لتميّز أهلها المشهود لهم بجودة حياكة الأقمشة. مهارة حائكيها ونسيجها الفاخر كانا معروفين في كل الأنحاء. تقترب من أسوارها الحصينة. تسمع خرير ماء نهر المسرقان العابر بين أنفاق المياه في جبالها الصخريَّة. تلمحُ بساتينها الخضراء المملوءة بأشجار الليمون والبرتقال. تداعبُ أنفك روائحُ ناعمةٌ. تنيخُ القافلةُ داخل المدينة بالقرب من النهر. تشعرُ بالتعب. تتَّجهُ إلى إحدى الخانات. تكتري حجرةً. تلقي متاعك البسيط على الأرض، ثمّ تغطُّ في سباتٍ عميقٍ.

قبيل الفجر تصحو. لا زالت المدينةُ نائمةً. صوتُ الماء المندفع عبر أنفاق المياه يزدادُ وضوحًا في هدأة الفجر. تفكرُ كيف تلتقي بمعلّمك الجديد. ستذهب إلى رباطه الذي خصَّصه لمريديه وتلاميذه. يشقُّ الأذان سكينة المكان الهاجعة في النوم داعيًا لصلاة الفجر. تتلَّمس طريقك نحو الجامع. تجعلُ صوت المؤذّن دليلك. تصل إلى الجامع. تؤدِّي الصلاة وتخرج. تعود إلى الخان. تنتظرُ انبلاج نور الصباح. نسمة هواء عليلة ناعمة قادمة من ناحية الشرق تداعبُ صباحك الأوَّل الرائق في تستر. تخرج من الخان. طفقت تسأل عن مكان سهل التستري. الجميعُ يعرفون مكانه. تتَّجه بالوصف إلى حيث يكون. تجدُ المكانَ بسهولة، وبلا أدنى صعوبة: دارٌ ضخمةٌ تتوسَّط بستانًا زاهيًا، دارٌ تحفُّ بها الأشجار من كلِّ مكانٍ. تقتربُ من البيت. تتناهى إلى مسامعك أصواتٌ مختلطةٌ: همهماتٌ تتلو آياتِ القرآنِ. فجأةً يخرج رجلٌ من أحد الأماكن. يقتربُ منك. يسألك مَن

تكون وعن حاجتك. تخبره باسمك وما تريده. يرحِّبُ بك ترحيبًا حارًّا. يمسكُ بيديك، ثمَّ يقودك إلى حجرة واسعة ممتلئة بالمريدين والتلاميذ. حالما يقعُ بصر المريدين عليكما، ينهضونَ، يرحِّبون بالرجل الذي معك. كان هو ذلك الرجل الذي تبحثُ عنه. تعرفُ حينئذ أنَّك برفقة سهل التستري. تلتفتُ نحوه مندهشًا، فيبتسم في وجهك. يطلبُ منك الجلوسَ مع المريدين.

يسألك: "قلت لي إنَّ اسمكَ منصور الحلّاج؟".

- "نعمْ".
- "ومِن أينَ أنتَ قادمٌ؟".
- "من واسط".
- "كم تبلغُ من العمرِ؟".
- "ستة عشر عامًا...".
- "ولماذا تبحث عنِّي؟".
- "لأكونَ من تلاميذك ومريديك".
- "ومَن دلَّك عليَّ؟".
- "معلِّمي القاضي أبو بكر بن شعيب الصريفيني".

حالما يسمعُ الاسمَ، يفترُّ وجهه عن ابتسامةٍ واسعةٍ. يقولُ لكَ: "إنَّه معلِّمي كمَا هو معلِّمك".

لا تجيب. يبدأ المعلِّم الحديث. يتدفقُ الكلامُ من فيه بسهولة ويسر. في نهاية الدرس، يسألك عن مكان إقامتك. تخبره بمكانك. يخبرك بأنَّه قد خصَّص إلى جانب بيته رباطًا يقيمُ فيه تلاميذُه ومريدُوه. يطلبُ منك الإسراعَ بالعودة إلى هنا إلى أن يجهز مكانكَ بين أقرانك.

جنودُ الصفَارِين

تذهبُ إلى الخانِ، وتعودُ بمتاعك القليل. يأخذ بيدك، ثمَّ تعبران رواقًا متَّسعًا في نهايته صفَّان من الحجرات المتقابلة الممتلئة بالتلاميذ والمريدين. في الحجرة ما قبل الأخيرة، يتوقَّف. يطرقُ الباب، يفتحُ له صبيٌّ صغيرٌ لمْ يطرّ شاربه بعد على وجهه. يطلبُ منك الدخول فتدخل. تشاركُ أربعةٌ من المريدين الحجرة. تضعُ متاعك ثمَّ تنتظر إلى ما ستؤول إليه أمورك. تسيرُ في دروسك إلى أفضل حال. الأيَّام تكرُّ وتتوالى. يوشك عامك الثاني على الانتهاء من وجودك هنا في تستر. كنتَ تنهلُ فيها من معينِ علم لا ينضب. دائمًا ما تسمعُ معلِّمك سهل التستري يقول إنَّه أخذ العلمَ من معلِّمه الحقيقي "ذو النون المصري". كان قد التقى به في مكَّة ذاتَ حجٍّ. لزمه وتتلمذ على يديه، ثمَّ لحقه إلى مصرَ، فلبث فيها وقتًا يسيرًا ليتزوَّد منه العلم. كان يتحدَّث عنه بتأثُّرٍ بالغ. تصلك أخبارٌ حزينةٌ من واسط بموت أبيك. لم تتحمَّل أمُّكَ موته، فلحقت به خلال أشهر قليلة. تشعرُ بالحزن يجتاحك. كنتَ تتمنَّى أنْ تكونَ بجانب والديك أثناء انتقالهما إلى خالقهما. يواسيك رفقاؤك في الرباط ويشاركونك أحزانك بصدق وعفويّة. معلمك سهل التستري

يواسيك بكلمات فرّجت القليل من همّك. لا شيءَ يدومُ على حال واحد. تنغمسُ في الدرس وتحاول غمر أحزانك بالاستزادة من معلمك سهل التستري. في الحلقة، يتمُّ النقاش بين سهل ومريديه. طلابُ علمٍ نابهون من أقرانك مثل: البربهاري، وأبي محمد الجريري، وعمر بن واصل الأنباري. تتشرَّب ما يعلّمك به معلّمك سهل التستري. تتعلّم الوضوء الصحيح قبل الصلاة. تتعلّم إنكار الذات في سبيل الحبِّ الإلهي. يقولُ لكم معلّمكم إنَّه استفاد في علمه من زهّاد البصرة. كان يقول لكم إن التخلّي الكاملِ عن هوى النفس هو السبيل الوحيد لتنقية علاقة العبد مع الخالق. يقولُ لكم أكثروا من الصيام، فإنَّه من أسمَى ما يقدّمه العبدُ من القُربات، ومن أجلِّ العبادات التي تهذّبُ النفسَ. يقولُ إنَّ الصوم يروِّض شهوات العبد، فيخلو قلبه للعبادة. كان يصلّي في اليوم أربعمئة ركعةٍ يناجي فيها ربَّه. كان يقولُ لكم إن آيات القرآن هي المرجع الأساسي للفهم، وإنَّ الاقتداءَ بسنَّة رسول الله محمد – صلى الله عليه وسلم – وتجنُّبَ الآثام، والتوبةَ الصادقةَ، وأداءَ حقوقِ العبادِ على أكمل وجه، وكفَّ الأذى، من كمالِ الإنسان المؤمن. كان يقولُ إذا فعلَ العبدُ ذلك، ارتاحتْ نفسه وطهرها من ربقة الذنوب. أيّامٌ تمرُّ وأنت في جوعِ مَن يطلبُ الاستزادة. تتخلّى عن أمور لَمْ تكنْ يومًا ما تفكّر مجرَّدَ تفكير في التخلّي عنها. هنا تخفّفت ذاتُك من بعض أحمالها. تشعرُ بنقاء داخلي يريحك. لكن لا شيءَ يدوم على حالٍ. فمنذُ أيّام قلائل امتلأت المدينة بالجنود. جنودٌ يُطلَقُ عليهم "الصفّارين"، وهم يتبعون صاحب الزنج. آلوا على أنفسهم ألا يضعوا سيوفهم حتَّى يتحقّقَ العدلُ. ملؤوا الساحات، والأسواق، والدروب، والجوامع،

وشعاب الجبال. بدأت شرورُ الفتنة تمتد. كان كلُّ ما يرمي إليه الجنودُ الذين اجتاحوا تستر هو القبض على الموالين للخليفة في بغداد. تضعُ يدك على قلبك. تتذكَّرُ قول أستاذك عن وجوبِ طاعةِ ولاةِ الأمرِ. كنتَ تسمعُ دعاءه لهم في صلواته. لنْ يخلو الأمرُ من واشٍ أو منتفعٍ. تمرُّ الأيّام بطيئةً. يتحقّقُ ما كنت تخشاه. تذهب في يوم إلى بيت معلّمك. تلمحُ جنودًا واقفين أمام البيت. تتوارى خلف أشجار البستان تنظر إليهم. يمرُّ وقتٌ طويلٌ ولا ترى شيئًا ذا بالٍ. تغادر مكانك حزينًا آسفًا. تصلك الأخبارُ أنّهم قد أمسكوا معلّمك سهل التستري بسببِ ولائه للخليفة في بغداد، وإعلانه هذا الولاء على رؤوس الأشهاد. يختلُّ نظامُ الرباط. توقّفت الدروس. لمْ تعدْ تذهب لا أنت ولا أقرانك إلى هناك بعد أن أقفله جنودُ الصفارين. استولوا على البستان والرباط، وحوّلوهما إلى مقر دائم لهم. تعودُ إلى السكنى في الخان. ترجعُ بك الذّكرى إلى الوراء عندما جئتَ إلى هنا. تشعرُ أنَّ الدنيا قد مُلئت ظلمًا جورًا. أصبح قلبك مثقلاً بالحزن. تضيعُ خطواتك في المدينة. تلجمُ الحيرةُ لسانك. تسقّط أخبارُ أستاذك ومعلّمك. تلتقي مصادفة أحد أقرانك في الدّرس. يخبرك والحزن يرتسمُ على ملامح وجهه: "لقدْ نفوه...".

- "إلى أين؟".
- "البصرة".

يضيقُ صدرك ممّا تسمعه. تمرُّ الأيّام مترهلةً. أصبحت الدنيا ضيّقةً مثل ثقب إبرة. تشعرُ بالمدينة تخنق أنفاسك. تدرك أنّه لا سبيلَ إلى البقاء هنا. تقرّرُ في نفسك أنْ ترحلَ. ترحل إلى أين؟ تسألُ نفسكَ فيأتيك الجوابُ منك بلا مواربةٍ: "إلى البصرة...".

أبو عَمرُو المَكيّ

لا تعرفُ لماذا أصبحت مسكونًا بهاجسِ الرحيلِ.

طريقُ العودةِ إلى البصرة لَمْ يكنْ كطريق الخروج منها. شرورُ الحربِ تستعرُ ويذكيها أطماعُ البشر. تلقى في طريقك جموعًا محتشدةً، وجوههم جامدةٌ، نظراتهم غائمةٌ. إنَّهم جنودُ الزنج الذين لا يزالون ينشدُون حلم العدل المفقود. تأخذُ وقتًا أطول في عودتك. الطريقُ لَمْ يعدْ آمنًا. تكثر حوادثُ السلب والنهب والقتل لمجرَّد القتل. الفتنةُ دائمًا عمياء، وأصبح لها كيانٌ بارزٌ للعيان، وله صوتٌ عالٍ. مع ذلك تصل إلى البصرة بسلام. تتذكَّر كلام معلِّمك سهل التستري عندما قالَ لك ذات يوم: "إذا قادتك خطواتُك ذات يوم إلى البصرة، فلا يفوتك أنْ تلتحقَ بسيِّد الزُّهادِ العُبَّادِ: أبي عمرو المكي".

تسألُ عن أبي عمرو المكي في البصرة. يدلُّك النَّاسُ على بيته في حي المرباد. تقودك خطواتك إلى هناك. تجدُ أبا عمرو المكي في مسجد الأمير الواقع في خمسِ الخريبة، المسجد الذي كان الإمام الجليل الحسن البصري يصلِّي فيه. تسألُ رجلاً بصوتٍ هامسٍ

عن أبي عمرو المكيّ. يشير إليه بيده. تقودك خطواتك إليه. تراه في جمع من المريدين يلقي عليهم الدَّرس. صوته عميقٌ كأنَّه قادمٌ من بئر بعيدة الغور. تقترب من تلاميذه. تجلسُ في آخر صفوف الجالسين تستمعُ للدرسِ. يجذبك حديثه العذب. بعد أن انتهى الدرس، تنهض وتقترب منه. تلقي عليه التحيَّة. يردُّ تحيّتك بأحسن منها. يسألك مَن تكون. لا تدري لماذا تخبره بحكاياتك بحذافيرها. كان يصيخُ السمعَ لك وحدك. رجل بمثل هذه المكانة العلميَّة وهذه القامة الفقهيَّة السامقة يستمع لك دون أن يقاطعك. كان له وقعٌ حسنٌ في نفسك. تشعر بنفوذه الغريب على عقلك وقلبك. نظراته الآمنة المطمئنة تصل إلى سويداء قلبك. تنقاد له بسهولة. ترتاحُ لرؤية وجهه الهادئ القسمات، ولروحه السهلة الخفيفة. تشعرُ بالطمأنينة. تلبثان تتحدَّثان وقتًا لا بأس به. تنهضان وتخرجان من المسجد. تتناولان الغداء معًا. بعد صلاة العصر يسعى في إيجاد بيتٍ يؤويك. يجد بيتًا مناسبًا في حي الزيادين: منزلٌ صغيرٌ ولكنَّه مناسبٌ للسكنى. هناك عرفت التصوُّف على أصوله الحقيقيَّة. كان أبو عمرو المكيُّ مسؤولاً عن تنظيم القوافل. يحصي عدد أفرادها، ويعرف حمولاتها، واتِّجاهاتها ويعيِّن متصرِّفيها. يستدعيك أبو عمرو المكيّ ذات يوم. يلاحظ طول شاربيك، يقصُّهما لك. يلبسك "الجُبَّة"، جبَّة الصوفِ، ويقولُ لكَ وهو ينظر في عينيك مباشرةً: "ستكونُ لكَ حياةٌ جديدةٌ منذ الآن".

تسألُه منبهرًا بكلماته: "أيّ حياةٍ يا سيِّدي؟".

- "حياة لها من الأعماقِ والأسرارِ ما لا يُدرَك غوره".

- "وما الطريقُ إلى ذاك يا سيِّدي؟".
- "أتجد في نفسِكَ هوى لذلك؟".
- "نعمْ".
- "إذا كان في قلبكَ مثقالُ ذرَّةٍ من إيمانٍ وطُهرٍ فتستجد الطريق...".
- "زِدني يا سيِّدي".
- "النورُ ينبعُ من داخلك، فاتبعه...".
- "زِدني يا سيِّدي".
- "ابحثْ عن الحقِّ، وكافح سُبلَ الضلال...".
- "زِدني يا سيِّدي".
- "يجبُ أنْ تعرفَ أنَّ اللهَ بين الأضدادِ حقٌّ يرى...".
- "زِدني يا سيِّدي".
- "تخفَّف من كلِّ الأثقال...".
- "زِدني يا سيِّدي".
- "تخفَّف من الأثقالِ وستجد لكلِّ سؤالٍ خبرًا...".
- "زِدني يا سيِّدي".
- "اعرضْ قلبك على الخالقِ الواحد الأحد، وستجد الجواب".
- "زِدني يا سيِّدي".
- "قلبُك سيهديكَ الطريقَ...".
- "هلْ أعتزلُ النَّاس؟".
- "لا. هناك فرقٌ شاسعٌ بين التصوّف والرهبانيَّة. لا رهبانيَّة في

الإسلام. قال رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلم: والله إنّي لأَخشاكُم لله، وأتقَاكُم لَهُ، لكنّني أصومُ وأفطرُ، وأُصلّي وأرقدُ، وأتزوَّجُ النساءَ، فمَنْ رغبَ عنْ سُنَّتِي فليسَ منّي".

سكتَ عن الكلام ثمَّ تنهَّد ملءَ صدره وقال بشرودٍ: "إنَّها المحبَّةُ ولا شيءَ غيرها".

إلى مَكّة

يخرجُ أبو عمرو المكيّ من البيت، فتجد نفسك في دوّامة الأفكار. عقلك مشغولٌ بالأسئلة التي لا تجدُ جوابًا شافيًا لها. يقولُ لكَ تخفّف من الأثقال وستجد الجواب. تسأل نفسك: أيّ أثقال هذه؟

لوهلةٍ تدركُ أنّها كلمات تأتي من فيوض العارفين. كلمات تمسُّ ذاتك برفقٍ. أيّامك في البصرة تسير بيسرٍ وسهولةٍ. تتراوحُ خطواتك بين بيتك، وحلقة أبي عمرو المكيّ. تجده عالمًا جهبذًا لا يُشقّ له غبار. يزوره رجلٌ من بغداد يُقال له "الجنيد". رجل يطلقُ عليه علماءُ البصرة "طاووس الزُّهادِ". تعرف لاحقًا أنّه قادمٌ من نهاوند. ملامحه الغريبة تكشف أصوله. كان من نفس أرومتك. تشتركان في مكان النشأة الأولى فقط. كانَ أخضرَ العينين، أشقرَ الشعرِ، ولحيته الصهباء تصلُ حتّى سرّته. كان يعملُ بائعًا للقوارير. ترى في معيّته رجلاً سبق أنْ التقيته. إنّه أحد أصدقائك ورفقائك الذين كنتَ برفقتهم في تستر. كان يُدعى أبو محمد الجريري. تعرفه ويعرفك من الفور. كنتما معًا في حجرةٍ واحدة في رباط سهل التستري. تقارب أيّامك في البصرة العامين. تهفو نفسك إلى الحجّ. تريدُ زيارة بيت الله لعلّك تجد

الجواب الذي يشغل عقلك وروحك. تقولُ لنفسك إذا لم يتخفَّف الإنسان من الأثقال في بيت الله، فأينَ سيتخفَّف في غيره من الأماكن. تخبر أستاذك أبا عمرو المكيّ برغبتك في الحجّ. تبرق عيناهُ من الفرح، يقولُ لكَ: "عينُ الصوابِ ما ستفعله".

في إحدى قوافل الحجّ، ترحل إلى مكّة. تسبقك أشواقُك إلى مهوى الأفئدة. ترحلُ مع تباشير الفجر. تمرُّ أيّام طويلة وعقلك شاردٌ. مع التقدُّم في الطريق تجد نفسك خفيفَ الرُّوحِ والجسدِ. حجمُ القافلة وظعونها كان يتزايدُ يومًا وراء يومٍ بمَن يريدُ الحجَّ من المسلمين من مختلف الأماكن. يزدادُ الطريق صُعوبةً ووحشةً، ومع ذلك لا تشعر بما يدور حولك. عقلك محتشدٌ بالأفكار، وقلبك مترعٌ بالصبوات. في الصحراء الواسعة، تجد نفسك خفيفًا. لم يكن يهمّك احتدام حرارة الشمس، ولا الصحراء بلونها الأمغر الشاحب. تستكين روحك في الخلاء الصامت. لا شيءَ هنا سوى السكون. متاهات فضفاضة من الرّمال. عزلة لو خيّروك بين العيش في قصر منيف، وبين المكوث هنا، لاخترت البقاء عن طيب خاطر، لكنّه النداء يصمُّ أذنيك، نداءُ الرّوحِ نحو الانعتاق. تتوقُ روحك إلى الخلاصِ والملاذِ والطمأنينة. تصعدُ الجبالَ مُهلّلاً وتهبطُ الأودية مُسبّحًا. تدورُ ببصرك في وجوه الحجّاج: معترفون بذنوبهم، ووجوههم معفّرة بالتراب، وقلوبهم راضيةٌ. أنينهم لا يكاد يُسمع، ورهبتهم في ما هم مقبلون عليه لا تنقضي. يتحمّلون المشاقّ في سبيل اللقاء: لقاء الرحمن الرحيم. حلم الخلاص لا يزال متّقدًا داخلك. تقتربُ القافلةُ من مكّة ذات مساء. تلمح جبالها الشهيرة

المغمورة بالضياء تحيط بها، وتطل عليها بزهوٍ وجبروت. فوقها تلمعُ نجوم ساطعة. تتصاعد أصواتٌ داخلك، أصواتٌ منسجمة ورائقة. تتلاشى منك لحظات التردُّد وغياب اليقين. رغبتك الجيَّاشة في المناجاة تتصاعد. العشقُ وهَيامُ المحبين لله الواحد الأحد شفًّا جسدك. اختفى سرابُ الصحارى الخادع. لمْ يعدْ هناك من شِراك أو كمائن تعيق تقدُّمك. ترى نورَ مشاعل مرتجفة تزيل كتل الظلام. تسأل نفسك ربَّما يكون هنا خلاصك أو فناء ذاتك. وجدٌ ثاوٍ يفصح عن نفسه داخلك، وجدٌ مسرف في عنفوانه. تدخل مكّة وشذرات من الأفكار المتصارعة تدورُ في رأسك. تنسى مَواطن الألَمَ والتعب في جسدك. تطوفُ بالبيت واجفَ القلب. تشعرُ بضآلتك فتُخبت. يتبقى على بدء الحجِّ الأكبر أيَّام قلائل. في المساء، تذهبُ إلى جبل أبي قبيس الذي يطلُّ على بيت الله المحرَّم. لا تأخذ معك سوى جرَّة صغيرة مملوءة بماء زمزم وبضع تمرات. تصعد الجبل. تتَّخذ مجلسك. تتأمَّل جموع الحجَّاج تطوف بالبيت العتيق. لا تدري كمْ مرّ عليك من الوقت وأنت غارقٌ في التأمُّل. تنتبَّه من غيابك في ملكوت متَّسع لا يحدُّه حدٌّ. تنهض. تعود أدراجك. تتَّخذ مجلسك بين الركن والمقام. تصلِّي عشرات النوافل. تحدِّث نفسك أن تبقى هنا أبد الدهر. تمضي الأيَّام كلمح البصر. في يوم عرفة، تقفُ على جبل الرحمة تناجي ربك. يرتعش قلبك عشقًا. تبكي رغمًا عنك. تبلّل لحيتك بالدموع. إنَّها ساعات النفحات والرحمة الإلهية. يهتزُّ قلبك ويصبح أكثر جموحًا. تتذكَّر كلام معلِّمك أبي عمرو المكيّ: تخفَّف من أثقالك. تعرِّف الآن حقًا ما يعنيه بقوله ذاك في هذا المكان

المبارك. تستمع إلى هدير أصوات الحجيج: "لبَّيكَ اللَّهمَّ لبَّيك، لبَّيكَ لاَ شريكَ لكَ لبَّيك، إنَّ الحمدَ والنعمةَ لكَ والمُلك، لاَ شريكَ لك". أيّ شيء أعظم من هذه الكلمات الموجزة البليغة اللاهجة بذكر الله، وأيّ شيءٍ أعظم من هذا المنظر الذي ترتعشُ له الأفئدةُ. القلوبُ موحَّدةٌ، والثيابُ موحَّدةٌ، والمشاعرُ موحَّدةٌ. أيّ تناغم هذا الذي تراه بعينيك ويتشرَّبه قلبك كما تتشرّب الرمال ماء المطر بعد طول انتظار. تتوحَّد أشلاء ذاتك. تؤدِّي مناسكك. يحول عليك الحولُ وأنت هنا. أيَّامك حنينٌ متواصلٌ. بكاؤك صامتٌ وممضٌّ. هنا تعرف الحدود والفواصل بين الزيف والصدق، بين الخير والشَّرّ، بين الهدى والضلال، بين الحقيقة والوهم. يأتيك صوتٌ رخيمٌ كثيفٌ لقارئٍ يقرأُ القرآنَ بجانب الكعبة المشرَّفة. تبكي فتمتلئُ جوانحك دفئًا وسعادةً. قلبك مشحونٌ بمشاعرَ هادرةٍ. تُبيِّت النيّة على العودة مرَّةً أُخْرَى إلى هنا. تتناقص أيَّام المكوث في بيت الله. الأيَّام تتناسل بسرعة، ثمَّ تذوب في فراغ هائل. القافلة تستعد للعودة. تحمل متاعك القليل وتعود إلى البصرة. تدرك تمامًا أنَّ حالك في أوبتك لن تكون في مثل ذهابك. تسلخ جسدك وروحك القديمة وتودعها للأبد. تعود إلى البصرة والحنين يتجاذبك إلى بيت الله المعظم. تعود إلى البصرة، وحينما تصلها، تتمنَّى أنَّك لَمْ تعدْ إلى هنا مرَّةً أُخْرَى!

"أيُّ خشبةٍ ستفسدُهَا"

تدخلُ القافلةُ البصرةَ ليلاً. تنفصلُ عنها. تستخرجُ متاعك القليل وتغادرها. يكتنفك حزنٌ لا تعرف كنهه. تجوبُ بخطواتك في دروب البصرة وأحيائها بعد غياب استمرَّ حول العام. تدخلُ في طرقاتها الضيِّقة التي فاضت بأحزانها بسبب الحروب التي عصفت بها. تشعرُ أنَّ الزمنَ تغيَّر وفقدَ كلُّ شيءٍ قيمتَه. تذهب إلى بيتك في حي الزيادين. تشعرُ بالتعب يدبُّ في جسدك. تأخذُ قسطًا من الراحة. بعد يومين تلتقي بمعلِّمك أبي عمرو المكي. يهبُّ على قدميه حال رؤيتك. يحتضنك. يهنِّئك بأداء النُسك. يقول لك فرِحًا: "ها أنتَ قد أكملتَ أركانَ إيمانك. لكن بقي شيءٌ واحدٌ".

تسأله: "وما ذاك؟".

- "النكاح...".

تنتبه حواسُّك. تهزُّك الكلمة التي قالها أستاذك. تسأل نفسك: هل مَن هُم مثلي يتزوَّجون النساءَ وينجبون الأولادَ والبنات؟

تجيب نفسك بنفسك: ولِمَ لا؟ كلُّ معلِّميك لهم زوجاتٌ وذريَّة. لم يمنعهم زهدهم، وصوفيتهم، وتقشُّفهم، عن الزواج وإنجاب البنين

والبنات. تسأل نفسك: مَن هي الزَّوجة التي تناسبك. تؤجّل الأمر إلى وقته المناسب. لكن الأقدار لا تتركُ لكَ الخيار. أنتَ تسيرُ – بمشيئة الله – مثلك مثل جميع خلقه. لمعلِّمك ندماءُ كثر يلتقي معهم. كان أبو يعقوب الأكتع البصري أحدهم. تلتقي به كثيرًا برفقة أستاذك أبي عمرو المكيّ. تزدادُ أواصر المحبَّة بينك وبين أبي يعقوب الأكتع البصري. كان يخصُّك بمحبته، ويعلنها دومًا على الملأ. المتحابُّون في الله يكونون يومَ القيامة تحت ظلِّ العرش يومَ لاَ ظِّلَ إلاَّ ظلُّه. يقول لكَ إنَّ صلاحك وتقواك وزهدك يروق له. تشعرُ بالودِّ نحوه. بعد تردّد في الإفصاح عمَّا يدور في نفسك. تبثُّه رغبتك في الزواج. يبتسم. يقولُ لكَ: "لنْ أجدَ زوجًا لابنتي الصغرى، أم الحسين، خيرًا منك".

تصمتُ خجلاً ولا تردُّ. لا يتركك في صمتك. يسألك: "ما رأيك؟".

تخبره باستحياء أنَّك لنْ تجدَ صِهرًا مثله. تمضي خَجِلاً إلى معلِّمك أبي عمرو المكيّ. تخبره برغبتك في الزَّواج. يفرح كثيرًا لقرارك. يسألك مَن اخترت لتكون زوجة لك. تخبره بما دار بينك وبين نديمه أبي يعقوب الأكتع البصري. يتلوّن وجهه فجأةً. يغضبُ وتنتفخُ أوداجه. يطردك من بيته. تتعجَّبُ من فعله. يصيبك الحزن. تعيش أيَّاما في دوامة الحيرة. تسأل نفسك لماذا تحوَّل معلِّمك عليك. لا يطول اندهاشك طويلاً. تعرف بطريقة ما أن معلِّمك أبا عمرو المكيّ كان يريد أم الحسين لنفسه زوجةً. يريدها أن تكونَ ثالث زوجاته. تحاول مرارًا أن تلتقي بمعلِّمك أبي عمرو المكيّ

ولكنّه يرفض لقاءك. يوصد بابه دونك. تغيّر قلبه عليك. لمْ يعدْ يطيقك. يزداد كل يوم صلفًا وغرورًا. لا يرغب في رأب الصدع بينك وبينه. تدعه وقلبك محزون ممّا لقيت منه. تعقد قِرانك على أمّ الحسين فتجد منها ما يسرّك. تستقر أحوالك ويهدأ بالك. زوجٌ حنونٌ وبيتٌ مفعمٌ بالبهجةِ والمودّةِ.

تسوءُ العلاقة بين أبي يعقوب الأكتع، وأبي عمرو المكيّ. تنهار صداقتهما وتتحوّل إلى عداءٍ مستحكم. تشعرُ بالأسى يعتصر قلبك حيال هذه العداوة بين الصديقين القديمين. تنصرفُ بكل طاقتك إلى الوعظِ. كثر أتباعك ومريدوك. يقفون ببابك كل يوم. يتسقّطون أخبارك ويستمعون لكلامك. يسيرون حذوك النعل بالنعل. تزداد أعدادهم. يمتلئُ قلب معلّمك أبي عمرو بن المكيّ بالحقد أكثر. يضايقك. يرسل إليك رسولاً في جنح الظلام يطلب منك أن تطلّقَ زوجتك أم الحسين، وأنْ تغادرَ البصرة في أقرب وقت. ترفضُ الطلاقَ والمغادرةَ. لا يدعك وشأنك. يؤلّبُ بعض جهلاء النّاس عليك. يؤذونك. ترحل إلى بغداد لتشكوه. هذه أوّل مرّة تزورها. تبهرك بحجمها، وكثرة ناسها، وعلمائها، وجوامعها، ووراقيها. بغداد مدينةٌ عظيمةٌ مثقلةٌ بصخب المخلوقات وبالروائح وبالزحام. تذهب إلى الجنيد شاكيًا. يستقبلك بحرارة. تشكو له ما يفعله بك أبو عمرو المكيّ. يسألك عن السبب، فتخبره. يطلب منك الصبر وأنْ تعودَ إلى البصرة حالاً حتّى لا يُفسر وجودك في بغداد خطأ. يقولُ لكَ الجنيد بكلّ وضوح إنّ أخبارًا وصلت ديوان الخليفة بظهور زنديق في البصرة يغوي النّاس ويخرجهم من مِلّتهم. كان كلامه واضحًا.

أنت هذا "الزنديق". تعرف جيّدًا أنَّ أبا عمرو المكيّ وراء كلِّ هذه الضجّة. يقولُ لكَ وجودك في بغداد ضرّه أكبر من نفعه. تناقشه في بعض المسائل التي كانت تشكل خلافًا بينك وبين أبي عمرو المكيّ، تذكر حججك وبراهينك، لكنّه سرعان ما يصيحُ في وجهك متبرمًا: "أيّ خشبة ستفسدُها؟".

يطلبُ منك الصمت. تصمتُ على مضض. هلْ كان يتنبأ بطريقة موتك؟ أنْ تموتَ على خشبةٍ، يعني أنْ تموتَ مصلوبًا كما يموتُ الزنادقةُ والهراطقةُ والمحاربونَ لله ورسوله. يذكر لك الجنيد أنّه لولا أنَّ البلاد مشغولة بقتال الزنج وإخماد فتنتهم، لالتفتوا إليك وكان لهم معك شأنٌ آخرُ. الجنيدُ لا يعطيك جوابًا شافيًا. لعلَّه رأى فيك منافسًا أكثر ممّا رآك شاكيًا. تشعرُ بخيبة الأمل. تعودُ إلى البصرة حائرًا مشوَّشَ الفكرِ.

إلى مكّة مرّةً أُخْرَى

لا تدري ماذا تفعل. يتكاثرُ تابعوك في البصرة. تسمعُ كلامًا منسوبًا إلى أبي عمرو المكيّ فيه أنّ أصهارك من آل الكرنبائي يؤيّدون صاحب الزنج. تشعرُ بالخوف. بدأت الخصومةُ بينك وبينه تتوسّع. تدركُ أنّه بهذه الخطوة يستعدي عليك أصحاب السلطان بنشر الأكاذيب والإشاعات. تسيرُ في دروب البصرة ذات يوم قبيل رحيلك. تسمعُ لغطًا وجلبةً ناحية النهر: حشدٌ من البشر منتشرون على امتداد ضفّتي النهر. تقتربُ من تجمّعات النّاس: حشودٌ هائلةٌ تقفُ هناك. تلمحُ قواربَ كثيرة تسيرُ في النهر، وعددًا هائلاً من الجنودِ تسيرُ بمحاذاة النهر. تقتربُ لترى ما يحدث. تلمحُ في أكبر القوارب رمحًا طويلاً وقد عُلّق في قمته رأسٌ مقطوعٌ. تسألُ رجلاً يقفُ بالقرب منك: رأسُ مَن هذا؟ يقولُ لكَ الرجلُ، دونَ أنْ ينظرَ إليكَ، فقدْ كانَ بصرُه معلّقًا على الرأس المقطوع: "إنّه رأسُ صاحبِ الزنج علي بن محمد العلوي، عليه لعائنُ الله المتّصلة".

قتلوه، وسبوا نساءَه، وأولادَه، وحرقوا المختارة مدينته التي كان يتحصّنُ فيها جنوب البصرة. قتلوا الكثيرَ من أنصاره، وبعضهم

اختاروا الهربَ...

تشعرُ بتغيّر الزمانِ وفساد النّاس. يتكالبون على الدُّنيا. ينهلون منها دونَ خوفٍ من يوم الحساب. هذا المكان لمْ يعدْ ينتمي إليك: دماءٌ وأشلاءٌ مكائدٌ وحروبٌ. طبقاتٌ من ظلامٍ كثيف. تقرّر أنْ تسيحَ في الأرض. ترى السياحة في الأرض والدعوة إلى الله هي الحل الأمثل لك. الترياقُ الحقيقيُّ لروحك القلقة. تعودُ مرّةً أُخْرَى إلى مكّة حاجًّا للمرّة الثانية. تنذرُ نذرًا بينك وبين الله أنْ تلبثَ في مكّة صائمًا لمدّة عام كاملٍ. تنبعثُ الأشواق في قلبك حال وصولك إلى مكّة. تتداخُ في ذاكرتك حجتك الأولى. تتذكّر كلّ تفاصيلها كأنّها حدثت بالأمس. أشواقك لربك تزيد وتتعاظم. لا شيءَ يجعلك راضيًا عن نفسك أكثر من وجودك في بيته المحرّم. تدركُ أنّ المحبّة تزيلُ الحجبَ وتفتحُ أنوارَ البصيرةِ. تطرحُ روحك وقلبك بين يدي الله. تعتمرُ وتحجُّ. تتّخذ مجلسك بين الركن والمقام صائمًا نهارك قائمًا ليلك. لا تبالي بِحَرٍّ ولا قَرٍّ، ولا شمسَ ولا زمهريرَ. يتجمّع النّاس حولك ينشدونك الوعظَ والنصحَ. يسألونك الرفقة والملازمة. ينقضي العامُ سريعًا. النوافلُ والصومُ هذّبتك كثيرًا. تنقضي أيّام نذرك. تعود إلى البصرة. تجد أنّ الأمورَ قد زادت سوءًا على سوء. لا تريدُ أنْ تلوّثَ الأحقادُ قلبك وأنت قادمٌ من بيت الله المعظّم. لا تريد أنْ تخدشَ روحك بأدران البشر. لا تجد حموك وأصهارك في البصرة. قِيل لك أنّهم قدْ فرّوا إلى تستر خوفًا من قتلهم، بعد أن أرسل أبو عمرو المكيّ مكتوبًا إلى دار الخلافة فيه أنّهم من أنصار صاحب الزنج. أشاع أبو عمرو المكيّ في دار الخلافة أنّك زنديقٌ. رحل إلى بغداد

من أجل هذه المهمّة. وجد الكثير من المؤيّدين لكلامه. أوغر صدور القضاة، والعلماء، وأهل السلطان عليك. حين عودتك من مكّة لا تجد أبا عمرو المكيّ في البصرة. كان في بغداد. لا زال يؤلب عليك العامّة والخاصّة في قصور الأمراء. تجد زوجتك بانتظارك. كانت متخفيّة في بيت أحد أبناء أخيها. تنتظرُ إيابك بصبر فارغ. تحثّك على الرحيل إلى تستر لتكون بمأمن إلى جانب أبيها وإخوانها. تحمل زوجتك وتقرّر الرحيل إلى تستر. تقول لنفسك سأمكثُ في تستر حتّى تهدأ النفوس.

ولكنَّ النفوسَ لا تهدأ، بل تزيدُ قتامةً ووحشةً يومًا وراءَ يوم...

سَائِحٌ فِي أَرْضِ اللهِ

تغادرُ البصرةَ إلى تستر. يسيرُ معك في ركابك بعضُ المريدين والتلاميذ. ها أنت تعودُ مرَّةً أُخْرَى إلى تستر. بمجرَّد أنْ تلمحَ بيوتها وبساتينها ونهرها ينتابك الحنينُ إلى أيَّام لا تُنسى مضت. تتذكَّر سنواتك من عمرك المبكِّر هنا. يعنُّ في خاطرك معلِّمك القديم "سهل التستري". تهزُّ رأسك أسىً لما آل إليه أمره. سمعت أنَّه لبث متخفِّيًا في نواحي البصرة حتَّى جاءك خبرُ موته بعد وصولك إلى تستر بأيَّام قلائل. يقرص قلبك شعورٌ هو خليطٌ بين الحزن والحنين نحو أستاذك. تدعو له بالرحمة والمغفرة. لكنَّ الحياةَ تستمر رغمًا عن أنوف البشر. لا يؤثِّر في صيرورتها حزنٌ أو فرحٌ. تكتري بيتًا واسعًا. كان قريبًا من نهر المسرقان. بعد نصف عام من مجيئك إلى تستر، يطلب منك الوالي مسرور البلخي في الأحواز زيارته. تزوره ويطلب منك أن تعظه. يستمع لكلامك بتأثر. تمكثُ في ضيافته أيَّامًا. يسألك ملازمته، ولكنَّك ترفضُ. تعرف أنَّكَ لم تُخلق للبقاء في مكانٍ واحد. لا تحبُّ حياة القصور، والترف، والجاه، والمال. هذه أمورٌ بعيدةٌ عنك كل البُعد، بل تتناقضُ مع ميولك واتِّجاهاتك. فؤادك

وروحك منذورة لله - تعالى - فقط. وفي سبيل ذلك، توهب حتى جسدك للبراري والقفار والأسفار والترحال من مكان إلى مكان. لا تشعر بتعب ولا بنصب. قبل عودتك إلى تستر، يقولُ لكَ إنَّك قد أصبحت وعائلتك تحت حمايته. تشكره على ذلك. تمكثُ عامًا مع زوجتك. تقرِّر أنْ تسيحَ في الأرض. تهجسُ لنفسك أن الحركة أفضل من السكون. ليسَ هناك أفضل من الدعوة إلى الله والسياحة في أرضه الواسعة. في الترحالِ، تبتعدُ نفسك عن زينة الدُّنيا وترهاتها. الهجرة والانتقال من مكان إلى مكان كان ديدن الأنبياء والرسل والمصلحين والحكماء على مَرِّ العصورِ. لمْ يكونوا يلبثون في مكانٍ واحدٍ. كانوا يدركون أنَّ أفضل طريقة لهداية النَّاس لدِين الله الحق هو الرَّحيل والانتقال من مكانٍ إلى مكان آخر للقائهم وجهًا لوجهٍ. يتسامعُ النَّاس بكَ في تستر وما حولها. يتجمّعون عند بابك كل يوم. ينتظرون موعظتك. نفوسهم تهفو إلى كلِّ كلمة وحركة تصدر منك. رغبة الرحيل أكبر من رغبة البقاء في نفسك. تحاول أن تلجمها، ولكنَّك لا تستطيع. حانت لحظةُ الرحيل. تحمل مخلاتك التي فيها القليلُ من الطعام الخشن الجاف وترحل ماشيًا على قدميك. لا تتقيَّد بقافلة أو جماعة. ذلك أفضل لك. تصبحُ حرًّا في حِلِّك أو ترحالك. تقطعُ مساحاتٍ شاسعةً. تمرُّ في طريقك بمدن عامرةٍ وقرى نائية. تلتقي بأناس مِن كلِّ صنفٍ فيهم البرُّ والفاجرُ، المؤمنُ والملحدُ، المهتدِي والضَّالُ. قلبك ومحبتك تتسع للجميع بلا استثناء. تدرك أنَّ المحبة والاحتواء للجميع هو السرُّ الأكبر الذي ينطوي عليه قلبك وروحك، بل هو العلاج الناجع لكلِّ عذابات الروح والجسد. تسير

الهويني. تتوقّف كثيرًا في الخلاءات. تقولُ لنفسك ليس هناك للعابد الزّاهد أفضل من الخلاء حيث تكون المناجاة، حيث يكون البكاء، حيث يكون الدعاء، حيث يكون التسبيح والذِكر بعيدًا عن عيون المتلصّصين والفضوليين. تضيعُ خطواتك في مفازات الصحارى وشعاب الجبال. تهمي الأمطار فوق رأسك وأنت تناجي ربّك. تصلّي، وتصوم، وتتصدّق. تكدُّ وتعمل. لا تقبل صدقات النّاس. تأكلُ من عمل يدك. تسبّح وتستغفر. تبكي وتضحك ولا تزال روحك جائعةً. تريد أن ترى أعماق الأشياء لا ظواهرها. تنكشف لك بعض المجاهيل عن حقائقها البسيطة والمجرّدة. تكون سعيدًا وراضيًا بما يتجلّى لك، وربّما تكون شقيًّا حينما تنكشف لك بعض الأمور على حقائقها. تمضي وحيدًا في طريقك. تمرُّ أيّام لا تذوق فيها طعامًا سوى بعض الشجيرات وقطرات من الماء. تشعر بالاكتفاء والقناعة. صدق رسول الله – صلى الله عليه وسلم – حينما قال: "بحسبِ ابنِ آدم لُقيماتٍ يُقمِنَ صلْبَهُ". تصلُ إلى خراسان. تمكثُ فيها شهورًا ثمّ ترحل إلى مرو وبلخ حتّى ما وراء النهر. تنتقل من رباطٍ إلى رباط، ومن مسجدٍ إلى مسجد، ومن مدينة إلى أخرى. تقضي يومًا أو أيّاما في بعض القرى والدساكر. تجدُ نفوسًا غضّةً نقيّةً لها استعدادٌ لتشرُّب الموعظة. ترحل إلى سجستان، ثمّ تعود إلى البيضاء، ثمّ إلى تستر. ستة أعوام استغرقتها رحلتك. المكاسب الروحيّة عالية. تعملُ بحديث النبيّ – صلى الله عليه وسلم–: "لأنْ يهديَ اللهُ بِكَ رجلاً خيرٌ لَكَ مِن حُمْرِ النعَم". تتسامعُ النّاس بك. يصبحُ اسمك على كلِّ لسان. أنت لا تريد هذا. تريدُ أن تكونَ داعيًا مخبتًا منيبًا إلى ربّك.

لا تريدُ شهرةً ولا صيتًا. يفرحُ بعودتك أحباؤك. تهفو نفسُك إلى حجِّ بيت الله المحرَّم مرَّةً أُخرَى. تقررُ العودةَ إلى الحجِّ. يتسامعُ برغبتك في الحجِّ مريدوك وتلاميذُك. يسيرُ معكَ في ركابك إلى الحجِّ أكثرُ من أربعمئة شخص. تصل إلى مكَّة تحجُّ حجتك الثالثة. في طرقات مكة، يسيرُ معكَ تلاميذك في حشد لافت للنظر. تشتاقُ نفسك للعزلة. تتركُ رفقاءَك وتلاميذك، وتصعدُ إلى جبل أبي قبيس. تمكثُ وقتًا طويلاً متأمِّلاً ما حولك. في الخلوات، تلتقطُ روحك أشتاتها، تنجلي الرؤية أمامك في أصدقِ صورها، فتكشف لكَ جوهر الأشياء في ما حولك بكلِّ يسرٍ وسهولةٍ. لذة العبادات بكلِّ صورها من ذكرٍ ودعاءٍ ونوافل تكونُ أكثرَ وقعًا في نفسك حينما تكون وحدك. في مكةَ وأنت غارق في روحانيتك، تصلك الأخبارُ بوفاة والي الأحواز مسرور البلخي. تشعرُ بالقلق على عائلتك. تقرِّرُ العودةَ إلى تستر فور انتهاء حجك. بعد انقضاء المناسك تعودُ إلى تستر مارًّا في طريقك بالكوفة. تصلُ بسلام إلى تستر. تقيمُ فيها نحو العام. تأتيك الأخبارُ من بغداد بأنَّ جُلَّ الأمور غير المريحة قدْ آلت إلى الزوال.

العَودَةُ إلى بَغْدَاد

لَمْ يعدْ هناك ما يمنعُ عودتك إلى بغداد. للعيشِ في بغداد مزاياه، فهناك الورَّاقون، وهناك المخطوطات، والكتب، والعلماء، والمريدون، والكثير من الأصحاب. لا تزال بغدادُ منارةً الدنيا وجوهرتها. تزورُ تجّار الأهواز الكبار. تخبرهم برغبتك في الذهاب معهم إلى بغداد. تخبرهم بمخاوفك. يرحِّبون بك. أكثرهم قد سمعوا بك. حينما استمعوا لحديثك، أحبُّوكَ، وأكرموكَ، وبجّلوكَ. قالوا لكَ ستكون معهم في مأمنٍ في بغداد، فهم من كبار التُّجارِ، ولهم الكثيرُ من الأحبابِ والأصحابِ الذين يتسنَّمون الكثير من المناصب في دار الخلافة. ذكروا لك بعض الأسماء المشهورة كالوزير عبيد الله بن سليمان بن وهب، ومحمد القنائي الكاتب، وأبي بكر الشبلي، وغيرهم كثير. قالوا لك: لنْ يمسَّكَ شيءٌ وأنتَ في حمايتنا. تغادرُ معهم برفقة زوجتك وابن أخيها إلى بغداد. في بغداد، تكتشّف أنَّ هناكَ حيًا كاملاً على ضفَّة النهر من الناحية الغربيَّة يُسمَّى حي التستريين. تجد بيتًا مناسبًا للسكنى هناك. تستقرُّ بك الأحوال قليلاً. تتعرَّف على رجلٍ مهمٍّ هناك سوف يكون صديقًا عزيزًا وعضدًا لك:

أبو بكر الشبلي الأمير التركي ذو الحظوة الكبرى في قصر الخلافة. كان أحد حُجّاب الخليفة السابق: الموفّق. كانت له علاقاته المتشعّبة. أياديه كثيرة في القصر. تشعر بالأمان. تتفرّغ للوعظ والدرس لكن بهدوء. لا تعرفُ ما الذي تخبئه لك الأيّام. تبتني دارًا بالقرب من ربض باب الشام في الجهة الشرقية من بغداد. تخصّص جزءًا من دارك لاستقبال المريدين. تقسّم دارك كما كان يفعل أستاذك سهل التستري. تلبثُ عامًا ونصفَ العام على هذه الحال. لكنَّ نفسك تحنُّ إلى الترحال. تخبرُ صديقك الشبلي برغبتك. يأتيك يومًا ما بخبر أفرحك. لقد اختارك الخليفة المعتضد ضمن وفدٍ متّجه إلى بلاد السند وما وراءها. تبتسم. لا يخفى عليك أنَّ القصدَ من هذا هو إبعادك من بغداد بعد أن كثر أتباعك وتلاميذك الذين انفضّوا من حول الكثير من العلماء والمتعالمين أيضًا، ما أوغر الصدور عليك أكثر من ذي قبل. أصبح الشططُ في البغضاء ديدنهم معك. لكنّك لا تبالِي. تسيرُ في طريقك المرسوم. تركبُ البحر لأوّل مرّة في حياتك. لكنّك لا تهتم كثيرًا لكونك ضمن الوفد. تجد قافلة كبيرة في مرسين تخصُّ أحدَ أصدقائك التجّار التستريين، قافلة كانت تحمل الديباج المطلوب هنا في بلاد الترك والصقالبة لتبيعه وتشتري بثمنه الورق الذي كان مطلوبًا بشدّة من النساخين والورّاقين في بغداد. في بلاد ما وراء النهر، تترك الوفد، وتنضوي تحت القافلة. كلُّ همّك كان الدعوة إلى الله. يقودك طريقك في الهداية، هداية النّاس إلى دين الله الحق، إلى ملتان، وتجتاز طريقك إلى خراسان، ونهاوند، ومرسين، والصغد. لا شيءَ يحرّك جوارحك مثل الدعوة إلى الواحدِ الأحد.

الدعوةُ في سبيل الله ولديه من أجلِّ القُرَبات لله لها حلاوةٌ في النفس، وسعادةٌ للجوانح. تعودُ أدراجك إلى بغداد. تغيبُ ست سنوات. تعودُ إلى بغداد لتصطدم بأكثر أعدائك شراسةً وخبثًا، القاضي محمد بن داوود المالكيّ، والوزير حامد بن العباس. كانا يحسدانك على كثرة أتباعك، وصيتك، وشهرتك التي طبّقت الآفاق. تلاشى وقلَّ ناصروك في القصر. الكثيرُ منهم أُعفي من منصبه، وبعضهم ترك كلَّ شيءٍ وراءه وغادر بغداد. بقيَ أعداؤك لك بالمرصاد. كانا يقبّحان صورتك لدى الخليفة الحدث السن: المعتضد. يتحيَّنان الفرص لكي ينقضَّا عليك. تعرف أنَّك لمْ تكنْ سوى وسيلة لتصفية الأحقاد بين الخصوم في القصر. ما إنْ تموتَ قضيتك حتَّى يعيدَ إحياءها وزيرٌ منافسٌ صعد إلى منصب الوزارة، أو رجلٌ جاء للحجابة، أو رجلٌ عُيِّنَ للقيادة، أو فقيهٌ أصبح مفتيًا بعد أنْ كان لا شيءَ يُذكر. تعرف أنَّ خصومك لديهم من الدهاءِ والشراسة الشيءُ الكثيرُ. توكِل أمرَك إلى الله. ترفضُ أنْ يكونَ وعظك في بيتك. تخرجُ للنَّاس توعظهم في جامعِ المنصور، ومسجد عتَّاب في سوق القعيطة، وسوق القحطبة، وفي رباط الأخلطيَّة ورباط الجنيد. تخرجُ إلى النَّاس في الطرقات والدروب. تذهبُ واعظًا إلى أصحاب الأعمال في الأسواق، والخانات، والأسبلة، أو تجمُّعات العمَّال في أماكن أعمالهم. تسيرُ في الدروب، يحفُّ بك مريدوك. تتكاثر أعدادهم كلّ يوم. تصلك أخبارٌ مقلقةٌ. لقدْ قرَّروا حبسكَ حتَّى يتَّقي النَّاس شرَّكَ مثلما يقولون. يصلك قولُ الجنيد إنَّك قد فتحتَ ثغرةً في الإسلام لنْ يسدَّها سوى رأسك. يحبسونك أيّاما أو شهورًا أحيانًا. يقولون لك – كاذبين – سيطلقُون سراحك حالما يُبتُّ

في أمركَ. تستغلُّ وقتك في السجن بكتابةِ كتبك. لكنَّهم سرعان ما يصادرونهَا ويجعلونهَا دليلاً لاتِّهامك. يؤوِّلون كلماتك إلى تأويلات ما أنزلَ الله بها من سلطان. تضطرُ أن تكتبَ سرًّا وترسلَ كتبك سرًّا. أحيانًا يجيشُ صدرك بالشعر فتتدفق الكلماتُ هادرةً بين فكَّيكَ. تكتبُ كتابك الطواسين جزءًا وراء جزءٍ. يحفظُ تلاميذُك وأحبابُك أشعارَك وكلماتك. يتلقَّفها الخطَّاطون والنسَّاخون. ينسخون منها نُسخًا كثيرةً تنتشرُ في سائر الأرجاء. يتضايق كارهوك وأعداؤك ممَّا تكتبه. تعرف تمامَ المعرفة أنَّ كتبك تعرِّي جهلهم وتكشفُ زيفَ علمهم وضحالةَ فكرهم. تجعلهم يشعرون أنَّهم مجرَّد طبولٍ فارغة خاليةٍ من العلم، مرتزقة يدلِّلون بعلمهم وفقههم للسلاطين لينالوا الحظوة. يسعون وراءَ مكانةٍ زائفة وأفئدتهم هواء. تعرفُ تمامًا أنَّ للعقلِ عورةً مثلَ عورةِ الجسدِ، وعورةُ العقلِ الكبرى هي الجهلُ.

تستعرُ حروبهم ضدَّك. لا يقبلون الآراءَ القابلة لدحض أكاذيبهم. ما إن يتشفَّع الأصدقاءُ والمحبُّون لك من أمثال نصر القشوري، أو الشبلي، أو حتَّى أم الخليفة شغب، فتخرج، حتَّى يعيدونك إلى السجن مرَّةً أُخرَى. يوهمونَ الخليفةَ والنَّاس بأنَّ شرَّك مستطيرٌ، وأنَّ لك مراسلاتٍ مع الثائرين ضد الخلافة في كلِّ مكان. يدَّعون - زورًا وبهتانًا - أنَّك طامحٌ إلى الحكم. ينبشون حتَّى في السنوات الماضية ليستخرجوا شيئًا ما يؤيِّد دعواهم ضدَّك. يعرِّضون لدى رجال الدولة بعلاقة النَّسبِ التي تربطك بآل الكرنبائي الذين تنحدر منهم زوجتك. يقولون إنَّ أحد أصهارك كان واحدًا من وزراء صاحب الزنج في دولته التي زالت منذ زمن. تعتريك رهبة الإحساس بدنو لحظات

النهاية. لمْ تعدْ الكلمات تسعفك. تَكِل أمرك إلى الله. أصبحت تفضِّل السجن على الدخول في حالات دفاع مستميتة عن نفسك. في السجن، تخلُو مع ذاتك، تسعدُ بالعزلة، ولكن قلبك يقولُ لكَ إنَّ النهاية أصبحت وشيكةٌ. دنت قصتك من النهاية. تعرف تمامًا أنَّك خُلقت منذورًا للموت. فمثلكَ لا يعيش. من يوقظون العقولَ من سباتها مصيرهم الموت. مَن يدعونَ إلى الله بطريقتك مصيرهم الموت. مَن يفني جسده في سبيل تعلُّق روحه بخالقه مصيره الموت. إنَّه الموت... إنَّه الموت قادمٌ لا محالة...

الشَّاهِدُ الأَخِيرُ

كيفَ أكتبُ نهايةَ المخطوطة؟

حرتُ من أين أبدأ بكتابتها؛ أعني نهايتها. البداياتُ أسهل من النهاياتِ. أنتَ تتحكَّمُ في كيف تبدأ، ولكنَّ النهايةَ لا بدَّ أن تختارَ نفسها بنفسها لأنَّها في غالب الأحوال تفرضُ نفسها عليك. لا أريدُ لهذه المخطوطة أن تنتهي. أشعرُ أنَّ نهايتها تعني نهايتي أيضًا. أريدها دون نهاية. سيبقى الحلّاجُ حيًّا، ولنْ يموتَ - على الأقلِّ - في هذه المخطوطة. سأظلُّ أكتبُ هذه المخطوطة إلى ما شاءَ اللهُ...

ولكنْ لكلِّ شيءٍ نهايةٌ شئتُ أم أبيتُ!

حتَّى هذه اللحظة، لا أعرفُ هل كنتُ أكتب سيرتي، أو سيرة الحلّاجِ...

اختلطتْ عليَّ الأمورُ، لكن للمرضِ سطوته وجبروته...

تتزايدُ حالات الهلوسة لديَّ. تطوَّرت إلى حالة وسواسٍ قهريٍّ. هكذا قال لي الطبيبُ الجديد الذي ذهبت إليه في عيادته. صرفَ لي دواءً آخر استخدمته، فقلبَ سيرَ حياتي رأسًا على عقب. أصبحتُ أنامُ كثيرًا، وتحوَّلتْ أحلامي إلى كوابيس. أشعرُ بالتفاهةِ تلبسني كحظٍّ

عاثرٍ. حوَّلني الدواءُ إلى مجرَّد رجل مطواع، هادئِ السمت، يحملقُ في ما حوله ببلاهة. تمرُّ ساعاتٌ طوالٌ وأنا جامدُ الحركة معطَّلُ العقل والجسد. زالت منّي جذوةُ التفكير، ولهفةُ التطلّع إلى ما وراء ظواهر الأشياء. تلاشي - أو كادَ - حبُّ البحث والقراءة. أصبحتْ ذاكرتي مثل ذاكرة السمكة تنسى كلَّ شيءٍ في ثوانٍ قليلة. رميتُ الدواء ولمْ أعدْ استخدمه. زادتْ حالتي سوءًا. اشتدَّتْ وطأةُ المرض أكثر من ذي قبل. لكلِّ شيءٍ ثمنٌ. أعرف ذلك. تخلّيتُ عن العلاج لكي لا أموتَ من الهدوء، ولكي لا تخنقني حالةُ الاستسلام الهائل للجمود والشعور بقلة الجدوى وبالرتابة.

أبتلع حبّة من الدواء الجديد. أريد أن أنام لا لساعات بل لسنوات لكي أخلص من هذا العذاب المقيم. أبتلع الحبّة السحرّية فأرى أياماً كثيرة تمر مثل الريح المرسلة. شهور وسنوات تمر مثل دفتر تقويم أحرّك أوراقه بين يدي. أتوقّف عند يوم معين، يوم يقتحمُ فيه خلوتي رجلٌ لمْ أره من قبل. كان طويلَ القامة، وضيءَ الوجه، أصلعَ شعرِ الرأس، ذا جسد قوي ومتناسق. أسأله مستنكرًا: "مَن أنتَ؟ وماذا تريدُ؟".

- "أبو بكر الشبلي...".
- "أبو بكر الشبليّ تلميذُ الحلّاجِ؟".
- "نعم".
- "وماذا تريدُ منّي؟".
- "أريدكَ أنْ تنهيَ كتابة هذه المخطوطة، وتتوقّف عن كتابتها الآن".

- "ولماذا يا سيِّدي؟".
- "لأنّه لمْ يعدْ هناك ما يُقال".
- "وكيف عرفت أنّه لمْ يعدْ هناك ما يُقال؟".
- "لقدْ أخبرني سيِّدي الحلّاجُ بتفاصيلها".
- "تفاصيل ماذا؟".
- "تفاصيلُ المخطوطةِ التي تكتبُها".
- "ولكنّي لمْ أكتب النهاية حتّى الآن؟".
- "نهاية ماذا؟"
- "نهاية الحلّاجِ... أقصد لحظة قتله وصلبه...".
- "لنْ تجدَ رجلاً أصدقَ منّي في ذكرِ كلِّ تفاصيل تلك اللحظات المؤلمة".
- "لكنْ يوجد شهودٌ غيرك قد....".

يقاطعني محتدًّا: "لقد شهدتُ أيّام صلبه، وتقطيعَ أطرافه، ثمَّ جزَّ رأسِه، وحرقه على مدى ثلاثة أيّام، ولم تَفُتْنِي شاردةٌ ولا واردةٌ".

يسكتُ قليلاً ثمَّ يقولُ لي بصوتٍ كأنّه الرعد: "اكتبْ!".

- "أكتبُ ماذا؟"
- "اكتبْ ما سأمليه عليكَ الآن".

أمسكُ القلم ثمَّ أبدأُ كتابة ما يمليه عليَّ أبو بكر الشبلي، أكثر الشهود صدقًا في ما حدثَ للحلاّجِ في أيّامه الثلاثة الأخيرة.

الشَّاهِدُ الأَخِيرُ

أبو بكر الشبليّ

اليومُ الأوّلُ: السبتُ، الحادي والعشرون من ذي القعدة ٣٠٩هـ

يرميه النَّاس بالحجارة، فأرمي عليه زهرة!

يراني أفعلُ ذلك، فيصيحُ بصوتٍ عالٍ: "أحبَّائي يرمونني بزهرة فأجدُ ألمها أكبرَ وأعظمَ من الحجارةِ التي يلقيها عليَّ كارهيَّ وأعدائِي!".

أسمعُ كلماته، فأبكي...

يخرجون به من السجن إلى باب خراسان مقيَّدَ اليدين والرِّجلين. يرافقه عددٌ كبيرٌ من الجنود. تأتي حشودُ النَّاس من كلِّ أنحاء بغداد، وأسواقها، وأبوابها. يأتون من ربض حميد، ومن باب حرب، وباب الشام، وباب محول، وباب بصرى، وباب شعير، ومن الكرخ، وشينيزية، والبزازين، والشماسيَّة. يراه الدهماء من النَّاس فيتصايحون عليه. يلعنونه. يسبُّونه بأقذعِ السباب. يرمونه

بالحجارةِ فتصيب رأسَه، ويديه، وصدرَه، وباقي جسدِه. كان يتبسمُ في وجوه النَّاسِ وجلاَّديه، فيزيد ذلك احتقان صدورهم. المكانُ غاصّ بالنَّاسِ. يصلون إلى ساحة باب خراسان في رحبة المجالس. هناك خشبةٌ منصوبةٌ كانت تُستخدم للقتلِ والصلبِ، وللتعزيرِ بالمقتولِ. يتوقَّف الحشدُ. تصمتُ الجموعُ. يهمسُ الحلاَّجُ في أذن صاحب الشرطة بكلمات قليلة: "أريدُ أنْ أصلِّي ركعتين قبلَ الموتِ".

سمعتُ كلماته. كنتُ قريبًا منه. أفرشُ له عباءَتي ليصلِّي فوقها. ينظرُ إلي مبتسمًا شاكرًا...

يشيرُ صاحبُ الشرطة إلى الجنودِ برأسه أنْ أطلقوه. يتَّجه نحو القبلة، فيصلِّي ركعتين. قرأ في الركعة الأولى بصوت مسموع: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾.

وقرأ في الركعة الثانية: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾.

أنهى صلاته، ثمَّ...

يشقُّ الصفوفَ رجلٌ. يقفُ في منتصف الساحة. يمسكُ بيده شيئًا. تسري الهمهماتُ بينَ النَّاسِ. يتطلَّعون بلهفة إلى ما سيقوله الرجلُ. إنَّه أمرٌ جديدٌ آتٍ من دار الخلافة. تصمتُ الجموعُ كأنَّ

على رؤوسها الطيرُ!

يمسكُ الرجلُ بأمرِ الخليفة المكتوب في رقعةٍ بيده. أرسل الخليفةُ أوامره من قصره الجديد: قصر الحسيني الذي تمَّ الانتقال إليه منذُ أيّام قلائل. يصيحُ رسولُ الخليفة في الجموعِ بأعلى صوته، فاردًا الرقعة قائلاً:

> أمرَ الخليفةُ أنْ يُجلدَ ألفَ سوطٍ، فإنْ لمْ يمتْ، فاقطعُوا يديهِ ورِجليهِ من خلافٍ، واقطعُوا رأسَهُ، وأحرقُوا جثّتَهُ...

يسودُ الصمتُ. بدأ الحشدُ ترديدِ العقوبة وترتيب أجزائها. يشيرُ صاحب الشرطة، محمد بن عبد الصمد، بيده اليُمنى. يبرز خمسة جنودٍ بيد كلٍّ واحدٍ منهم أسواطٌ مجدولةٌ من الجلدِ وسعفِ النخيل. يأتي الأوّلُ فيجلد الحلّاجَ مئتي سوطٍ. يبتعدُ ليتيحَ للجنديِّ الآخر الضربَ. يخطو الجنديُّ الثّاني نحو المصلوبِ فيجلده مئتي سوطٍ.

انتهى الجنودُ الخمسةُ من الجلد. أصبحَ جسدُ الحلّاجِ أسودَ من كثرةِ ضربِ السياط. يتقدَّم نحوه صاحبُ الشرطة ليرى هل فارقَ الحياة، ولكنّه يجده صابرًا محتسبًا، يلهج لسانه بذكرِ الله. لمْ تفترْ همّته عن الذّكرِ قيدَ أنملة!

يشيرُ صاحب الشرطة إلى حاملِ السيفِ...

يتقدَّم حاملُ السيف منه، يمسكُ يدَه اليمنى فيقطعها من الرسغ، ثمَّ يمسكُ يدَه اليُسرى فيقطعها من جذرِ الكفِّ. تشخبُ الدماءُ، وتنسكبُ على الأرض. ثمَّ يحدثُ ما أذهلَ محبّيه، ومريديه،

وتلاميذه، وخلب ألبابهم: يمسحُ الحلّاجُ وجهَهُ بدماءِ يدِه اليُمنى المقطوعة، ثمَّ يقولُ بهدوءٍ وسكينةٍ: "ركعتانِ في العشقِ لا يصحُّ وضوؤهما إلاّ بالدَّم".

ثمَّ يستغرقُ في صلاته الأخيرة، وقدْ عمَّه السكونُ والهدوءُ...

صوتُ بكاءٍ قادمٌ من مكانٍ ما، لمْ أستطعْ تحديدَ مكانه...

يهوي السيّافُ بالسيفِ على القدمِ اليُمنى فيقطعها، ثمَّ الرِّجل اليُسرى فيقطعها.

يصيحُ أحدُ الرجال، كانَ من القضاة، قائلاً: "لقدْ حلَّت ساعةُ الغروبِ. اتركوه حتّى صباح يومِ غدٍ".

بدأ النَّاسُ التحرُّك من أماكنهم واجمين. أقتربُ منهُ. أدعُو اللهَ في سرِّي أنْ يكونَ قد ماتَ حتَّى لا يتعذَّبَ أكثرَ، ولكنَّه كانَ حيًّا. لمْ يمتْ. كانَ رابطَ الجأشِ تغشاهُ السكينةُ والهدوء...

شرعَ الجنودُ رماحهم وسيوفهم، وطلبوا من الحاضرين الانصرافَ والعودة في يوم غدٍ. مَن تلكأ منهم اقتادوه معهم بغلظةٍ إلى السجن.

بقيَ عددٌ كبيرٌ من الجنودِ يحمون المصلوبَ طوالَ الليل...

غادرَ النَّاسُ، وغادرتُ معهم كسيفَ البالِ دامعَ العينين.

اليومُ الثَّانِي: الأحدُ، الثَّانِي والعشرُونَ من ذِي القعدةِ ٣٠٩هـ

لمْ أنمْ تلكَ الليلة. وكيفَ لي أنْ أنامَ؟

في صباح هذا اليوم، امتلأت الساحةُ بالنَّاسِ أكثر من اليوم الفارط. تسامعَ النَّاسُ فجاؤوا من كلِّ مكان. ازدحمت القواربُ في فرضة جعفر حيث كانت ترسو. خرجَ منها ناسٌ كثيرون جاؤوا من خارج

بغداد. حينما إليه له وجدتُه كما كان بالأمس، هادئَ النفسِ، يُسبِّحُ اللهَ، ويتشهَّدُ ويلهجُ بالدعاءِ، وإن كان صوتُه أصبحَ واهنًا.

كان صاحب الشرطة بانتظارِ أمرِ الخليفة بالقتل. قبيل التنفيذ تقدَّم حامد بن العباس الوزير يحفُّ به الجنودُ، وبعضُ الشهود. صاح قائلاً: "يا قوم: هلْ ترونَ أنَّ قتلَ هذا الرجل واجبٌ؟".

تعالت الهمهماتُ مختلطةً حتَّى تجمَّعت في صوتٍ واحدٍ وفي كلمةٍ واحدةٍ جاءت من بين الحناجرِ كهزيم الرَّعدِ: "نعمْ".

قال الوزيرُ بنبرةٍ شابها الارتياحُ: "إنَّ أميرَ المؤمنين بريءٌ من دمه، وأنَا بريءٌ من دمه، وصاحب الشرطة بريءٌ من دمه. فماذا تقولون؟".

صاحَ النَّاسُ بصوتٍ واحدٍ: "نعمْ... أنتم بريئون منٍ دمه".

أشار الوزيرُ إلى السيَّاف برأسه. تقدَّم أربعة جنود فكوا قيوده من حول بطنه وما تبقَّى من ساعديه. أركعوه على ركبتيه أمام السيَّاف.

قال الحلّاجُ: "حسبُ الواحد إفرادُ الواحد له"، ثمَّ تلا قولَ الله تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾.

ثمَّ صاحَ صيحةً عظيمةً فقال: "إنَّ في قتلي حياتي...".

وجم النَّاسُ وشخصت أبصارُهم نحوه.

يرفعُ السيَّافُ السيفَ يهوي على العنق النحيف الأبيض اللون، يقطعه، فيتدحرج الرَّأسُ على الأرض. يشخبُ الدمَ ويرتفعُ عاليًا من منابت الرقبة. تصمتُ الحشودُ، وعلى الوجوه، يلوح لمعانٌ مخيفٌ. النَّاس بدوا في تلك اللحظة كأنَّهم خلقوا من العدم وإليه

سائرون. شمس مخاتلة تنوس بين السحاب كأنَّها في انتظار شآبيب المطر لكي تتدفَّق في أيِّ وقت. تخرجُ من الأفواه الفاغرة كلماتٌ مهلهلةٌ غيرُ مفهومة. بعد لحظات من الجمود، يمسكُ بالرأس أحدُ الجنود يضعه في سلَّة من الخوص، ثمَّ يسير بها إلى الوزير حامد بن العباس، يلقي نظرةً عجلى عليها. يختلُّ توازنه. تسقطُ عباءته، وكاد يقعُ على الأرض، ثمَّ يغادرُ المكان وسط جمع من الجنود.

اليومُ الثَّالثُ: الإثنين، الثالثُ والعشرُونَ مِن ذِي القعدةِ ٣٠٩هـ

حينما قطعُوا الرأس أعادوا الجسدَ إلى الخشبة. كانوا يريدون أن يتركوا جثته أمام أنظارِ النَّاس لأطول وقت ممكن. في صباح اليوم الثالث، جاءَ بعضُ الجنود، أنزلوا الجثةَ، ثمَّ لفوها في قطعة من الحصير، وأشعلوا فيها النيران. تركوا النارَ تلتهمُ الجسدَ المقطوعَ حتَّى تحوَّلَ إلى كومةِ رمادٍ!

الرأسُ مع بقيَّه أجزائه - اليدين والقدمين - عُلِّقت على سور باب السجن الجديد ثلاثة أيَّام. بعد مرور الأيَّام الثلاثة حملوا الرأسَ وأودعوه خزانة الرؤوس في القصر، ثمَّ أرسلوه في ما بعد إلى خراسان، حيثُ يكونُ هناك أكثرُ أتباعِ الحلاَّج. طِيفَ بالرأس كلِّ أنحاءِ خراسان، قبل أنْ يُعادَ إلى خزانة الرؤوس في القصر.

أحرقُوا الجثَّةَ. جمعُوا الرمادَ في قارورة، ثمَّ ساروا بها مع حشود النَّاس إلى نهر دجلة. نثروا الرمادَ في النهر من جهة باب الطاق، ثمَّ تفرَّق النَّاسُ وعادوا إلى أماكنهم...

حالما رأيتُ حرقَ الجسد، انتابتني لوثةٌ من جنونٍ، واجتاحني غضبٌ هائلٌ. كنتُ أسيرُ بلا هدي في الطرقاتِ الفارغةِ من النَّاسِ، ثمَّ لمحتُ حصانًا واقفًا بلا سرجٍ في إحدى الزوايا. بحركةٍ واحدةٍ، قفزتُ فوقَ ظهره العاريّ، ثمَّ وكزته بقدميّ وانطلقتُ كالمجنون. كان الحصانُ يركضُ بي بمحاذاة النهر. أهمزه بقدميَّ وهو يركض، فيزيد سرعته وجموحه. كان بصري لا يرى أبعدَ من قدميّ الحصان. وسرعان ما ساخت قدما الحصان في كومةٍ من الطين، بجانب النهر، فتوقّف فجأةً فسقطتُ من فوقه. وقعتُ على وجهي على الطين، فشممتُ رائحة الأرض في حالتها البِكر، ثمَّ بدأتُ أبكي...

لمْ ينتهِ العذابُ...

في الأيّام التالية، كان الجنودُ يفتشون دكاكين الورّاقين، والخطّاطين، والنسّاخين، ومجلّدي الكتب والمخطوطات، بحثًا عن كتبِ الحلّاجِ. جمعُوا كميَّة كبيرة منها وأحرقوها في ذات مكان صلبه في رحبة المجالس بالقربِ من باب خراسان.

يتنهَّدُ أبو بكر الشبلي بتنهيدةٍ طويلة هازًّا رأسه. يقول بخفوت: "حتَّى بعد مرور خمسٍ وعشرين سنةً من هذه الواقعة لمْ أستطعْ نسيانها. كانت عصيَّةً على النسيان...".

التزمتُ في جامع المنصور تحت قبَّة الشعراء. لا أبرحُ المسجدَ إلاّ لأمرٍ خارج عن إرادتي. لبثتُ في المسجد حتَّى طردوني منه بسبب صرخاتي التي كانت تصدر مني أثناء نومي. كانت تلك الصرخاتُ تخرجُ رغمًا عنّي كلّما زارني سيّدي الحلاّجُ في منامي. أدخلوني

بيمارستان المجاذيب ولبثت فيه سنين لا أشعر بشيء ولا أهتم لشيء ولا يهمني شيء. أطلقوا سراحي أخيراً، ثم...

رحلتُ إلى البصرةِ وبقيتُ فيها أنتظرُ موتي الذي طال مجيئه...

٢٢

سألت نفسي: هلْ انتهت المخطوطةُ بالفعل، أم لا يزال هناك مزيدٌ ممَّا يستحق أنْ يُكتب؟

لا أعرفُ...

الذي أعرفُه أنِّي لمْ أعدْ قادرًا على المضي قدمًا في كتابة حرفٍ واحدٍ في المخطوطة، لأنِّي حالما انتهيتُ من كتابة هذه السطور لا أعرفُ ما الذي حدث لي بالضبط. كانت تتجاذبني مشاعرُ مختلطة... مبهمة... غامضة. لمْ أجدْ لها أيَّ تفسير. لمْ أعدْ قادرًا على إضافة كلمة واحدة. بدا لي أنَّ الموتَ نهاية كلِّ شيء. هو الحقيقة المطلقة التي لا تقبلُ التأويل أو الشك...

توقَّفتُ عن الاستمرار في كتابة المخطوطة بعد أن أحسستُ أنَّ قدمي تطأ أوحالاً لها روائحُ منتنة. حتَّى الزمن أصبح وجوده هشًّا ولا قيمة له. نماذجُ مشوَّهةٌ وقبيحةٌ خرجت لي من بين طيَّات كتب التاريخ وأحداثه، وأخذتْ تطاردني في صحوي ومنامي وهلوساتي. حتَّى هذا التاريخ أصبحَ مجرَّد وقائع وأقاويل تفتقرُ إلى الصدق ووضوحِ المنهج ومنطقيته. لا تزال أصنامُ التاريخ ونماذجه الممسوخة تتناسل

منذ تلك الحقب الموغلة في التاريخ وحتى يومنا وتمثل أمامي بكلِّ صفاقة. أجدها في الشارعِ، وفي وسائلِ الإعلام، وفي الجامعةِ، وفي كلِّ مكانٍ، وقد زاد تشوّهها وقبحها. وعلى مدى شهور طويلة، اصطخبتْ في ذهني احتمالاتٌ كثيرةٌ حوَّلتني إلى شعلة من الغضب والنزق. لمْ أقدرْ أنْ أتحكّم بخفقاتِ قلبي التي كانت تزدادُ حدَّةً. أنفاسي مضغوطة وحركتي مضطربة. لبثتُ أيّامًا أعاني فيها نزواتٍ حادّةٍ من الغضب والكره والتفاهة تجعلني أفقدُ بوصلة اتجاهاتي، ورغباتي التي أصبحت هي الأخرى غيرَ معروفة أو محددة المعالم.

انتظرتُ طيفَ الحلّاجِ أن يزورني، ولكنّه لمْ يأتِ.

ابتلعت العشرات من الحبوب المهدئة ولكنه لم يأت.

كنتُ أريدُ أن أعرضَ عليه المخطوطة التي كتبتها عنه، وأقرأها عليه كلمةً كلمةً، ولكنّه لمْ يأتِ.

كنتُ أريدُ أن أبثه حزني وشكواي بعد الذي عرفته وكتبته عنه، ولكنّه لمْ يأتِ...

شعرتُ باليأس...

أنظر نحو المرآة لعلّه يأتي ولكنّه لمْ يأتِ. أمسكتُ بمنفضة السجائر وقذفتها بقوّة نحو المرآة، فتحطّم زجاجها، ولكنّه لم يسقط على الأرض. أنظرُ إليها فأرى صورة وجهي مكرَّرة في كلِّ شقفة وشظية في المرآة. أرى وجهًا بشعًا كامدَ اللون وشَعَرًا أكرتَ خطّه المشيبُ. أتساءل: هلْ هذا أنا؟ هلْ هذا الوجه الغريب وجهي؟

لا أعرفُ...

ذات يومٍ كنتُ أقرأ في كتابٍ ما لا أذكرُ عنوانه، فتوقّفتُ كثيرًا

عند كلمات ذكرها عبد القادر الجيلاني، العالم الزاهد، وأحد كبار صوفيي القرن الرابع الهجري: "عَثُر الحلّاجُ ولمْ يكنْ في زمانهِ مَن يأخذ بيده، ولو أدركته لأخذتُ بيده".

وسألت نفسي بمرارةٍ: وأنا مَن سيأخذ بيدي؟

تعثَّرتُ آلاف المرَّات فلمْ أجدْ مَن يأخذ بيدي...

راجعتُ على مدى أيَّام المخطوطة. حاولتُ أن أضيفَ كلمةً، أو عبارةً، أو أنْ أصحِّحَ كلمةً هنا، أو هناك، ولكن... عبثًا. شعرتُ بالإحباط فطويتُ المخطوطة ووضعتها داخل مظروف كبير ورميتها في أحد الأدراج، وأقفلتُ عليها.

تلاشتْ روحُ الباحثِ فيَّ، واستيقظتْ روح الروائي، ربما حدث هذا بفعل التراكم: تراكم المعلومة، والمعرفة، والخبرة. ووجدتُ من العبث أن أحاكمَ الحلّاجَ بمقاييس عصرنا، وإنْ لمْ يتغيَّر شيءٌ. لا تزال تعيشُ بيننا العقول والأفكار نفسها والفكر الأحادي عينه الذي يقيس كلَّ شيء بمنظور رماديٍّ عقيم غير قابل للحركة والتنوّع والتطويع. لا نزال نتخبَّطُ في ظلمة سرمديّة حالكة. نحنُ نعيشُ في زمن الرداءة والخواء، فما الجدوى من حكمي عليك إذا كلُّ هذه المعطيات لم تتغيَّر قيدَ أنملة؟

لو قيِّض لكَ أن يحاكموك في هذا العصر، ما وجدت اختلافًا كثيرًا عن عصرك. ستجد الأشخاص ذاتهم بالعقلياتِ والضراوةِ نفسها، وربما كانوا أكثرَ فجورًا في الخصومة. ستجدهم لم يتغيَّروا كثيرًا ولكنَّهم ازدادوا توحُّشًا وجهلاً. سيسخطون عليك لأنَّهم سيحاسبونك على كلماتك التي خانها قصورُ اللغةِ، وخيانةُ المعنَى،

ومحدوديَّةُ الشكلِ الظاهريّ، ولم تستوعبها العقولُ.

ستكونُ في نهاية الأمر ضحيةً للتأويلات غير الصحيحة والتفسيرات الممزوجة بالأهواء الشخصيَّة.

لَمْ يتبدلْ شيءٌ. مرّت القرونُ تلو القرونِ ولا يزال كلُّ شيءٍ على حاله!

وماذا بعد؟

لنْ أستطيعَ أنْ أكتبَ شيئًا ذا أهميَّة أكثر ممَّا ذكره أبو بكر الشبلي، تلميذك المخلص والوفيّ، وكتبته كما أملاه عليَّ...

ليس هناك من شيءٍ سوى حبالٍ كثيرةٍ التفَّت حول عنقي تخنقني ورمتني في قبضة كابوسٍ لا يرحم...

عدت إلى طبيبي مرة أخرى أنشده الخلاص والعلاج، ولكن يبدو... من دون جدوى.

٢٣

يجلس ورائي.

كنت ممداً على الأريكة. الحجرة شبه معتمة. أسمع صوت موسيقى عذبة تنساب من مكان ما. مقطوعة موسيقية للموسيقار فانغليس. لا أراه ولكنني أشمّ من معطفه الأبيض روائح الدواء والمعقمات ورائحة المرضى؛ تلك الرائحة التي نشمّها دائمًا في ردهات المستشفيات والمصحّات. حاولت أن أسترجع كم مرة راجعت هذا الطبيب ولكنني فشلت في التذّكر. حاولت أيضاً أن أتذكر منذ متى بدأت أراجع هذه العيادة التي يعمل فيها هذا الطبيب النفسي الشهير ولكنني فشلت في التذّكر مرة أخرى. كل ما أعرفه أنني على مدى شهور طويلة كانت تنتابني موجة نسيان هائلة وغضب جامح وغياب عقلي تام.

شملنا صمت قصير قبل أن يكسره قائلاً: "أنت لا تزال مريضاً. وتأتي إلى هنا من تلقاء نفسك بعد أن تسوء حالتك. دعني أسألك: لماذا لا تأتي في مواعيد الجلسات المحدّد وقتها سلفاً؟ يبدو أنك لا تتبع الخطّة العلاجية التي وضعتها لك...".

- "وما نوع المرض الذي أعاني منه؟".

- "أنت دائمًا تسألني هذا السؤال، وسأرد عليك بالجواب نفسه مثل كل مرّة: أنت مصاب باضطراب في التفكير والوجدان أو ما يسمى الفصام أو السكيزوفرينيا، وهذا المرض له أنماط مختلفة و...".

أصرخ قائلاً: "أنا لست مريضاً".

- "اهدأ يا صديقي. أنا طبيب وأعرف تمامًا أنك رجل مريض. أنت لا تزال في بدايات هذا المرض، ولا بد أن نعالجه قبل استفحاله. هناك بعض الأعراض ظهرت عليك وبعضها الآخر سيظهر قريباً وستسوء الأمور أكثر إن لم تنفذ ما أطلبه منك".

- "لا أشعر أنني مريض".

- "أنت مريض، وأول خطوات العلاج أن تعترف بأنك مريض. مرضك ليس في جسدك بل في عقلك ونفسك".

- "...".

- "سأبذل جهدي لعلاجك".

- "لا أريد علاجاً بالكلام فقط. أريد علاجاً أقوى من السابق. لا أريد أن أشعر بما يدور من حولي".

- "ليكن... لن أعالجك بالحديث أو الكلام والاعترافات والمهدئات، ولكنني سأعالجك بطريقة جديدة".

- "...".

- "في مثل حالتك سأستخدم طريقة حديثة لمعالجة هذا المرض. هناك طريقة تدعى النيدوثيرابي".

- "...".

- "هي طريقة للعلاج تعتمد أساسًا على التغيير في كل شيء لكي تحقّق النتائج المرجوة منها".

- "...".

- "أول هذه الخطوات أن تغير مكان سكنك وتغيّر نمط حياتك وتعيد ترتيب أولوياتك من جديد".

- "لا، لن أفعل".

- "بل ستفعل. لا بد أن تترك القراءة والكتابة موقتاً وتتفرغ للتأمل الذاتي. دع الحلّاج وسيرته جانباً وانتبه إلى نفسك قليلاً. الأمر كلّه بيدك وحدك إذا ما أردت التعافي".

- "الحلّاج؟ وما دخل الحلّاج في الأمر؟".

- "ههههههه، أنت تسألني دوماً هذا السؤال وفي كل جلسة علاج مثلما تسألني عن نوع مرضك. حسناً، يا صديقي: هذا نوع من الإنكار الذي يصاحب مثل هذه الحالات، سأخبرك: إنك تهذي بترديد اسمه في كل وقت وحين، وأحياناً تدّعي أنك أنت الحلّاج، وأنّه لم يمت، بل بقيت روحه وجسده كل هذه السنوات الطويلة حيّة وتتنقل من مكان لمكان حتى استقرّت روحه فيك. باختصار، يا صديقي: أنت تعيد إنتاج مأساة الحلّاج مرة أخرى. أنت تعذب نفسك بتقمّص مثل هذه الشخصية التاريخية المثيرة للجدل".

تنهد ملء صدره ثم أردف قائلاً: "غياب شعورك بالمشكلة يجعلك لا تشعر بحاجتك إلى وضع حلّ مناسب لها".

- "...".

- "ابتعد عن أي شيء يثير فيك أحاسيس غير مرغوبة. كوّن علاقات جديدة مع أناس ترتاح لهم ويرتاحون لك. سافر مثلاً إلى منطقة بعيدة، إلى مكان هادئ وبعيد عن الصخب والضجيج، ويستحسن أن يكون ذلك برفقة امرأة تستلطفها وتستلطفك".

- "لن أفعل".

- "إذن، في مثل هذا الرفض، ستضطر إلى الاستمرار في العلاج الكيميائي".

"نعم. هكذا أفضل"، أقول له متحدّياً.

- "الأمر بيدك. أنا مجرد طبيب ويهمني شفاؤك بالدرجة الأولى".

وشملنا الصمت.

ينهض من فوق المقعد الذي وضع خلفي بالتحديد وراء رأسي. كان يحمل في يده جهازاً للتسجيل. أطفأه ثم مشى خطوات نحو مكتبه المزدحم بالكتب والمراجع وعينّات الأدوية. جلس على الكرسي. مدّ يده نحو أوراق أمامه. استخرج قلماً من جيبه العلوي ثم بدأ يكتب شيئاً ما فيها.

أنهض من مكاني متثاقلاً. أرتدي حذائي. على الكرسي المقابل لمكتبه ألقي بجسدي. أرسل بصري نحو الأسفل. بعد قليل مدّ لي بورقة وقال لي مبتسماً: "تمنياتي لك بالشفاء العاجل".

أنظر إلى الورقة. كانت وصفة طبيّة. أمسكت بها وطويتها ثم وضعتها في جيب الثوب السفلي. نهضت وغادرت المكان صامتاً...

٢٤

قدمت رسالة الدكتوراه المتعثّرة إلى إحدى دور النشر لنشرها في كتاب. فقبلت طباعتها ونشرها من الفور. لن أنتظر أحداً، وسأنشر رسالتي التي تعثّرت في أروقة الجامعة. نُشر الكتاب ولقي صدى واسعاً واستقبالاً وترحابًا من المختصين وغير المختصين. وفي دورة من دورات معارض الكتاب التي أقيمت هنا، صودر الكتاب ونشأ لغط مفتعل حوله في موقع دار النشر التي طبعته بعد تقديم بلاغات من بعض الموتورين الجهلاء الذين يحركون من بُعد على يد بعض من نصبّوا أنفسهم أوصياء على عقول الناس. نُشر الكتاب لكن القضية لم تنته عند هذه الحال!

طباعة الكتاب ونشره جاءت نتائجه عكسيّة تماماً.

في خضمّ هذه السوداويّة المفرطة، جاءني استدعاءٌ كتابيٌّ من إحدى المحاكم في البلد، ولمّا ذهبت إلى هناك لاستجلاءِ حقيقةَ الاستدعاء، اكتشفتُ أنّ هناك مجموعةً من رجال، لا أعرفُهم، قدَّموا ضدّي دعوى في المحكمةِ مشفوعةً بنسخةٍ عن رسالة الدكتوراه الخاصة بي ونسخة عن الرسالة وهي منشورةٌ في كتاب، وورد في

فحوى هذه الدعوى أنّني قد خرجتُ بسببِ تلك الرسالة من ملّةِ الإسلام، وقد دخلتُ إلى الإلحادِ من أوسع أبوابه، ومن باب الحلّاجِ ذلك الصوفيِّ الزنديقِ الكافرِ، ولا بدَّ أن أُستَتابَ، وإذا رفضتُ، فسوف يستمر النظرُ في الدعوى للوصولِ إلى حكمٍ نهائيٍّ قد يكون القتل بحكم الرِّدةِ...

أعرفُ تمامًا مَن حرّض أولئك بسطاء العقول من العامَّة والدهماء ليقدِّموا تلك الدعوة. هم مجرَّد أدواتٍ لتنفيذ رغبات الآخرين المريضة والموغلةِ في التوحُّش المغلَّفً بالجهل. حدَّدوا لي في المحكمة موعدًا مبدئيًّا متأخِّرًا قليلاً، ريثما يتمُّ البدءُ باتِّخاذ إجراءات البتِّ في الدعوى بعد استكمالِ أوراقِ القضيَّةِ...

لا شكَّ لديَّ أنَّه هو الدكتور فالح وزمرته... إلى أيِّ حدٍّ انحدر تفكيرُ هذا الرجل؟

زارني الدكتور فايز في البيت. لا أدري ما سبب هذه الزيارة. هل هي لجسِّ النبضِ أم للتخويفِ أم لقياسِ ردِّ الفعلِ من جانبي. بعد الترحيب وتناول أقداح الشاي، ونفث دخان السجائر في فراغ الحجرة، نصحني بألا أتحدى المحكمة وإجراءاتها. وقال لي ناظراً لي بعينيه الداكنتين: "إنَّ التُّهمةَ قد تلبسني بالفعل، ووقتها ربَّما أُستتاب، وقد يُحكم عليَّ بحدِّ الرّدةِ، والزندقةِ، والإلحادِ".

الرِّدةُ، والزندقةُ، والإلحادُ!

كم نحن بارعون في إلقاء التُّهم على كلِّ مَن يخالفنا في الرأي، أو القولِ، أو مَن يجرؤ ويخرج من مسار القطيعِ!

يا للكلمات المفجعة! هكذَا قلتُ لنفسي...

أصبحتُ مرتدًّا خارجًا عن الدِّين بسبب حفنة من الجهلاء المتعصِّبين ولأنَّني نفضتُ بعضَ الغبارِ عن الحلّاجِ وسيرته، وما تعرّض له من ظلم وطغيان ومحاكمة عبثيَّة مضحكة...

جاريتُه في كلامه وقلتُ له: "وبماذا تشيرُ عليّ؟".

انفرجتْ أساريرُ وجهه وقال لي: "لا تصرّ على الحصول على درجة الدكتوراه، واسحب رسالتك بطلبٍ خطيٍّ كتابيٍّ موقعٍ منك يُقدَّم إلى الجامعة، مع تعهُّدٍ بتجنبك نشر رسالتك في ما بعد بصيغةٍ كتابيَّة منشورة...".

- "ثمَّ ماذا؟".

- "تطلب من ناشر الكتاب أن يتلف نسخ الكتاب التي بحوزته وتعلن على الملأ أنك تتنصّل وتتبرأ من كتابك السيئ السمعة ذاك".

- "ثم ماذا؟"

- "لا شيء. هذا كل ما في الأمر فقط".

- "لنْ أسحبَ رسالتي، وسأصرُّ على المضي قُدمًا في سبيل تثبيتها مهما كلَّفني الأمر. ولن أطلب من الناشر إتلاف النسخ، ولن أقدّم أي تنازلات بشأنه. أنا صاحبُ حقٍّ، ولنْ أفرّطَ في حقوقي في سبيل إرضاء الآخرين... فليذهبُوا إلى الجحيم".

قلت له هذا الكلمات وأنا أصارع رغبة عارمة في صفعه على وجهه. وقفت على قدمي معلناً رغبتي عن بقائه في بيتي. نهض من مكانه ثم غادر وهو يرسم على شفتيه ابتسامة بلهاء لا معنى لها.

طلبتُ إجازةً لمدة عامٍ ونصف دون راتب. وقد وافقُوا على منحي الإجازة بأسرع ما يمكن. لمْ يتعرَّض طلبي لبعض التعقيدات الإداريَّة

البيروقراطيَّة كما هو غالب في طلب إجازات من هذا النوع. يبدُو أنَّهم كانوا يريدون التخلُّص منِّي بأيِّ طريقة. حتَّى الجامعة أصبحت - في نظري - مكانًا كئيبًا يطلقُ عليه مجازًا اسم جامعة. وما هي إلاَّ أسابيع قلائل حتَّى تمَّ فصلي من الجامعة بعد تقديم الشكوى الكيديَّة في المحكمة. أرسلوا خطابَ الاستغناء عن خدماتي محاضرًا في صندوق بريدي. لم أشعرْ بالأسف، ولكنَّني شعرتُ بأنَّني قد تخلَّصتُ من مكانٍ كان يساعد في إطفاء شعلة التنوير، وتحوَّل إلى مجرَّد مكان لتصفية الحسابات، ومرتع للعقول المتحجِّرة. لا يهمُّ... طُز!

٢٥

لبثتُ على هذه الحال المشوّشة والضائعة الملامح أيّامًا طويلة حتّى استدعتني والدتي لزيارتها في القرية لأمرٍ مهم، وسرعان ما عرفتُ هذا الأمرَ المهم!

جاءتني الأخبارُ من القرية بأنَّ أحدَ أخوالي قدْ ماتَ وانتقل إلى رحمة الله. أرسلت أمّي لي لكي أكونَ حاضرًا في عزائه. مرَّت أيّام العزاء الثلاثة. وفي اليوم الرابع قبل مغادرتي القرية، اقتربتْ أمّي منّي وفي يدها حقيبة صغيرة من نوع "سامسونايت" الذي يستخدم لحمل الأوراق والملفات، وقالتْ لي: "هذه الحقيبةُ جاءت بها طليقتك حليمة، قالت إنّها لك...".

حليمة! التي تزوّجتْ بعد طلاقنا بتاجرِ مواشٍ يبدِّلُ النساءَ كما يبدلُ نعاجَه في حظائره الكبيرة، وقد طلّقها في نهاية الأمر بعد زيجة لم تستمر سوى شهورٍ قليلة، ثمَّ أغرقت نفسها في حفلات الزار، تلك الحفلات التي تُقام في أعقاب أيّام الزواج والأفراح في القرية. كانت ترقصُ بعنفٍ. تنثرُ شعرها يمينًا ويسارًا، وتخرج من فمها كلمات مبهمة غير واضحة. تظلُّ ترقصُ وترقصُ وعيناها شاخصتان ترنوان

إلى آفاق بعيدة. ترقص حتَّى تسقط أرضًا وقد انحسرت ملابسها عن مفاتنها، ثمَّ تتلقَّفها نسوةٌ فيحملنهَا من فوق الأرض وهي فاقدةُ الوعي. وشعرتُ نحوها بالأسف، ولكنَّه أسفٌ لا يفيد، ولا مبرر له على الإطلاق. كانت الحقيبةُ لا تخصّني، وكدت أعيدها إلى أمّي لكي تسلّمها لها. ولكنّني تراجعتُ في آخر لحظة لخاطر عنَّ لي. أخذتُها من أمّي صامتًا. ركبتُ سيَّارتي وغادرتُ إلى مكان سكني مرَّةً أُخْرَى...

في مساء اليوم التالي، تذكَّرتُ الحقيبةَ. أين وضعتها؟ ثمَّ تذكَّرتُ أنّني قد وضعتها في شنطة السيَّارة. أحضرتها. حاولتُ فتحها، ولكنَّها كانت محكمةَ الإغلاق. أحضرتُ سكينًا ومطرقةً. كسرتُ جزءَها العلوي بحذر، فوجدتُ داخلها دفترًا أخضرَ اللَّون، سميكَ الغلاف، ممتلئَ الصفحات. فتحتُ أوّل صفحة، وحالما اصطدمت عيناي بالكلمات المكتوبة، عرفتُ من الفور أنَّ الحقيبة كانت تخصُّ الدكتور فالح. فتحتُ على الصفحةِ الأولى وكانت المفاجأةُ المذهلةُ!

فوجئتُ بهذا العنوان الصادم لي، والذي وضعه على رأس الصفحة الأولى...

٢٦

يَوميّاتي

أغسلُ خيباتِي الجنسيّةَ فِي جزيرةِ بالِي:

الإثنين ٨/٥:

... أعودُ إلى القرية مرَّةً أُخْرَى. لمْ أكنْ أنوي العودةَ لولا إلحاحُ أمّي. حينما عدتُ، وجدتها قد أعدَّتْ كلَّ شيء. اختارت العروسَ وخطبتها. فعلتْ كلَّ شيءٍ من تلقاءِ نفسها، ولم تستشرني أبدًا. لكنّني رفضتُ بشدَّة فكرةَ الزواجِ... لا بحليمة، ولا بغيرها. لكنّها قالت لي بيأس بعد لحظة صمتٍ طويلة: "البنتُ حلوةٌ، مؤدبّةٌ؛ إذا لمْ تتزوَّجها، فسيتزوَّجها ابنُ عمِّك نوري...".

حالما سمعتُ باسمه انتبهتْ كلُّ حواسي. نوري مرَّةً أُخْرَى. لا... لنْ أدعَ ذلك يحدث حتّى لو كانت العروس نعجةً، أو شاةً!

قلتُ لوالدتي بإصرارٍ، وكانت مندهشةً من تغيّر رأيي من الرفضِ

إلى القبول بهذه السرعة: "أنَا موافقٌ... سأتزوَّج حليمة".

كلّ هذه تفاصيل لا يهمّني الخوض فيها الآن. أنا رجلٌ جريحٌ. أرغبُ بهذه الأوراق التي أكتبها في هذه الجزيرة الحالمة، جزيرة بالي، أنْ أتخفَّفَ من حملٍ ثقيلٍ جاثمٍ على صدري. من أين أبدأ؟".

الخميس ١٥/٧:

على حافةِ السريرِ، جلستْ حليمة، تفوحُ منها روائحُ العرسِ، عطورٌ مختلفةٌ اختلطت ببخورٍ يعبقُ في جوِّ الغرفة. أطيابٌ ذاتُ رائحة نفَّاذةٍ تصنعُ بطريقةٍ محليَّة ويدويَّة، ومن منتجات محليَّة صرفة. جلستُ بجانبها. من المؤكَّد أنَّ قلبي كان يخفقُ بشدَّةٍ لدرجة يخيَّل لي أنّه سوف يكسر قفصه الصدري ليخرج...

تطلَّعتُ إلى وجهها. زرعتْ عينيها عند قدميها، وقد تكوَّنتْ على جبينها حبّاتٌ من العرق. بدت لي فاتنةً. شهيَّةً ككأس ماء في صحراء لاهبة لاح لعطشان منهك القوى.

كانت تنتظرُ أن أشربها هنيئًا مريئًا...

لكن – ويا للأسف! – الشديد لمْ أشربها، بل داست هي على أنفي بقدميها.

"... ألجمَ جمالُها الفاتن لُبّي. كنتُ مبهورًا ومستغربًا من أن هذه القرية التي تسفي عليها الرياحُ المغبرةُ طوالَ العام تحوي جمالاً يأخذُ بالألباب، وفريدًا بمثل هذه الرّوعة حدَّ الفتنة"، هكذا هجستُ لنفسي.

كبرت حليمة في غفلةٍ من الزمن. كنتُ أراها تلعبُ مع أترابها

ككلِّ بنت من بنات القرية: خمس، سبع، عشر سنوات، لا أدري...

كانت أمامي تبدُو كعكةً شهيَّةً مستعدَّة لكي تُقضَم...

ولكنَّني - بكلِّ أسفٍ - لمْ أستطعْ قضمَها!

ورغم أنَّني لا أجيدُ الكلمات الموحية، التي تثيرُ السامعَ، وتحرّك دواخله، فإنَّني في تلك الليلة بالذات أصبحتُ مثل شاعرٍ من الدرجة العاشرة، فاندلقت كلمات المديح منّي بلا حسابٍ...

تناولتُ يدَها البضَّة. كانت دافئةً لدنةً. أظفارها المقصوصة بعنايةٍ. خواتمها الذهبيَّة التي اشتريتُها لها من أشهر تجَّار الذهبِ في مشوارٍ خاطفٍ تمَّ قبيل عقد القِران. الخواتمُ الذهبيَّةُ شكّلت مع بياضِ يديها انسجامًا لونيًّا باهرًا، كأنَّها دفقةٌ من نور أو شيءٌ أشبه بشهابٍ يضيءُ ما بين السماء والأرض. لعنتُ كلَّ يومٍ قضيته وحيدًا وهائمًا على وجهي في المدن البعيدة.

قبَّلتُ يدَها، وعيناي ترقبان ردَّ فعلها...

ولكنْ حدث ما لمْ يكنْ في الحسبان. في تلك الليلة، تحرَّك كلُّ شيء قابل للحركة في جسدي، قلبي الخافق، يداي المرتعشتان، عيناي اللتان كانتا تجولان في تضاريسِ جسدِ حليمة. كلُّ عضوٍ كان يتحرَّك إلاَّ... إلاَّ... هذا اللعين! لماذا لا ينهض؟

لماذا خذلني في أهمِّ لحظة في حياةِ كلِّ رجلٍ؟

لماذا حدث ذلك لي؟ خذلني بدرجةٍ أقل مع "زاهية" في لندن وغيرها في مدن كثيرة، فلماذا يخذلني الآن؟ لماذا يخذلني وهو حلالٌ وغيرُ مُحرَّمٍ؟ ولماذا يخذلني وهو مُحرَّم غيرُ حلالٍ؟

لكنْ مهلاً...

أذكر جيِّدًا أنّه مع زاهية انتفضَ عندما رأيتُ دموعها. هذا اللعينُ لا ينهضُ إلاّ إذا رأى الدموعَ ولحظاتِ الضعفِ البشريِّ.

لكنَّ حليمة لم تكنْ تبكي.

هل من المعقول أن تبكي عروسٌ ليلةَ عرسها؟

هل أنا مريضٌ؟

لا أعرفُ أيَّ جوابٍ...

أنا شعلة النور التي أضاءت البلد كلّها بالعلم والتنوير. أيعقلُ ما يحدث لي؟

غطّاني العرقُ، حتّى شعرت به باردًا في ظهري... بدا أنّه لا ينتمي إلى جسدي البتة. جزءٌ لا لزومَ له ولا منفعة منه. كان ميتًا كمومياءٍ تعاقبت عليها أزمنةٌ مديدةٌ، كحجرٍ صامتٍ ملقى على قارعةِ الطريقِ.

فجأةً لَمْ أعدْ أشعرُ بوجودها كأنثى. تلاشتْ كصورةٍ اختلطت ألوانُها بفعل عابث أحمق...

ثمَّ غاب الكلامُ فبدوت كأخرسَ فَقَدَ النطقَ. زاغتْ عيناي، فلمْ تعودا تربطان بين الأشياء...

يبدو أن حليمة التقطت كلَّ ذلك بحدس الأنثى الذي لا يخيب. لاحظت صمتي، وارتباكي، وعرقي الغزير، ويديّ المرتعشتين. نهضتْ من مكانها، ثمَّ استلقتْ على السرير بكلِّ ملابسها. تكوَّرت حول نفسها. ضمَّت ركبتيها إلى صدرِها. ثمَّ خمدتْ حركتها. بدتْ كصنم نُحتَ من صخرٍ باردٍ، ثمَّ بعد قليل نطقتْ بأوّل أربعِ كلماتٍ: "أطفئ النورَ أريدُ أنامُ!".

لمْ أشعرْ بمثل هذه المهانة طول عمري...

بكيتُ بصمت. كنتُ حريصًا على ألّا تصدرَ منّي حركةٌ تؤكّد ألمي وعذابي. كان ظاهري ساكنًا باردًا، وداخلي يمورُ بصخبٍ وضجيج، لو قُدّر له الخروج لملأ الدنيا عنفًا، وفوضى لا يمكن لأحد أنْ يتنبأ بمداه. لا أدري كمْ مكثَ على تلك الحالة.

خرجتُ من شرودي الطويل على صوتِها الذي كان يغالبُ النومَ: لماذا لمْ تنمْ؟

أفقتُ من غيبوبتي السمعيَّةِ والبصريَّةِ كمن يفوقُ من كابوسٍ. نظرتُ إلى أصابع يديَّ المرتعشتين. كانت الشمسُ قد سطعتْ وأضاءتْ بنورها الكونَ والنَّاس.

الجمعة ١٦/٧:

... أصبحَ كلُّ شيءٍ صغيرًا جدًّا في عينيَّ في صباح اليوم التالي. بدأت القريةُ كأنَّها مقبرةٌ للموتى يلفُّها الصمتُ الموحشُ، والهدوءُ المستفزُّ للأعصابِ...

خرجتُ من البيت محمَّرَ العينين، مشوَّشَ الفكرِ...

ركبتُ سيَّارتي. كنتُ أسيرُ على غير هدي في الشوارعِ الترابيَّةِ للقرية. أتحاشى النَّاسَ قدر استطاعتي. لمْ أشعرْ بنفسي إلاَّ وأنا في بطنِ الصحراءِ المحيطةِ بالبلد، حيث لا أحد سوى أشجار القرض والسلم، وقتها تمنَّيتُ من كلِّ قلبي لو أنَّني كنتُ مجرّد شجرة شبه ميّتة، جرداء من أوراقها وإخضرارها، تنتصبُ واقفةً في شموخٍ متلاشٍ في الصحراء. يستظلُّ بها الماشي من هجير الشمس، أوّ

تتمحكُ بها عنزةٌ جرباءُ، أو يقطعها فأسٌ حادٌّ لتصبح حطبًا وجمرًا مشتعلاً لا تنطفئ جذوته إلاَّ بعد مضي وقت طويل.

مكسورًا مقهورًا. أشعرُ بذلك الألم الممضِّ الذي ينحدرُ من رأسي حتَّى أخمص قدمي. توقَّعتُ أنْ أُصابَ بطعناتٍ كثيرةٍ في حياتي إلاَّ هذه الطعنة الحقيرة المحطِّمة القاتلة. ها هي تستيقظ مرَّةً أُخرَى. لا أعرفُ بالضبط ما الذي حدث لي.

مكثتُ في الصحراء حتَّى المساء. بحلول منتصف الليل، عدتُ إلى المنزل. كنتُ أسيرُ في الطرقات، وعيناي لا تبصران أبعدَ من نور سيَّارتي. أخلدَ النَّاسُ إلى النوم، يودِّعون يومًا ليستقبلوا يومًا آخرَ أتمنَّى ألاَّ يجيء. كنتُ أدعو في نفسي أن أجدَ عروسي نائمةً...

كنتُ أقتربُ من البيت، ومع اقترابي بدأ قلبي يخفق بشدَّةٍ، وعندما وصلتُ إلى البيت، فتحتُ الباب بهدوء. انسللتُ إلى الداخل. كان الهدوءُ يغمر البيت. لبثتُ واقفًا على باب البيت وقتًا لا أعرفُ مقداره. تقدَّمت نحو غرفة النوم. أرسلتُ بصري فوجدتها نائمةً نومًا بدا عميقًا. كانت شفتاها منفرجتين، وذراعاها البضَّان يلمعان ببياضٍ زاهٍ لا تشوبه شائبةٌ.

بدت في اللحظة أمام عينيَّ مخلوقًا جديدًا لَمْ أره من قبل، مخلوقًا من نورٍ يشعُّ ويكسرُ حدة الظلام الكثيف. اقتربتُ منها بحذرٍ، وعيناي تجوسان في مفاتنها التي انحسرت في أماكن كثيرة من جسدها...

يبدو أنَّها لَمْ تكنْ تنتظرني على الإطلاق، فنامت. شعرتُ بمرارة هذه الفكرة المؤلمة تحزُّ في صدري مثل سكينٍ حادَّةٍ.

لمْ أكنْ مشغولاً إلاّ بالجزء السفلي من جسدي، لعلَّ الحياةَ تبعثُ فيه من جديدٍ. ولكن يبدو أنَّه لا فائدةَ على الإطلاق؛ لقد خذلني للمرّةِ الثانيةِ.

خرجتُ أجرُّ أقدامي جرًّا إلى الحجرة التي تخصُّ الضيوفَ من الرجالِ. كانت في زاويةٍ قصيَّةٍ من فناءِ البيتِ الواسعِ.

جلستُ القرفصاءَ أندبُ حظًّا عاثرًا وكرامةً مهدرةً. أنهكني التفكيرُ ونالَ من جسدي وعقلي. نمتُ، ولم يكن نومي عميقًا، بل كان متقطعًا كنومِ القططِ!

قبيل الفجر، انسحبتُ من البيتِ بهدوءٍ، ركبتُ سيَّارتي وعدتُ إلى الصحراء مرَّةً أُخْرَى...

السبت ١٧/٧:

... لمْ يمهلني الوقتُ لكي يمتدَّ ويعذبني أكثرَ وأكثرَ، وكما تأتي تلك الانتباهة التي يسببها حلمٌ مرعبٌ، خطرَ لي أنْ أتركَ المكانَ من الفور قبل أن تزيدَ الأمورُ تعقيدًا. سافرتُ إلى مقر عملي والألم يعتصرُ جوانحي بعد الذي حدث في تلك الليلة والليالي اللاحقة بالطبع. لمْ يؤلمني شيءٌ أكثر من أنّني مكثتُ تلك الأيّام الثلاثة التي أعقبت العرس أقلب في رأسي المترعِ بالأسئلةِ الحائرةِ الملحاحةِ التي لمْ أجدْ لها أيَّ جوابٍ.

كانت حليمة من النوع الذي لا يرحمُ مَن يقصِّر في الإتيانِ بواجباتِهِ على أكمل وجه، فزادني ذلك ألمًا على ألمٍ، وعذابًا فوقَ عذابٍ...

لمْ ترحمني، فقدْ حاربتني بسلاح قاتلٍ لا يرحم. اغتالتني بسلاحِ لغة العيون، وحركات الجسد، والكلماتِ حمَّالة الأوجه...

كانت في أحيانٍ كثيرة تتكلَّم معي وهي لا تنظرُ إليَّ، وفي لحظاتِ أخرى يبلغُ بها الجنونُ مداه، فتصعِّر خدَّها بازدراء عنّي...

ثلاثة أيّام مرَّت كأنَّها دهورٌ متطاولةٌ... لا بدَّ أنْ أرحلَ من هنا على وجه السرعة...

وضعتُ ثيابي كيفما اتَّفق في حقيبةٍ صغيرة. كنتُ أحملُ الحقيبةَ على كتفي حينما وقفتُ عند الباب، أنظرُ إليها بعينٍ مكسورة، ووجيب قلبٍ محطم ينشجُ ببكاءٍ صامتٍ. ووقفتْ، هي، لكي تودِّعني، أو تطردني، أو تلغيني، أو تمحوني من الوجود. لمْ أكنْ أستطيعُ أن أفسِّرَ تلك النظرات التي تربكني وتحيِّرني وهي تنظر بها نحوي.

وخرجتُ...

لم أنتظرْ وداعًا، ففي مثل هذه الحالات، يكون الوداعُ شيئًا لا لزومَ له، شيئًا زائدًا عن الحاجة...

غبتُ كثيرًا عن البلدة، ولكنّني عدتُ في آخر الأمر... لا مفرّ...

كنتُ أريدُ أن أتأكَّد من نفسي بكلِّ السُبل طبيًّا ونفسيًّا. هلْ أنا سليمٌ فعلاً من هذه العاهةِ الموجعةِ؟

الأربعاء ٧/٢٩:

... كخطوةٍ أولى من مراحل العلاج الذاتيّ، سافرتُ إلى جزيرة

بالي. هذه الجزيرة التي رشَّحها لي أحدُ الأطباء الأصدقاء لكي أشدَّ إليها الرِّحالَ بعد أنْ تكالبت عليَّ الظروف السيِّئة، التي كادت أن تهوي بعقلي. قال لي الطبيبُ بيقين: "حتمًا ستجد لكَ في بالي مكانًا تستطيعُ فيه نسيانَ كلِّ الآلامِ والخيباتِ. فردوس أرضي حيويّ يتناغم فيه ببساطة مذهلة الجسد مع الروح. هذه الجزيرة تربة خصبة تمتصُّ كل ما هو سلبي، وتعززُ كل ما هو إيجابي... نفسيًّا بالطبعِ. جرّبها. لن تندمَ. أنا أضمنُ لكَ ذلك، فقط استرخِ وسيكون كل شيءٍ على ما يُرام".

سافرتُ إلى جزيرة بالي، ووجدتُها بالفعل كما قال. ذرعتُ شواطئها طولاً وعرضًا، زرتُ متاحفها المفتوحةَ في الهواء الطلق، شاهدتُ رقصاتِها التي لا تنتهي: رقصة للحصاد، ورقصة للزواج، ورقصة للموت، ورقصة للحزن، ورقصة للفرح. دخلتُ معابدها، ومشيتُ خلفَ جنائزها التي تحرق جثثها في الغابة، ثمَّ يذر رماد الموتى في البحر مع مغيب الشمس. راقبتُ بانتباهٍ شديدٍ عاداتها اليوميَّة التي لا تنتهي في رحلة تشبه رحلة الحياة والموت. صفوفٌ طويلةٌ من نساءٍ يسرن وهن يحملنَ على رؤوسهنَّ قففًا من الخوصِ رُصَّت فوقها بشكلٍ مذهلٍ أنواع شتَّى من الفواكه الاستوائيَّة. فتياتٌ في بواكير العمر يمشينَ بخطى وئيدةٍ، وهدوء شامل نحو رحلة العدم والفناء. مكثتُ فيها أكثرَ من شهرين، تناسيتُ الكثيرَ من الأوجاعِ والآلام، ولكن بعضها بقي كامنًا كمونَ النار تحت الرماد...

كلُّ شيءٍ تغيَّر بعد لقائي بعايدة... كانت عايدة، أو آيدا المرحلة

الأخيرة من الشفاء. الحلوى التي نلتهمها بعد الوجبة الدسمة ونتلذّذ بطعمها.

كانت تعملُ في مطعم صغيرٍ. ما إن تنتهي مناوبتها حتّى تجدني في انتظارها، نذهبُ معًا إلى الفندق الذي أقيم فيه...

آيدا فتاةٌ من جزيرة بالي، التقيتُها، وكانت من تلك الوجوه القليلة التي ألقتها المصادفة البحتة في طريقي.

كانت تخدمني كما تخدمُ روّاد المطعم، وقبل سفري بيومين حدثتْ لها مشكلةٌ صغيرةٌ مع أحد الزبائنَ الذين يعتقدون أنَّهم بأموالهم يستطيعون شراءَ كلِّ شيءٍ. يبدو أنّه أراد أن يصطحبها معه إلى حجرته في الفندق الذي يسكن فيه، ولكنّها رفضتْ رفضًا قاطعًا. كانت ترتعشُ من فرط الانفعالِ والخوفِ، وهي تقدِّم إلي طعامَ العشاء...

في تلك اللحظةِ فقطْ دقّقتُ النظرَ في وجهها، كأنّني ألمحهُ للوهلة الأولى، يا لتلك اللحظة المجنونة التي توقّف فيها عقلي، واشتعلت رغباتي المكبوتة مرّةً أُخْرَى من تحت رمادها.

سألتُها: "ماذا يريدُ ذاكَ الرجلُ؟".

لم تستطعْ أن تجيبني، فلقدْ لمحتُ دموعًا تنحدرُ على خدٍّ وجه رأيته للوهلة الأولى مألوفًا لديَّ، ولكنّني رغم رؤيتي له كلَّ يومٍ على مدى شهرين، لمْ أكنْ أراهُ كما أراهُ الآنَ. كان وجهًا مرعوبًا، وخائفًا، وباكيًا...

كانت يداها ترتعشان، ولا أدري كيف تجرّأتُ وأمسكتُ بيدها المرتعشة، ووجدت نفسي أقولُ لها: "لا تخافِي سأكونُ بجانبكِ،

ولنْ يستطيعَ أحدٌ أنْ يمسَّ شعرةً من رأسكِ".

الخميس ١٠/٩:

...لا أدَّعي أنَّني كنتُ أريدُ أنْ أكونَ بطلاً في جزيرةٍ نائيةٍ تتجسَّد فيها أحلام ورؤى كثير من مرتاديها، لا... لكن في المقابل كنتُ أعني ما أقوله، وكنتُ على أتمِّ استعدادٍ لتنفيذه.

كانت تلمحُ في عينيَّ تصميمًا وعزمًا لا يلينُ انتقل إليها من خلال يدي القابضة على أصابعها المرتعشة، فذهب عنها الخوفُ واطمأنتْ. ولمحتُ طيفَ ابتسامةِ امتنانٍ أو شكرٍ، لا أعرف، فكلُّ الذي أعرفه أنَّني أنَا الذي أرتعشُ من الدَّاخلِ كسفينةٍ تقاوم عاصفةً هوجاءَ في بحرٍ هادرٍ.

لمْ يبقَ على سفري سوى ثلاثة أيَّام، قضيتُ جلَّها في ذلك المطعم الصغير. في تلك الجزيرة، كنتُ خلالَ تلك الأيَّام أراها تنتقلُ من طاولةٍ إلى طاولةٍ كعصفورٍ جميلِ الريش يطيرُ من غصنٍ إلى غصنٍ، بعيدًا ومنزَّهًا عن الدنس...

ومن لمحاتٍ خاطفةٍ أرسلت رسائلي غير المرئيَّة إليها، واستقبلت أيضًا رسائلها وكنَّا سعداء بطريقة التواصل تلك التي قلَّما تخطئُ في ترجمة ما تحمله، إن خيرًا فخيرٌ، وإنْ شرًّا فشرٌّ...

جاءت عايدة إلى حجرتي...

كانت تبكي من التأثّر وتقولُ لي إنَّني رجلٌ نبيلٌ. وكلَّما ازداد بكاؤها وضعفها نهضتْ رغبتي، وتعاظمت واستطالَ "سلاحي" المعطوب! ألقتْ برأسها في حجري وهي تبكي. ثمَّ... أمسكتُ

بها، وألقيتُ بها على السرير و... تمَّ كلُّ شيءٍ على ما يُرام.

مضت الأيّامُ الثلاثةُ بسرعةٍ غريبة، وفي ليلة سفري، أخبرتها أنَّني سأغادرُ إلى بلادي في صباحِ الغدِ.

الأحد ١٠/٣:

... أويتُ اليومَ في فراشي في الفندق مبكّرًا، فسفري سيكونُ في الصباح الباكر. وفي تلك اللحظات المسمَّاة الوسن، التي تسبق النوم مباشرةً، رنَّ جرسُ التليفون، فأمسكتُ السمَّاعة وكانت هي على الخط: "مستر فاله – كانتْ تنطقُ الحاءَ هاءً – أنَّا في غاية الأسف على إزعاجك، ولكن أحبُّ أنْ أشكرك على موقفك النبيل معي في اليومين السابقين".

– "لمْ أقدِّمْ أيَّ شيءٍ يستحقُّ الشكر".

– "أنتَ رجل جنتلمان حقيقيّ مستر فاله...".

– "شكرًا لكِ. أتمنَّى أنْ أكونَ كذلك".

– "أتمنَّى لك سفرًا سعيدًا".

– "شكرًا".

– "مستر فاله، ممكن أسألك سؤالًا...".

– "ممكن جدًّا".

– "هل ستعودُ إلى الجزيرة في إجازتك المقبلة؟".

بدأ نبضُ قلبي يزدادُ، وحرصت أن أكونَ محايدًا، فأنا في حالة نشوة داخليَّة، أعادت ترتيب كلِّ شيءٍ داخلي...

– "ربَّما أعودُ يومًا ما...".

بعد لحظةِ صمتٍ بسيطة قالت: "إذا عدتَ يومًا إلى هنا، وأحببتُ أن تَراني، فلَنْ تجدني في المطعم...".

- "...!".

- "سأنتقلُ إلى أوبود أقدس مكان للهندوس في جزيرة بالي لكي أكونَ راقصةً في معبدٍ...".

- "راقصةٌ في معبدٍ؟".

- "نعم مستر فاله، فأنَا هندوسيَّة، والرقصُ عندنا ليس مجرّد رقص من أجل الرقص؛ إنَّما شعيرة تعبديّة في واقع الأمر...".

كانت لغتها الإنكليزيَّة، وطريقة نطقها حروفها تعذيبًا لي بحدِّ ذاته، فهي تتحدَّث وتخلط حديثها بضحكاتٍ قصيرة تمامًا مثلما يتحدَّث طفل لأوَّل مرَّة، وتكون سعيدًا لتكسيره الحروف، وقواعد النطق المألوفة".

استمرَّت تلك المكالمةُ قسمًا كبيرًا من الليلِ كنّا فيها معًا نعيدُ تشكيل خرائط علاقة ما، كنّا نتحدَّث لمجرد الحديث والألفة.

انتهت في وقت متأخِّرٍ تلك المكالمة بعد وعود كثيرة بالعودة ووقتها وكيفية البحث عنها عندما أعودُ، ولكنَّني لمْ أعدْ...

لمْ أعدْ إلى جزيرة بالي الحالمة، وإن كان في ليالٍ كثيرة أحرقني الشوق لها، وللعودة إلى هناك مرَّةً أُخْرَى.

هنا أكتشفتُ أنّ ما حدث لي في القرية مع حليمة ما هو إلاَّ مرضٌ عارضٌ مثل كل الأمراض التي تصيبُ البشر. ربَّما كان ارتباكًا، سوءَ حظٍّ، أزمةَ ثقة، اضطرابَ هرموناتٍ... أو أيِّ شيءٍ من هذا القبيل. الآنَ أنا رجلٌ جديدٌ، وهذا كافٍ بحدِّ ذاته.

السبت ٣/١٦:

... قرَّرتُ العودةَ إلى حليمة...

أعترفُ أنّني رجلٌ لا ينسى ثأره بسهولة، وسوف أعود يومًا لتصفية حساباتي معها...

ولكنْ قبل ذلك لا بدَّ أن أتركها تتعذَّب بنار الانتظار...

لمْ أعدْ إلى القرية إلاَّ بعد ستة أشهر...

حينما عدتُ إلى البلدة لمْ أنسَ ما حدث لي، بل جئتُ خصيصًا آخذًا بثأري!

كنتُ رجلاً آخرَ غيرَ الذي كانَ هنا قبل الخروج، أو الهرب الكبير. تركتُ حليمة كلَّ هذه المدَّة لكي تتقلَّبَ في طينة الهجر والإهمال وتغرقَ في حمأة النسيان. أردتُ من ذلك الغياب المقصود أن يكونَ عقابًا لها. حينما كنتُ ألتقي برجلٍ من رجال القرية في المدن البعيدة عن طريق المصادفة لمْ أكنْ أسألُ عنها على نحو مباشرٍ ومكشوفٍ. كنتُ أسألُ عن أمّي، وعمَّن يخدمها في غيابي. أسأل بأسلوبٍ عرضي وموارب. فيقولون لي: "لا تخفْ يا دكتور. اطمئن. أمّك بخير وعافية. زوجتك حليمة لم تقصِّر معها، قائمة على رعايتها ليلاً ونهارًا، وعلى أكملِ وجهٍ...".

بهذا الأسلوبِ، كنتُ أتسقَّطُ أخبارَها...

الثلاثاء ٣/١٨:

... حينما عدتُ كان الصيفُ في أوجهِ. حرارةُ الأرضِ تفوحُ من

أسفل وتصعدُ إلى أعلى، تشوي الوجوهَ، والرطوبةُ تحبسُ الأنفاسَ، وتغمرُ الأجسادَ بالعرقِ والصدورَ بالضيقِ والغضبِ.

القريةُ بقيت كما هي. لمْ تزدْ، ولم تنقصْ. في جنوبها الوادي الغنيُّ بالحياةِ والشجرِ، وفي شمالها الصحراءُ برمالها وكثبانها العملاقة في صورةٍ متباينة. البلدةُ تضعُ قدمًا في الارتواء وقدمًا في الظمأ. كانت مثل صورةٍ جمّدها الزمنُ في ومضةٍ خاطفةٍ. تلوح أمامي في ساعةِ العصر بيوتها الطينيَّة والقشّيّة، وأشجارُ واديها الكبير الرابض أسفلها. بدا الغبارُ يخفُّ قليلاً. قرَّرتُ أنْ أدخلَ القريةَ في آخرِ الليل حتَّى لا يراني النَّاسُ. لا أريدُ أن أرى أيَّ أحدٍ حتَّى أمّي. جئتُ لكي أصفِّي حساباتي القديمة مع حليمة. قرَّرتُ أن أباغتها حتَّى تراني أمامَها بلا سابقِ إنذارٍ...

وفي سبيل ذلك، كنتُ أتجوَّلُ بسيَّارتي بعيدًا عن القرية. جاء منتصفُ الليلِ. أدرتُ مفتاحَ سيَّارتي، وتوكلتُ على الله. حينما اقتربتُ من البيت، رميتُ بالشماغِ على الأرض، ودخلتُ البيتَ، فتحتُ البابَ بقوَّةٍ، ودخلتُ بلا سلامٍ، ولا كلام.

ركلتُ البابَ وقدْ تجمَّع غلُّ كلِّ العالم في صدري. تتالت ذكريَاتي: خروجي من بيتي ذليلاً مكسورَ الخاطر؛ أعودُ كقائدٍ منتصرٍ من معركةٍ ضروسٍ. بحثتُ عنها. وجدتها نائمةً. كانت تلبسُ ملابسَ شفّافةً تليقُ بلحظات النوم فعلاً. هلْ كانت تنتظرني، أم هي على علمٍ مسبقٍ بعودتي، أو أنَّها ربما كانت تنتظرُ عشيقًا بمثل هذه الملاَبس الفاضحةِ. لا يهمّْ. المهمُّ أنني وصلتُ. لي ثأرٌ عظيمٌ لم يمتْ. دَينٌ سوفَ استوفيه بكلِّ ما أستطيع. كانت

لحظة تستحقُّ أنْ تُسطرَ بماءِ الذهب. وضعتُ حقيبتي على الأرض. شعرتْ بحركتي في البيت. انتبهتْ من نومها مفزوعةً. كان العرقُ يتصببُ من جسدها غزيرًا. حاولتْ أن تنهضَ، ولكن بإشارة حازمةٍ من يدي، وبصوت أنكرته أن يخرج من حنجرتي قلت لها: "مكانَك يا بنتَ النّاسِ. لا تتحرَّكي من سريرك".

ثمّ...

أفزعتني الحركة، وقد شلَّتني المفاجأة. طلبتُ منها أن تعيدَ لي ما قالته منذ قليل: "أنا مشكوكةٌ".

قمتُ من فوقها. عقلي مشوَّشٌ ومضطربٌ. ارتديتُ ثيابي وذهبتُ إلى بيت أمِّها. طرقتُ البابَ عليها. فتحت البابَ وهي تغالبُ النّعاس. سألتني باستغرابٍ: "ما بكَ؟ متى عدتَ؟".

لمْ أجبْها بجوابٍ، ولكنَّني سألتُها سؤالاً واحدًا: "هلْ ابنتكِ مشكوكةٌ؟".

هزَّت رأسَهَا وقالتْ لي: "نعمْ...".

– "ولماذا لمْ تخبريني في وقتهَا؟".

– "لمْ تدعْ لي فرصةً لإخبارك، فقد غادرتَ سريعًا بعد زواجك بأيّام...".

– "والحلُّ؟".

– "ليس هناك من حلٍّ سوى استدعاءِ الخاتنةِ لفتحِ الشَّكِّ...".

– "متى؟"

– "الآنَ... اسبقني إلى البيت، وسألحقُ بك هناك برفقة الخاتنة".

عدتُ إلى البيت. وجدتُها تبكي. حاولتُ الاقتراب منها، ولكنَّها كانت تصرخُ وتبكي وجسدُها ينتفضُ. بعد قليلٍ جاءت أمُّها ومعها الخاتنةُ. كانت امرأة يمكن وصفها بكلمةٍ واحدة: مرعبة...

ما إن وقعَ بصرُ حليمة على الخاتنة حتَّى أخذتْ تبكي بهيستيريَّة مثل طفلةٍ مرعوبةٍ. تبكي وتصرخ. كوَّرت الخاتنةُ قطعةً من القماش، ووضعته في فمها. قالت لي بصوت حادٍّ: "اقتربْ".

اقتربتُ منها، قالتْ لي: "أمسكْ جيِّدًا برجليهَا...".

تردَّدتُ قليلاً، ولكنَّها صرختْ في وجهي بصوتٍ عالٍ: "أمسكْ فخذَيها...".

أمسكتُ بفخذَيها بكلِّ قوَّتي. مدَّت الخاتنةُ بيدها اليمنى إلى صدرها. استخرجتْ موس حلاقة، اقتربتْ من حليمة وبيدها الموس. كانت عينا حليمة في تلك اللحظةِ الفارقة يطلُّ منهما رعبٌ قاتلٌ. تهزُّ رأسها بقوةٍ يمينًا ويسارًا. تتلوى. تتشنَّجُ عضلاتها. وبخفَّة مرَّرت الخاتنةُ حدَّ الموس على قطعةِ الجلدِ التي تُغطي فتحة المهبل، فانتثرَ الدم مثل نافورة. اختلجت قدما حليمة بين يدي القابضتين عليها بقوَّة. كانت مثل دجاجةٍ تمّ ذبحُها وهي ترقصُ رقصتها الأخيرة وسط دمائها بعد قطعِ رأسها. انتشلتني الخاتنةُ من ذهولي وقالتْ لي: "هيَّا، أدِّ عملكَ الآن؟".

– "ماذا أفعلُ؟".

صرختْ في وجهي: "ماذا تفعل؟ أُدخل على زوجتكَ فورًا".

وقبلَ أنْ تخرجَ قالتْ لي منبِّهةً: "إيَّاكَ أن تزيلَ قطعة القماش التي تسدُّ فمها، إلاَّ إذا أردتَ أن يسمعَ صراخَها كلُّ سكان الوادي...

هيّا أُدخلْ...".

خرجت الخاتنةُ برفقة أمّ حليمة. أقفلتا الباب، وجلستا أمامه في الخارج. نظرتُ إليها. كانت تبكي. تشيرُ بيدها ورأسها إلي ألاّ أفعل شيئًا. اقتربتُ منها، وكما حدث لي مع زاهية، ومع عايدة، شعرتُ بسلاحي الهامد ينهضُ من نومته الطويلة. عرفته جيدًا لا ينهضُ إلاّ بوجود الدموع والدماء. اقتربتُ منها. لمْ ألقِ بالاً لكلّ حركاتها المكتومة. أنزلتُ سروالي إلى الأسفل، ثم...!

انتهى كلُّ شيء بلمحِ البصرِ. رفعتُ سروالي ولبستُ ثوبي. واتّجهتُ نحو الباب لأبلغَ المرأتين بافتضاض البكارة. قبل وصولي إلى الباب المغلق، التفتُّ نحو حليمة، كانت كما يبدو في غيبوبة. ارتخى جسدها بعد أن دوّت بتلك الصرخة التي لم تفلح قطعةُ القماش التي تكمّمها في كتمها. فتحتُ البابَ وأشرتُ إليهما برأسي للدخول. دخلت الخاتنةُ وأمُّ حليمة. اقتربتا من العروسِ المسجّاةِ على السريرِ. كانت بقعة كبيرة من الدماء تنتشر على الفراشِ. نظرت الخاتنةُ في مكمنها، ثمّ قالتْ لأمّ حليمة: "كلّ شيءٍ على ما يُرام!".

ثمّ غادرت المكانَ بهدوءٍ بعد أن نفحتها أمُّ حليمة مبلغًا من المال...

الأحد ١٩/٤:

... الأيّامُ اللاحقةُ كانت تعذيبًا لي. لمْ أقدرْ أنْ أنظرَ في وجهها. وتكوّرت على فراشها. لمْ تكنْ تبكي. كان كلُّ ما تفعله هو النظرُ

الطويلُ في نقطةٍ بعيدةٍ غير مرئيَّة. بعد أيّامٍ قلائل جاءني صوتها عميقًا حزينًا مرتعشًا: "إذا كانت فيكَ ذرَّةٌ من رجولةٍ فطلقني!".

قلتُ لها بهدوء: "سيكونُ لكِ ذلكَ في أقربِ وقتٍ".

لكنَّ الطلاقَ لمْ يتم سريعًا، حتَّى لا تلوك النَّاسُ في سيرتنا، وكان هذا رأي أمّها. لكن الانفصالَ الحقيقيَّ تمَّ بعد مرورِ عامٍ كاملٍ...

٢٧

أينَ وضعت هذا الدفتر اللعين؟ هلْ ضاعَ منّي؟

مصيبةٌ كبيرةٌ لو وقعَ هذا الدفتر في أيدي النّاس، وخصوصًا ممَّن يعرفونني شخصيًّا. كتبتُ فيه باسمي الصريح يوميّاتي، وكلَّ مخاوفي، وسقطاتي، وخيباتي بصدقٍ منقطعِ النظير. الكتابةُ قد تكونُ علاجًا لجروح النفسِ واعتلالاتها، قد تكونُ تنفيسًا عن المكبوتِ الذي لا نستطيعُ البوحَ به لأقرب المقرَّبين منّا.

أين وضعته يدي؟ هلْ سيضيعُ منّي كما ضاعت منّي حليمة؟

كانت حليمة - ولا تزال - جرحًا يأبى أنْ يندملَ. أدركتُ متأخرًا أنّني قد أخطأتُ بحقّها كثيرًا، ولكن أخطائي كانت من النوعِ الكارثيِّ الذي لا يمكنُ أن ينساه المرءُ بسهولة. سأحاول في أقربِ فرصةِ العودةَ إليها. جُنَّ جنوني عندما علمتُ أنَّ هذا المخنَّث المدعُو نوري يريدُها زوجةً له. يريدُ أنْ يتزوَّجها بعد طلاقي منها. لا... لن يتمَّ هذا الأمرُ. قبيل زواجه بأيّام جئتُ إلى القرية، وبصحبتي عايدة، أو آيدا فتاة جزيرة بالي. استقدمتُها لتخدمَ أمّي وتهتمَّ بها أثناء غيابي. كانت تتقنُ لغتنا لأنّها سبقَ لها العمل

هنا كما قالتْ لي. تركتُ الرقصَ في معابد جزيرة بالي، وخدمتُ في الخليج مدَّة ست سنوات. زرتُ نوري في بيته. حاولتُ بطريقة وديَّةٍ أن أثنيه عن الزّواج بحليمة، فأبى. قال لي: "إذا كان أمرُها يهمّكَ لهذه الدرجةِ، فلماذا انفصلتَ عنها؟ هل أنتَ وليُّ أمرِها لتمنعني من الاقترانِ بها على سنَّةِ الله ورسولِهِ؟".

لمْ أحر جوابًا...

أحرجني هذا اللئيمُ. رجعتُ من بيته خائبًا. غادرتُ البلدةَ سريعًا لأنَّني لم أكنْ سأحتمّل أن تُزفَّ حليمة إلى رجلٍ غيري. أعرفُ تمامًا أنَّها يومًا ما سوف تفضحني أمام غريمي. ستكشفُ سرّي لا محالة. نوري الذي دومًا كنتُ أراه منافسًا شرسًا لي في كلِّ شيءٍ. حتَّى عندما كنّا نسافر معًا. كانت العاهراتُ يتهافتنَ عليه ويتحاشينني. في لندن، التقينا بفتاتين عربيَّتين في إحدى الحانات. ذهبتا معنا إلى الشقَّة. كانت صاحبتي اسمها زاهية. حاولتُ أن أفعلَ معها كما يفعلُ الرجلُ بالأنثى ولكنَّني فشلتُ. نعمْ، فشلتُ. كان ذلكَ شيئًا مرعبًا لي. طلبتُ منها يومًا ما عندما كنتُ معها في غرفةِ النومِ أن تصدرَ أصواتًا من نوعِ تلك الأصوات التي تطلقها الأنثى أثناءَ اللقاءِ الحميميّ. كنتُ أعرفُ أنَّ نوري وصديقته جالسان في الصالة ويسمعان تلك الأصوات. دفعتُ لزاهية مالاً كثيرًا لتفعلَ ذلك. رأت الملعونةُ لهفتي فساومتني عليها! دفعت مئات الباوندات حتَّى تقبلَ. نجحتْ خطَّتي. حينما خرجتُ من الحجرة، رأيتهما يبتسمان.

لكن غيظي وكرهي لهذا "النوري" ازداد وتعاظم داخل

صدري. خطرتْ لي خاطرةٌ سريعةٌ. أغرقتهما ذات يوم في حفلة حمراء ماجنة، وسقيتهما كؤوسًا كثيرةً من الخمر، وحينما عرفتُ أنَّ الخمرَ قدْ بدأ مفعوله، التقطتُ صورًا فوتوغرافيَّةً له مع صديقته في أوضاع مخلَّة صنعتُها بيدي. في غمرة السُكر، عرَّيتهما من ملابسهما بيديَّ إلاَّ من ورقةِ التوت. قاربتُ بينهمَا، ثمَّ التقطتُ عشراتِ الصورِ وهما لا يشعران بما يحدثُ لهما. أخفيتُ الصورَ عنه. حال عودتي ذهبتُ بها إلى معمل التصوير عند رجلٍ يعملُ في تحميض الأفلام. باكستانيّ الجنسيَّة. اسمه أرشد على ما أذكر. دفعتُ له مبلغًا محترمًا لكي يحمّض هذه الصور. طلبتُ منه وأنا أدسُّ مالاً إضافيًا في يده ألاَّ يعلم صديقي بالأمرِ، فوافق. المالُ يفعل كلَّ شيءٍ. يفتحُ كل الأبواب المغلقة بسهولةٍ. استلمت الصور بعد أيَّام. قلتُ لنفسي ربما أحتاجها يومًا ما. جاء اليومُ الذي احتجتها فيه. بعد زواجهِ بعام، ذهبتُ إلى البلدة لزيارة أمّي. لمْ أردْ زيارة أمّي بطبيعة الحال. كانت لي أهدافٌ أخرى، ولكن فكرة تنفيذها كانت غائبةً عن بالي. خطرتْ لي فكرةٌ نفذتها في حينها. ألبست عايدةَ الخادمة ملابسَ محليَّة: عباءةً، ونقابًا، وقفازين. وضعتُ الصور في مظروفٍ كبيرٍ، ثمَّ طلبتُ من الخادمة أن تسلّمها إلى حليمة شخصيًّا دونَ أن تتفوَّه بكلمةٍ واحدةٍ. تسلّمها الصورَ، ثمَّ تعود إلى البيتِ من طريقٍ آخر. عادت عايدة وقد أدّت المهمَّة على أكملِ وجهٍ. نفحتها راتبَ ثلاثة أشهر، ووعدتُها أنَّها لو صمتتْ عمَّا فعلتْ سأعطيها رواتبَ ستة أشهر أخرى. نفَّذت ما طلبته منها. جاءت النتائج سريعًا. وصلتني الأخبارُ بعد أيَّامٍ قلائل

www.jadidpdf.com

بطلاقها من نوري. أدهشني أنَّ الأمرَ تمَّ بمثل هذه السهولة، وبمثل هذه السرعة. احتفلتُ بهذا الإنجازِ العظيم في بيتي وحدي. لَمْ أكتفِ بذلك، بل دعوتُ بعضَ الزملاء الأعزَّاء على وليمةٍ أقيمت خارج نطاق المدينة في استراحتي ومزرعتي الشخصيَّة. وعندما سألوني عن سبب الاحتفال، قلتُ لهم – كاذبًا – إنَّه بسببِ شفاء والدتي من وعكةٍ صحيَّةٍ ألمَّت بها، وشفيت منها أخيرًا. مرّ كلُّ شيءٍ بهدوءٍ وعلى ما يُرام. لكن هذا المخنَّث نوري لا يريدُ أن يتركني في حالي. سمعتُ أنَّه يحضِّر لشهادة الدكتوراه في الجامعة. أقسمتُ بيني وبين نفسي ألاَّ أدعه يحصل عليها. سأظلُّ وراءَه ما بقي لي عرقٌ ينبضُ. دسستُ له ثلَّة من طلابي الأوفياء، وطلبتُ منهم أن يرفعوا عليه دعوى احتسابيَّةً في إحدى المحاكم. لنْ يلبثَ المسكينُ حتَّى يُحاكَمَ بحدِّ الرِّدةِ. وللمرَّةِ الثالثةِ، تنجح خططي. أقنعتُ مدير القسم ومديرَ الجامعة بخطورةِ قبول رسالة الدكتوراه الخاصَّة بنوري. قلتُ لهم إن رسالته خطيرةٌ على الأمنِ الجامعيّ. سيحتجُّ الطلاب، وهيئةُ التدريس، والتيارُ المتشددُ داخل أروقة الجامعة وخارجها على رسالته. كانت تتحدَّث عن الحلّاج. لَمْ أسمعْ به من قبل. سألتُ عمّن يكون هذا الحلّاج، فقِيل لي أنَّه مجرَّد متصوّفٍ، زنديقٍ كافرٍ، كما ذكر لي بعضُ شيوخي الأفاضل. اقتنعَ مديرُ الجامعة بعد أن قلتُ له محذِّرًا: "ربما كان ثمن قبولك لهذه الرسالة هو كرسيّك. سيفصلونك، وأنت تعرف ما الذي يدور في الجامعة، بل في البلد كلّه من حالة استقطاب هائلة. إمّا أن تكون كافرًا، وإمّا مؤمنًا. لن يرحمك أحدٌ".

اقتنعَ بكلامي، واستطعتُ أنْ أجرِّدَ هذا "النوري" من شهادة الدكتوراه، وسأظلُّ وراءَه حتَّى آخر يومٍ في عمري. لنْ يهنأ لي بالٌ حتَّى أقضيَ عليه القضاءَ المبرم...

٢٨

وارتجَّ المكان بقهقهاتي الصاخبة بعد أن فرغت من قراءة الدفتر!

هكذا، إذن...

لكن الشيءُ المهمّ الذي شعرتُ به بعد الانتهاءِ من كتابةِ المخطوطة بأيّام، وبعد قراءةِ مذكراتِ الدكتور فالح السرّيةِ هو التعافي الملحوظ، القليلُ منه، ولكن المهم. تمامًا كالعلاجِ الذي قد يكون مُرًّا في طعمه منفّرًا برائحته. كلُّ العقاقيرِ المُرَّة تكون ناجعةً في غالب الأمر. لا أدري عن مدى صحة هذه المقولة. قد يتأخَّر الشفاءُ، ولكنَّه قادمٌ لا محالة. ربما لأنّني فهمت الكثير من الأشياء والأحداث الغامضة التي كانت عصيَّة على فهمي في وقت حدوثها نفسه.

وعادتْ إلي الرغبةُ في الحياة من جديد.

لمْ يعدْ سير حياتي مربوطًا بفعلٍ، وردِّ الفعل، أيًّا كان هذا الفعل تافهًا أو عظيمًا. أصبحتُ منطلقًا متحرّرًا من قيودٍ ربطتني بحبال سوداء خشنة زمنًا ليس بالقصير، بدأتُ تدريجيًا بفكّها والتخلُّص من وثاقها...

وقرَّرتُ: أولى خطوات الطريق إلى التعافي هي الاستمرار في الكتابة.

الكتابةُ قد تكون أعظمَ علاج لمَن هم على شاكلتي.

سأقول لطبيبي إن علاجي هو الكتابة وليس السفر وتغيير الأمكنة أو استخدام العقاقير والأدوية التي تزيد هلوساتي وانفصالي عن الواقع.

منذُ أيّام أشعرُ بنفسي خفيفًا بل مرحًا أيضًا. ليس هذا فحسب، بل انفتحت شهيّتي نحو الدكتور فالح راشد، وخصوصًا بعد أنْ قرأت يوميّاته أو خيباته كما سمّاها في دفتره الأخضر.

ثم بدأت التنقيب عنه...

هناك سنوات مبهمة في حياة الدكتور فالح لا أعرف عنها شيئًا. اختفى لمدة ثلاثة أعوام، ثمّ ظهر فجأة محاضرًا في الجامعة، وبشهادةٍ مرموقة.

بعدَ أن سحبوا منّي شهادة الدكتوراه، قرَّرتُ أنْ أبحثَ جيِّدًا عن تلك السنوات في سيرة حياة ابنِ العمِّ الدكتور فالح...

سافرتُ إلى البلد الذي حصلَ منه على شهادة الدكتوراه، فاكتشفتُ، ويا لهول ما اكتشفت!

كانت شهادةُ الدكتوراه، وحتّى الماجستير، اللتان تخصّانه، شهادتين جاهزتين لم يكتب فيهما حرف واحد، بل اشتراهما بالمالِ من أشخاص يبيعونها لمن أراد الحصول على شهادة عليا.

عن طريق المصادفة المحضةِ، التقيتُ في أحدِ معارض الكتاب في إحدى العواصم العربية بمحاضرٍ كان زميلًا قديمًا لي وللدكتور فالح. وبعد التحيّاتِ والكلماتِ المكرَّرة والمجاملات، جاءت سيرةُ الدكتور على ألسنتنا. اكفهرَّ وجهُ الرجل فجأةً، وأخبرني والأسى

يعصرُ قلبه وكلماته أنَّ الدكتور فالح كان سببًا في إلغاء عقده بلا سببٍ واضحٍ ومفهومٍ. وفي ثنايا الحديث وتشعّبه، أكّد لي أنَّ شهادته كتبها له شخصٌ آخرُ بمقابلٍ ماديٍ مجزٍ. وقال لي إنّه يشعرُ بالأسف لأنّه ساعده في الحصولِ على تلك الشهادةِ التي لا يستحقها. وقال ربما هذا كان سببًا في إنهاء عقده حتّى لا يكشف أمره. عزمني على العشاء في أحد المطاعم، ثمّ في نهايةِ العشاء أكد لي أن الدكتور فالح لم يكن الوحيد الذي حصل على شهاداتٍ زائفة ومشتراةٍ لم يخط فيها حرفاً واحداً، بل توجد قائمةٌ طويلةٌ ممّن هم على شاكلته ويعملون في الجامعة نفسها، وفي جامعات ومراكز مهمّة أخرى، حصلوا على تلك الشهاداتِ المزوَّرةِ، وبها تسنّموا مناصبَ مرموقةً في بلدانهم.

سألتُه: "وكيف يتمُّ ذلك؟".

قال لي بيقينٍ: "الأمرُ يحدثُ بكلِّ بساطة. كلُّ ما عليك فعله للحصول على شهادةٍ مزيَّفةٍ هو سيرةٌ ذاتيّةٌ وخبرة ما بين عامين إلى خمسة أعوام في المجال الذي ترغبُ في الحصول فيه على الشهادة، ومبلغ محترم من المال، ولستَ ملزمًا بحضورِ دوراتٍ أو محاضراتٍ، فكلُّ شيءٍ سيكونُ جاهزًا، وطوعَ بنانك، بوجودِ المال...".

ليس هذا فحسب، بل زرت مع هذا الزميل دكتورًا معروفًا في الأوساط الأكاديميّة العربيّة بصفة أنني باحث وأرغب في الحصول على شهادة ماجستير. خلال هذا اللقاء ولقاءات أخرى مشابهه مع أكاديميين آخرين، سمعتُ الكثيرَ عن مساوماتِ ماليّة وتسهيلاتٍ أكاديميّةٍ غير متوقعة نظيرَ منحِ شهادةٍ عُليا لكلِ راغب مقابل حفنة من

المال. بعد هذه الزيارات وفي نهاية إحداها، قال ذلك الزميل ضاحكًا بمرارة: "هكذَا تسيرُ الأمورُ، يا صديقي العزيز...".
وكانَ هذا اكتشافًا مذهلاً لي بحقٍّ...

٢٩

بدأت الصفحاتُ المظلمةُ في حياةِ ابنِ العمِّ الدكتور فالح تتدفقُ عليَّ... ساديَّةٌ، وفشلٌ جنسيٌّ وزوجيٌّ مكتوبًا ومعترفًا به بخطِّ يده في مذكراته التي تركها في الحقيبة "السمسونايت".

ليس هذا فحسب، بل إنَّني عندما كنتُ أتناول غدائي في أحد المطاعم، التقيتُ بالمصادفة بأرشد الباكستاني صديقنا القديم، صاحب محلات "كونيكا" لتحميض الأفلام وتطهيرها. ترك مجالَ تحميضِ الأفلام بعد أن كسدَ سوقها قليلاً. كان يعملُ مديرًا لأحد المطاعم. بدا الرجل سعيدًا بلقائي. سألني عن الدكتور فالح، فقلت له كاذبًا: علاقتنا مقطوعة، ولم نعدْ نلتقي منذ زمنٍ بعيد. صمتَ قليلاً، ثمَّ قال لي شيئًا أذهلني: "ذلك الرجلُ يبدو شريرًا وشخصًا غيرَ مريحٍ، وغيرَ محترمٍ".

وعندما سألته عن سببِ قوله هذا الكلام، أردفَ قائلاً أنَّه قد كلَّفه في يومٍ ما أن يُطهِّر فيلمًا فوتوغرافيًا. "كان الفيلم يخصُّك أنتَ. كانَ مليئًا بصورٍ غير لائقةٍ".

نظرَ نحوي بوجلٍ وبدا محرجًا، ثمَّ اعتذرَ منِّي وطلب أنْ أسامحه.

هززتُ رأسي وقلتُ له بهدوءٍ إنّني لا ألومه على الإطلاقِ، هذه أحداثٌ حدثت منذ مدّةٍ طويلةٍ، وقد طوتها الأيّامُ، وعفّى عليها الزمنُ...

وقبلَ أنْ أغادرَ مكتبه، قال لي إنّه لا يزال يحتفظُ بصورٍ للدكتور فالح شخصيًا: صور تجمعه مع فتيات ليلٍ وحفلات صاخبة ممتلئة بالعهر والمجون ولكنها أقل حِدة من الصور التي تخصّك. قال ذلك بنبرة أسفٍ ثمّ أضاف: "في معامل التحميض نحتفظُ بالصور التي نعتقدُ أنّها مهمّةٌ وتخصُّ الزبائن الدائمين للمكان. غالبًا ما كانوا يعودون إلي ويسألونني هل لا أزالُ أحتفظُ بصورٍ قديمة لهم. كانوا إذا وجدوا نُسخًا من تلك الصور المفقودة، النيجاتيف الخاص بها، يمنحونا مكافأةً مجزيةً".

سألني أرشد هل أنا راغب في الحصول على تلك الصور. أجبته بالإيجاب، فقال لي: "عدْ إليَّ بعد أسبوع من الآن، وستجدها لديَّ هنا في المكتب. الصورُ كثيرةٌ لك، وللكثير من الأصدقاء، وهي تحتاجُ إلى بحث يستغرق الكثير من الوقت".

بعد أسبوع عدتُ إلى المطعم الذي يعمل فيه أرشد. سلّمني كرتونًا متوسطَ الحجم فيه صورٌ كثيرةٌ لي وللدكتور فالح. وعندما مددتُ يدي لأعطيه مبلغًا من المال، ردَّ يدي برفقٍ وقال لي: "أنتَ رجلٌ مسالمٌ وهادئُ الطباع، وتبدُو وقورًا ومحترمًا".

كدتُ أقول له: ليس بعد اليوم، ولكنّني سكتُّ. استأنف كلامه قائلاً: "وقد قدرتُ أنْ صوركَ تلك ربما قد سبّبت لكَ الأذى. دعني أمسح خطئي...".

شكرته. حملتُ الكرتون ثمّ غادرت المطعم بهدوء وقد استغرقني التفكير في ما يحويه هذا الصندوق الكرتوني...

في المساء، بعد أن عدتُ إلى البيت، فتحتُ الكرتون، فهالني ما وجدتُه من صورٍ. حتّى الدكتور فالح له بعض الصورِ المخجلة ولكنها ليست مثل الصور التي التقطها لي وأنا في غمرة السُكر. وتخيلت أن تنسخ العشرات من هذه الصور ثم تعلّق في لوحات الإعلانات في الجامعة التي يعمل فيها، أو توزع سرّاً على طلابه أو زملائه، أو ترسل في ظرف مغلق إلى مدير الجامعة. وتخيلت مدى الأذى النفسي الذي سيقع فيه وسيتجرّع من كأس السّم نفسه الذي سقاني منه. أزحت كل تلك الخيالات الموجعة من رأسي وفرزتُ صورَه التي رأيت أنها بالإمكان أن تؤلمه وتقضّ مضجعه ووضعتُها في مظروف كبير وعقلي يمورُ بأفكارٍ كثيرة، أفكار خطيرة متهوّرة وقاسية...

أمامي الآنَ أدلةٌ جديدةٌ تدينُ الدكتورَ فالح: شهاداتٌ عُليا مكتوبة سلفاً وتشترى بالمالِ ويكفي إثارة هذا الموضوع في أروقة الجامعة ليقيم الدنيا ولا يقعدها، ليس في الجامعة فحسب، بل في الوسط الأكاديمي بكامله، صورٌ خليعةٌ، دفترُ مذكراتٍ مكتوبٌ بخطِّ يده يفضحُ أمراضه الجنسيّة وعجزَهُ.

لا أستطيعُ أنْ أصفَ مشاعري في هذه اللحظة، فهي مزيجٌ من الفرحِ وخيبةِ الأملِ والشعورِ بالغبنِ والظلم. انداحت في عقلي كلّ ساعات مناقشة شهادة الدكتوراه المضنية، تعبي الكبير في الحصول على المعلوماتِ، سفري من بلدٍ إلى بلدٍ للبحثِ عن المراجع، السهر والتعب، التفكير الحثيث والمتواصل... في حين أنّ أناسًا ممّن هم

على شاكلة الدكتور فالح يحصلون على كلٍّ ما يريدونه بالمال، والغشِّ، والتدليسِ. أما شخصٌ مثلي، فيتعبُ ويشقى ويعلّم نفسَه، ويشغلُ وقته بالمراجع للحصول على شهادةٍ ليست هدفًا بحدِّ ذاتها بقدر ما هي شغف للعلم، وحب للمعرفة، ومع ذلك، لا يمنحه المتنفذّون الجهلاءُ شروى نقير. يستأثرون بالمناصبِ، وبشهادات مزيفة يحصلون عليها ظلمًا وعدوانًا، فتفرش الطريقَ أمامهم بالورودِ. لقد اختلَّ ميزانُ العالم اختلالاً مروّعًا لا يُرجى منه اعتدالاً.

أشعلتُ سيجارةً، وأخذتُ أقلّب الأمرَ على مختلف وجوهه...

٣٠

وضعتُ المستنداتِ ودفترَ يومياتِ الدكتور فالح في جهازِ آلة نسخِ الأوراق. صوّرت كلَّ الأوراقِ من نسختين. أمّا فيما يخصُّ الصور، فاشتريتُ جهازًا جديدًا ظهرَ في الأسواق يُسمَّى جهاز المسح الضوئي (السكنر)، مسحتُ الصورَ مسحًا ضوئيًا ملوّنًا. وضعتُ أصولَ الأوراقِ والصور في خزنةِ المكتب، وأقفلتُ عليها جيِّدًا...

شعرت بأعصابي تزداد توتراً. أبحث عن علبة الدواء. أحتاج في هذه المرحلة إلى هدوء الأعصاب والتفكير العميق في الخطوات المقبلة. أستلقي على كنبة الصوفا الوثيرةِ. أمسك علبة الدواء. بقيت حبتان من كبسولات العلاج فقط. أتناولهما دفعة واحدة. أشعرُ بخدرٍ يداعبُ أوصالي. لا ضيرَ من أخذ قسط من النوم قبل تنفيذ ما أزمعتُ عليه. التفكيرُ الحثيثُ في ما أنا مقبلٌ عليه أرهقني ووتَّر أعصابي. أنهض من فوق كنبة الصوفا. أفتحُ التلفزيون. أعود لأجلس متهالكاً على الكنبة. أنظر إلى شاشة التلفزيون بعيون غائمة. أرى ولا أرى. أسمع ولا أسمع. أشعر ولا أشعر. بدأ مفعول العلاج السحري. نُذرُ الحرب بين العراقِ والكويتِ تتزايدُ كلَّ ساعةٍ وأخرى. يبدو

أن محاولة إطفائها ستؤول إلى الفشلِ الذريع بسبب تعنُّتِ البلدين الجارين، وخصوصًا من جانبِ العراق. أطفئ التلفزيونَ ب"الريموت كنترول". أشعرُ بالنومِ يداعبُ أجفاني. أدخلُ بلا حولٍ منّي ولا قوةٍ في دهاليزِ النومِ رويدًا رويدًا...

ثمَّ قرَّرتُ...

لقدْ اختمرت الفكرة في رأسي...

سألعبُ مع الدكتورِ فالح لعبته نفسَها.

وضعتُ الأوراقَ المصوَّرةَ في مظروفٍ كبيرٍ. كتبتُ اسمه بخطٍّ واضحٍ على المظروف من الخارجِ. انطلقتُ بسيارتي إلى بيته: فيلّا ضخمة لها حديقةٌ واسعةٌ. أقفُ بالسيَّارة في الخارجِ. دلفتُ بخطواتٍ وئيدةٍ إلى الفيلّا. لمْ أرَ سيَّارته الفخمةَ ذات الدفعِ الرباعي واقفةً. ضغطتُ على زرِ الجرس. لم يفتحْ أحدٌ البابَ. تذكرتُ أنَّه عازبٌ. لم يتزوَّجْ منذ طلاقه من حليمة. كيفَ يتزوَّج وهو...! ضحكتُ للمفارقةِ في سرِّي. ذهبتُ إلى الجامعة حيثُ يعملُ. منذ سحبوا منّي شهادة الدكتوراه وفصلوني منها، لمْ أعدْ إليها مرَّةً أُخْرَى. أصعدُ إلى القسم الذي يتبعُ له. لا أجده ولا أجدُ أحدًا هناك. ألمحُ مكتبه الضخم: لَوحةٌ مستطيلةُ الحجم مكتوبٌ عليها بخط الثلث المذهَّب: الدكتور فالح راشد رئيس القَسم. ابتسمتُ في سرِّي من اسمه: فالح راشد. يقولون إنَّ لكلِّ شخصٍ من اسمه نصيبًا. قد يكون ذلك صحيحًا لبقيَّة النَّاس، أمَّا هذا "الفالح الراشد"، فلا أعتقدُ أنَّ له من اسمه نصيبًا. أضعُ المظروفَ على المكتبِ. أغادرُ المكانَ بهدوءٍ دونَ أن يشعرَ بي أحدٌ.

بعد ثلاثة أيَّامٍ، جاءني اتِّصالٌ هاتفيٌّ. أرفعُ السماعة فيأتيني صوته: "نتفاهم؟".

كان صوته مهزوزًا، ويبدُو كأنَّه على وشكِ البكاءِ. لم ينطقْ سوى بكلمة واحدة: "نتفاهم!".

أنْ تسمعَ صوتًا متهدِّجًا لرجلٍ ديدنه السطوةُ والعجرفةُ يجعل أعماقك تهتزُّ طربًا من الداخل. للقوَّة سطوتها. لن تنجو من الوحوش البشريَّة إلاَّ إذا كنتَ وحشًا مثلها. إذا استخدمت أساليبها نفسَها، عندئذ فقط، تهابك وتحترمك، وتعملُ لكَ ألفَ حسابٍ...

"نتفاهمُ على ماذا؟"، سألتُه متغابيًا.

– "كُفَّ عن العبثِ. أنتَ تعرفُ جيدًا ما أعني...".

– "نتفاهم. لكنْ ما هو الثمنُ؟"

– الذي ترغب فيه... سنعيدكَ إلى التدريسِ في الجامعةِ، وسنقبلُ رسالةَ الدكتوراه ونعتمدُها وننشرُها على حسابِ الجامعة، مع اعتذارٍ علنيٍّ على المستويات كافَّة، ونسحبُ الدَّعوى المقدَّمةَ ضدَّك في المحكمةِ. سنناقشُ كلَّ هذه التفاصيل بعد أن نلتقي، ونضعَ الأمورَ في نصابِها".

– "...!".

– "هل نلتقي؟".

– "نعم...".

– "ستحضرُ معكَ أصولَ الأوراقِ، والصورَ، والدفترَ...".

– "كما تحبُّ...".

حدَّد لي مكانًا خارجَ المدينة في الصحراءِ، حيثُ يملكُ مزرعةً

كبيرةٌ كان يقضي إجازاته الأسبوعيَّة فيها. يصفُ لي مكانَ اللقاء. أعرفه، فيقولُ لي: "هل عرفتَ المكانَ؟".

- "نعمْ".
- "إذن، سنلتقي هناك يومَ غدٍ الخميس قبيلَ الظهرِ...".

٣١

ارتخى الدكتورُ فالح. أصبحَ ليِّنًا بعدما كان صلبًا. سقطَ من عليائه. كنتُ ألعبُ معه بأسلوبه نفسه ولكنّني كنتُ أحتقرُ نفسي في حقيقةِ الأمر لأنّني نزلتُ إلى هذا المستوى المنحطِّ من التفكير والتصرُّفات المليئة بالحقارة. أنَا لستُ كذلك. لا أحبُّ أن تسيرَ الأمورَ بمثل هذه الطريقة. لكنّني رجلٌ مظلومٌ، تعرَّضتُ لظلمٍ كبيرٍ لا أستحقّه. سأستمرُّ في هذه اللعبة القذرةِ حتّى النهاية.

أزفَ موعدُ اللقاء...

أنظرُ إلى ساعتي. بقيَ على الموعدِ أقلُّ من نصفِ ساعة، والمشوارُ إلى حيث مكان اللقاءِ يحتاجُ إلى ساعتين أو ساعة ونصف. أحملُ الحقيبةَ التي داخلها الأوراقُ. أركبُ سيّارتي وأنطلقُ نحوَ مكان اللقاء. أخرجُ من نطاق المدينة العمرانيّ. تتناقصُ البيوتُ وتقلُّ الحركة كلّما توغلتُ أكثر. أنظرُ إلى ساعة السيّارة. كانت تشيرُ إلى الثانية عشرة والنصف ظهرًا. مرَّ على الموعدِ المحدَّد أكثرُ من ساعة. أزيدُ سرعتي. أصلُ إلى التحويلةِ التي تؤدّي إلى المكان. أدخلُ في موجِ رمالِ الصحراءِ. أسيرُ مدّة ثلثِ ساعة تقريبًا. لمحتُ

مزرعته تلوحُ بأشجارها من بعيد. تبدو كنقطة خضراء وسطَ الرمال. أقتربُ منها. أرى سيَّارته السوداءَ ذات الدفع الرباعي الكبيرة رابضةً على الرمالِ. تعكسُ مراياها وزجاجها ضوءَ الشمسِ. أقتربُ من المكان. ألمحه واقفًا على البابِ. كان وحده يرتدي ملابسَ رياضيَّة: تي شيرت قصير الأكمام، وسروالاً رياضيًّا يصلُ إلى الركبتين، وقبَّعةً رياضيَّةً سوداءَ اللونِ. ينتعلُ حذاءً رياضيًّا يُستخدم للهرولة والجري. بدا شكله غريبًا في تلك الهيئة. أقتربُ منه. أقفُ بسيَّارتي قريبًا من سيَّارته. أمسكُ بالحقيبة. أفتحُ باب السيَّارة. أترجلُّ منها. يقولُ لي مبتسمًا: "أهلاً بولدِ العمِّ...".

أرسمُ ابتسامةً مغتصبة على وجهي... أدنو منه. أوّل مرَّة أسمعُ كلمة ابن العمِّ منه منذ سنواتٍ طويلة. عادت إلي رنَّةُ صوته المرحة القديمة. في أيَّام القرية، وأيَّام الدراسة، والسفر، قبل أن نتلوَّث بسخام الكُرهِ والحقدِ والحسدِ. يأخذ بيدي ويقودني إلى داخل المزرعةِ. رجعت أيَّامنا الحلوة من جديد كما بدا لي. أسلِّمه الحقيبةَ بلا كلام كعربون حُسن نيَّة لاستقباله الحار لي... يبتسمُ... ثمَّ على نحوٍ خاطف، يرفعُ يدَه اليمنى، ويهوي بها على خدِّي. صفعة مدوِّية أفقدتني التفكيرَ لوهلة. أستعيدُ توازني. أكوِّر يدي لكي ألكمهُ على وجهه. تمسكُ بيدي من الخلفِ يدٌ ضخمةٌ كبيرةٌ وخشنةٌ. ألتفتُ إلى الوراء، أرى أربعة رجالٍ ملثَّمين، ضخام الأجساد. يمسكُ أحدُهم بيدي اليمنى، والآخر باليسرى، والرجلان الآخران يمسكُ كلُّ واحد منهما بقدمي. أراه يقتربُ منِّي وبيده سكينٌ حادَّةٌ، نصلُها يلمعُ بسبب الشمسِ الساطعةِ. لونٌ فضيٌّ مثل الوميضِ. يقتربُ منِّي. يشقُّ ثوبي

من المنتصف. ينزلُ سروالي الداخليّ. يمسكُ بمكمنِ رجولتي. يقولُ لي بصوتٍ باردٍ: "سأقطعُه لكَ. هلْ تعتقدُ أنَّك كنتَ في يومٍ ما أرجلَ منِّي؟".

أحاولُ أنْ أتكلَّمَ. لكنَّ الرجلَ الذي كان واقفًا على يساري يلكمني في منتصف وجهي، فأسمعُ صوتَ تهشّم أرنبةِ أنفي. تسيلُ الدماءُ. يشدُّ "شيئي" إلى أقصى ما يستطيع. يمرِّر حدَّ السكينِ عليه من المنتصف. أصرخُ. أحاولُ أن أتملَّصَ من بين يدي الرجالِ الضخام. يمسكونني بقوةٍ. يحزُّ "شيئي" بالسكينِ بلمحِ البصرِ. يرفع النصفَ المقطوعَ أمام وجهي. أشعرُ بالدماءِ الحارَّة تسيلُ على فخذي. تأتيني ضربةٌ من الخلفِ على مؤخِّرة رأسي. أتهاوَى على الأرضِ. بدأتُ تدريجيًّا أفقدُ بعضَ حواسّي: البصرُ ثمَّ السمعُ. ظلمةٌ كثيفةٌ تنتشر أمامي. لا أشعرُ بشيءٍ من حولي. في اللمحةِ الأخيرةِ قبل أن أفقدَ البصرِ، أرى خمسةَ أشخاص يقفون على بُعد أمتار عنّي. أجسادهم مثل الهلامِ. لم أعدْ أشعرُ بشيءٍ. أسقطُ في بئرٍ بعيدةِ الغور. أتقلَّبُ في الفراغِ والظلامِ، ولا شيءَ سوى الظلام...

بسببِ حركةٍ شديدةٍ، وضجيجٍ قوي أفقتُ من غيبوبتي، فوجدتُ نفسي ملقًى في حوضِ سيَّارة من نوعِ بيك أب، ذات دفعٍ رباعيٍّ، وهي تسيرُ بصعوبة بين الرمالِ. سارت قرابة الساعة تقريبًا، ثمَّ توقَّفت فجأةً. خرجَ منها رجلان ملثَّمان فتحا بابَ حوض السيَّارة. سحباني سحبًا، ثمَّ حملاني مسافةَ خطواتٍ كثيرة، ثمَّ ألقيا بي على الرمال. ركبا السيَّارة وعادا أدراجهما. شعرتُ بسخونة الرمال تحرقُ جسدي. حاولتُ تفاديها. تقلَّبتُ يمينًا ويسارًا، ولكنَّ الحرارةَ كانت

قويَّةً وقاسيةً. لن ينقذني سوى النوم. سأحاولُ أنْ أنامَ أو أفقدَ الوعي. ليتني أفقد الوعي في هذه اللحظات. محاولاتي لا تطولُ. أقفلتُ عينيَّ ولا أدري هل كنتُ نائمًا أو فاقدًا الوعي...

٣٢

فتحتُ عينيَّ بعد زمنٍ لا أعرفُ مقداره. لا يزال الرملُ حارًّا يلسعُ جسدي. أحاولُ أنْ أقفَ على قدميَّ فلا أستطيع. أحرِّك رأسي بصعوبة. لا أرى أيَّ شيءٍ سوى الرمالِ. نورُ الشمس يتغلغلُ في عينيَّ بسطوةٍ جبَّارة. أنظرُ إلى الأسفل، دماء تشكل بقعةً حمراء اللون كبيرة على ثيابي. أرى شيئًا ما قادمًا نحوي. كائناتٌ ضخمة تتحرَّك في مجال رؤيتي المشوَّشة. أعدادها كبيرة. ما هذه الأشياء التي تسيرُ بتمهّل في سراب الصحراءِ الخادع؟

جِمالٌ. نعمْ، قطيعٌ من الجِمالِ. بالقربِ منِّي أرى شيئًا يتحرَّك ببطء. أحاول أن أتبيَّن ملامحه. كان رجلاً يركبُ حمارًا. يراني فجأةً. يقفزُ من فوق حماره. يركضُ. يدنو منّي، يحوقلُ، ويبسملُ، ويستغفرُ ربَّه. يسألني: مَن أنتَ؟ أحاولُ أنْ أجيبَ فلا أستطيع. كان فمي مملوءًا بالرملِ. أبصقُ على الأرض رملاً مخلوطًا بريقي وبدمي. يذهبُ الرجلُ إلى حماره مسرعًا. يمسكُ برسنِه، يقوده ثمَّ يقتربُ منّي. يضع يداه حول وسطي، ثمَّ ينتشلني، ويركبني على الحمارِ. يقفز ورائي. يسندُ ظهري على صدره. ينطلقُ الحمارُ بنا فوق الرِّمال. أفقدُ الوعي،

وأفيقُ منه مرّات كثيرة. نسيرُ وقتًا طويلاً قبل أن نصلَ إلى مكانٍ وسط الصحراء: مربضٌ كبيرٌ للجِمال. أرى بيتًا من قشٍ و"جكوكٍ" ماءٍ وأكوامًا من العلفِ. نقتربُ من بيت القشِ. ينزلُ الرَجلُ قبلي. يمسكُ بي من أسفل ظهري وقدميّ. يحملني مثلَ طفلٍ إلى داخل بيت القش. يُلقي بي بهدوءٍ على فرشٍ من الإسفنج قديمٍ ومتّسخ. يكشفُ ثوبي من ناحية الجزء الممتلئ بالدماء. يلمحُ "شيئي" المبتور. يستعيذُ بالله من الشيطانِ الرجيم. يضربُ كفًّا بكفٍّ. يهزُّ رأسه من الأسى، ويعضُّ شفته السفلى. يسألني بصوتٍ متهدّج: "مَن فعلَ هذا بكَ؟".

أحاولُ أنْ أجيبَ، ولكنّني لا أقدرُ على الكلام. ينهضُ من مكانه. يحضرُ حطبًا. يشعلُ فيه النار. يقتربُ منّي وفي يده زمزميّةُ ماءٍ. يضعُ فوّهتها أمام فمي. يقولُ لي: "اشربْ".

أحاولُ أنْ أشربَ فلا أقدر. يحضرُ قطعة قماش. يبلّلها بالماء، ثمّ يعصرها داخل فمي الجاف. أشعرُ بقطرات الماء تنزلق داخل فمي. أبتلعها بصعوبة. كرّر ذلك كثيراً حتى شعرت بانطفاء سَورة العطش. ينظر بحذر إلى نصف جسدي السفلي. يكشف ببطء ثوبي. يرفعه قليلًا فينظر إلى شيئي المقطوع. يهزّ رأسه بأسى. يبلّل الرجل قطعة القماش بالماءِ، ثمّ يقترب من شيئي. يحاول أن يمسكه. أحرّك فخذيّ بجهد جهيد. ينظرُ في عينيّ قائلاً: "لا بدَّ أن أنظّفَ جرحك من بقايا الرمال والدماء".

يعصرُ قليلاً من الماء فوقه. أشعرُ بألم شديد. أتأوّه من الوجع. يمسحُ الجرحَ النازفَ بالماء. يضعُ سكينًا داخل النار. يمسكُ طرفها ويقترب منّي. فهمت ما يرمي إليه. هنا أطلقتُ صرخة مدوّية خرجتْ

رغمًا عني. يقولُ لي: "لا بدَّ أنْ أكوي جراحك حتَّى لا يتعفَّن. لا زلتَ تنزف. لن يوقفَ النزيفَ سوى الكوي".

يقتربُ مني، أحاولُ أن أنهضَ من مكاني. لا أستطيع. يرفعُ ثوبي ببطء. يضعُ السكين المحمرَّة على جروحي؛ أصرخُ كما لم أصرخْ من قبل. أشمُّ رائحةَ احتراق لحمي. أمدُّ يدي بصعوبة نحوه. أمسكُ بثوبه الفضفاض. يزيحُ يدي بحزم. يكوي شيئي مرَّةً ثانيةً، وثالثةً، ورابعةً، وحينئذ لمْ أحس بما يحدث لي...

بعد وقت لا أعرف مقداره، أفتحُ عينيَّ ببطء. أدورُ ببصري حولي. لا أحدَ هنا. ظلمة كثيفة داخل العشة. أحاولُ أن أفتحَ فمي لأتكلَّم. لا أقدر. لساني ثقيلٌ، وجسدي أثقلُ. أرفعُ رأسي قليلاً. يستقرُّ بصري في خارج العشة. لمحته. كان جالسًا حولَ نار مشتعلة. يمسكُ بيده اليمنى راديو صغيرَ الحجم. ألمحُ انعكاس النار على وجهه الأسمر. أشمُّ رائحةً نفَّاذةً. رائحةُ بول الإبل القوية في مرابضها. يقرِّب الراديو من أذنه اليمني. يحرِّك عجلة الموجات. يأتيني صوتُ المذياع من بعيد، وكأنَّه الحقيقةُ الناصعةُ الوحيدةُ في هذا التيه: "هنا لندن. هيئة الإذاعة البريطانية الـBBC القسم العربي. نرحِّبُ بكم، وإليكم موجزَ أخبارِ السادسةِ مساءً بتوقيت جرينيتش".

الساعةُ السادسةُ في لندن تعني أنَّ الساعةَ هنا التاسعة مساءً.

أسمعُ المذيعَ بصوته الواضح يقول: "قواتُ صدَّام حسين تدخلُ الكويتَ. الجيشُ العراقيُّ يحشدُ قواته على الحدود السعوديَّة. العاهلُ السعوديُّ يطلب من الدول العربيَّة والإسلاميَّة والدولِ الصديقةِ المساعدةَ في حماية حدود بلاده. وزيرُ الخارجية الأميركيّ جيمس

بيكر يتوجَّه إلى السعوديَّة يومَ غدٍ لبحثِ الأزمة العراقيَّة الكويتيَّة".

فاصل موسيقي.

يعود المذيع: "من أخبارنا الرياضيَّة: المنتخبُ الألمانيُّ بطلُ النسخة الأخيرة من كأس العالم، التي أُقيمت في إيطاليا يلعب مباراةً وديَّةً مع المنتخب السويسري في جنيف".

فاصل موسيقي.

يعود المذيع: "أمَّا بالنسبة إلى أحوال الطقس، فهناك طقسٌ حارٌّ على الأجزاء الجنوبيَّة من الجزر البريطانيَّة".

هذا الموجز، وإليكم تفاصيل الأنباء.

فاصلٌ موسيقيٌّ صاخبٌ...

٣٣

ذات مساء يقتادني بقسوة وعنف رجالٌ ملثَّمون أقوياءُ وضخامُ الأجسادِ نحو قلعةٍ هائلة الحجم مبنية من الحجارة المرصوصة، بعضها فوقَ بعضٍ. نقطعُ أرضًا جرداءَ ونحن نمتطي حميرًا وبغالاً وعددًا محدودًا من الخيول التي كان فوقَ ظهورها جنودٌ مسلَّحون. نسيرُ مسافةً طويلةً. نصلُ المكان المنشود. يطرقون بغلظةٍ بابَ القلعة الحديديَّ الضخم، يفتحُ لهم حارسان مدجَّجان بالسيوف والرماح. يسيرون بي عبر سردابٍ معتمٍ في نهايته حجرةٌ واسعة كئيبة المنظر. يفتحون بابًا آخر. نتوغَّلُ في الدخول، فأرى أمامي فجأةً رجالاً يجلسون على كراسٍ من الخشبِ اللامع المشغول بالنحاس. وأسفل أرجلهم سجاجيد مفروشة زاهية الألوان. ريحٌ خفيفةٌ تعبثُ بنور المشاعل المعلَّقة بشكل مائلٍ على الجدران. أقفُ أمامهم منهكَ القوى. يصيحُ في وجهي رجلٌ لا أرى ملامح وجهه بوضوح، ولكنَّني أرى جسده الضخم، وكرشه الكبير البارز أمامه. كان جالسًا على مقعدٍ وثيرٍ، في حجرة واسعة عالية السقف، بشكلٍ لافت للنظر، ومضاءة بالشموع والمشاعل. يجلسُ على يمينه رجلٌ، وآخر على

يساره كأنَّهم تماثيل قُدَّت من صخر، لا يتكلَّمون، ولا تصدرُ منهم أدنى حركة. وعلى يمينهم، بمسافة بعيدة قليلاً، رجلٌ يبدو أصغرهم سنًّا، يجلس على كرسيٍّ خشبيٍّ قديم، وأمامه طاولةٌ فوقها مجموعة من الرقوق الجلديَّة، ودواة حبر مغموس فيها ريشة نسر. كان يكتب كلَّ كلمة تصدرُ منّي، أو من أولئك الرجال. يصرخ فيَّ الرجل الذي يتوسَّط الرجلين بصوتٍ عالٍ: "أنتَ المدعو نوري إبراهيم؟".

- "نعمْ".
- "ألديكَ فكرةٌ عن الدعوى الموجهَّة ضدَّك؟".
- "لا".
- "أنتَ متَّهمٌ بالإلحادِ ما أفضى بكَ الخروج من ملَّة الإسلام".
- "لا علمَ لديَّ بما تقول. كلُّ ما أعلمه جيدًا أنَّني مؤمنٌ موحِّدٌ أشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ الله وأشهدُ أنَّ محمدًا رسولُ الله".

يتأفَّفُ من كلامي بصبر نافد. يفتحُ رقاعًا من الجلدِ ملقاةً أمامه على طاولةٍ كبيرةِ الحجم.

- "لماذا اخترتَ الحلَّاجَ، هذا الزنديقَ المرتدَّ الذي نفَّذنا فيه حدَّ الرِّدةِ منذ شهورٍ قليلةٍ، لتنشر أقواله وما تفوَّه به من كفريَّاتٍ صريحة في رسالتك...".
- "لا أعرفُ...".
- "أتعرفُ خطورةَ الدَّعوى الموجَّهة ضدَّك؟".
- "لا يهمُّ، هذه دعوى كيديَّة...".
- "ربَّما لا يهمّك نوع الدعوى، ولكنَّها في نهاية الأمرِ قدْ تؤدِّي بكَ إلى القتلِ...".

- "لا يهمُّ...".

وغرقَ المكانُ في الصمتِ الثقيلِ...

تجاهلني الرجالُ الجالسون على الكراسي الوثيرة لوقتٍ طويل. بدا لي أنَّهم نسوا مثولي أمامهم. كانوا خلال تلك المدَّة الزمنيَّة الطويلة يتضاحكون، ويتناولون من طبقٍ مليءٍ بالفواكه جاءت به فتاةٌ رائعة الحسن، تحملُ وجهًا أعرفه تمامَ المعرفة. حينما وقع بصري عليها، كدتُ أصيحُ من الدهشة: "حليمة!".

كانت هي، ولا شكَّ. لا يمكنُ أنْ يكونَ الشبهُ متطابقًا بين شخصين إلى هذه الدرجة! عرفتها حتى بالشّامة التي كانت فوق الزاوية اليسرى من شفَّتها العليا. نظرتْ نحوي نظرةً خاطفةً لا مبالية، قبل أن تغادرَ المكانَ بهدوءٍ، بعد أن داعبَ أنفي رائحةُ عطرها، الذي دومًا شممته منها. كنتُ حينذاك لا أكاد أقفُ على رِجليَّ المنهكتين بالأصفاد التي أدمتهما.

بعد قليل دلف إلى القاعة سبعُ فتياتٍ رائعاتِ الحسنِ والجَمالِ، وبرفقتهن عبدٌ أسودُ يمسكُ بيده عودًا، جلسَ على كرسيٍّ خفيضٍ، ثمَّ بدأ العزف. فتاتان من الفتيات السبع يضربنَ على الدفوفِ وهن يرقصن. ولمحتُ بينهنَّ حليمة ترقصُ. كانت كأجمل ما تكون: شعرها الأسود منسدلٌ على كتفيها، فخذاها الممتلئان ينحسرُ عنهما القماشُ الشفَّاف الذي ترتديه، فيخلب اللُّبَّ باستدارته وامتلائه. أرى ارتجاجَ ردفيها فأشعرُ بالأرضِ تميدُ بي. شعرها يتناثر في فضاء الحجرة ثائرًا مجنونًا لا يحدُّ عبثَه حدٌّ. تسقط نظراتي الواهنة على ثدييها المتصالبين، اللذين طالما دفنتُ وجهي بينهما، واستنشقتُ

عطرهما. ترفعُ ذراعيها عاليًا وتحرّكهما بطريقة أفعوانيّة وهي تهزّ وسطها بكلّ جبروت. ينزُّ العرقُ من جيدها العاجيّ، وأرى لمعةَ بياضٍ إبطيها تحت أضواء المشاعلِ. كانت ترقصُ كأنّها ترقصُ لي وحدي. تنظرُ نحوي بين كلّ لحظةٍ وأخرى، وفي عينيها تساؤل كأنّها تقولُ لي: ما الذي جاءَ بك إلى هذا المكان؟

و... توقّف الرقصُ. تجمّد كلّ شيءٍ كأنّنا في هذا المكانِ مجرّد أشخاص مرسومين في لوحةٍ، رسمها فنانٌ ثمّ أصابه السأمُ منها، فمضى وتركها معلّقةً على الجدار. تسودُ لحظةٌ من صمتٍ ليس له داعٍ. تدبُّ الحياة فجأةً في اللوحةِ، فيتقدّم رجلٌ من أولئك الرجال الأربعة نحو الفتيات. كان ذلك الرجلُ هو مَن يطرح عليَّ الأسئلةَ تلو الأسئلةِ. فكّاهُ متهدّلان، وعيناه تشتعلان بالرغبةِ. يمسكُ بيدِ حليمة التي كانت تلهث من الرقصِ. كانت هذه المرّة تسوطني بلهيب نظراتها بعد تجاهلٍ طويلٍ. كانت تنظر إليَّ كما ينظرُ الفرقاء الذين التقوا فجأةً في لقاءٍ عابرٍ بعد سنوات من الغياب. يمسكُ الرجلُ يدها فتتملّص منه، وفي عينيها نظرةُ انكسارٍ مخلوط بازدراء، ولكنّه يمسك يديها بإحكام، وقد علت وجهه الغليظ والقبيح مسحةٌ من غضبٍ، ويقودها كما يقود الجزّارُ إحدى الشياه إلى الذبحِ. يأخذان طريقهما إلى إحدى الحجرات، وهو يضربُ بيديه الضخمتين على ردفيها. يشتعلُ رأسي بالغضب وقلبي بالغيظ. تصدرُ منّي حركة للانفلات من ربقة القيود والقهر. يشعرُ بي الجنود، فينهالون على جسدي بهراواتهم. أغمضُ عينيَّ رغمًا عنّي. لا أعلمُ كم لبثتُ على هذه الحالِ.

وانتهى كلُّ شيءٍ فجأةً كما بدأ فجأة. كلُّ شيءٍ كان مثلَ مسرحيةٍ من مسرحيات العبث واللامعقول. كلُّ شيءٍ كان غارقًا في الفوضى، والجهلِ، والظلم.

بعد مضي وقتٍ موغلٍ في الوجع، خرج من الحجرة ولم تخرج حليمة معه. التفتَ نحوي فرآني. قال بصوت كالرعد: "لماذا أنت هنا؟".

لم أجبِ. قررت الصمت ولا شيء غير الصمت، ثم بصوت هادر طلب بغلظة من الجنود إعادتي إلى المكان الذي أتيت منه.

٣٤

وحانتْ ساعةُ الخلاصِ بعدَ أن أيقنتُ أنْ لا خلاصَ ولا فكاكَ من قيودِ الاستبداد وانتفاء العدلِ والإنصافِ...

بعد شهورٍ من المحاكمات، والمجادلات، والسجالات يصدرُ الحكمُ: "يُستتاب، فإنْ لم يتبْ، فيُجلد كلَّ أسبوعٍ أمام مساجدِ المدينة وجوامعها في كلِّ يومِ جمعة، ثمَّ ينفّذ حكمُ القتلِ بحقِّه نظيرَ ارتداده...".

يصرخُ ذلك الرجلُ الذي لا أرى وجهَه في رجالٍ يحيطون بي: "أرجعوه إلى السجن...".

وتمرُّ أيّامٌ وشهورٌ لا أعلمُ عددها. كلّ ما أعرفه أنّني محبوس في قبوٍ مظلم وباردٍ، وذي رائحة نتنة، وأتحسّسُ حشراتٍ وزواحفَ تسيرُ على جسدي كلّما أخلدتُ إلى النوم، فأستفيق فزعًا مرعوبًا. على القرب منّي عظامٌ وجماجمُ بشريّة منثورة تنتظر يوم البعثِ والنشورِ. أنا سجينٌ ولا أجدُ أيَّ وصفٍ أو حتّى كلمة لتشمل كل هذا العذاب. لا أخرجُ من القبو إلاّ للذهاب إلى أولئك الرجالِ الذين لا أرى وجوههم، ولا أعرف صفتهم، ولا ماذا يكونون. يبدؤون

محاكمتي لساعاتٍ طويلة، ثمَّ يزجُّ بي الرجالُ الملثَّمون في هذا القبوِ، وألبث منتظرًا موعدَ المحاكمةِ المقبلةِ...

- "أنتَ كافرٌ!".
- "لا...".
- "أنتَ زنديقٌ!".
- "لا...".
- "أعلن توبتكَ".
- "لمْ أفعلْ شيئًا يستوجب التوبةَ".
- "أنتَ مرتدٌّ!".
- "لا...".
- "سنجلدك...".
- "...".
- "بعد جلدك سنقتلك بحكم الرِّدة والمروق من الدِّين".
- "...".

لا أجيبُ. صرخاتٌ عاليةٌ تقتحمُ صيواني أذني. بكاءٌ ممضٌّ ومتواصلٌ. وجوهٌ مرعبةٌ تحيطُ بي من كلِّ جانب. ووجوهٌ لا ملامح لها. وجوهٌ انبثقت فجأةً وبلا مقدِّمات من العدم والفناء. تقترب منّي. تحاولُ أن تلمسني. أبتعدُ عنها ولكنَّها تطاردني...

و...

في مكانٍ ما لا أعرفُه...

في مدينةٍ ما لا أعرفُها...

في زمنٍ ما لا أستطيعُ تحديده، ربما كان قبل أكثر من ألفٍ ومئتي

عام، أو ربما بعد ذلك بعشراتِ القرون، أرى نفسي محاطًا بالنَّاسِ من كلِّ جانب...

كانَ الزحامُ على أشدِّه...

الساحةُ غاصَّةٌ بالنَّاس. انقضت صلاةُ الجمعة. اقتادوني إلى الساحة الخارجيَّة الواسعة. أرى نهرًا كبيرًا على ضفتيه تكثرُ أشجارُ النخيل، والقواربُ المربوطةُ بحبال ملتفةٍ حول جذوع النخل. أشمُّ رائحةَ الماءِ الآسن في الترع الصغيرة المحاذية للنهر وأشمّ الطين، وروثَ البهائم. أصواتٌ صاخبةٌ... هادرةٌ... تطالبُ بتنفيذ حكم الرِّدةِ فيَّ. الحشدُ يشكِّل دائرةً كبيرةً. بعضهم يقفون على أرجلهم، وبعضهم راكبون فوق دوابهم. أناسٌ حفاةٌ شبه عُراةٍ خرجوا من ركام الأيَّام وغبارِ السنين، وجوههم تنضحُ بالبؤس والسطحيَّة ليشهدوا محاكمتي. يمسك بي رجلان يرتديان ملابسَ غريبةً، كنت قد رأيت الممثلين يلبسونها في المسلسلات التاريخيَّةِ التي كان يعرضها التلفزيونُ منذ زمنٍ سحيقٍ بعيد. يسوقانني إلى الساحة. ينظرُ نحوي النَّاسُ. يتقدَّم رجلٌ غليظُ الملامح بيده عصا مجدولةٌ من أغصانِ نبات الحلفا الغضِّ والأخضرِ. يقفُ ورائي. يزيحُ ثيابي من الجزءِ الخلفيِّ من جسدي، ثمَّ يهوي بالعصا على ظهري العاري. أشعرُ بالألم. يشتدُّ الضربُ. تسيلُ الدماءُ من ظهري، وكتفي، وإليتي. أصرخُ عاليًا من الألمِ الممضِّ. أهوي على الأرضِ... ثمَّ...

ثمَّ...

أفيقُ من نومي. أرى الرجلَ الأسمرَ لا زال يستمعُ إلى الراديو، ولا

يشعرُ بما يدور من حوله. النارُ مشتعلةٌ، والظلامُ كثيفٌ وحالكٌ على مد البصر في الأفق البعيد المتسربل بالسواد. أشمُّ رائحةَ الشاي المعدّ على الجمرِ. أعودُ إلى النومِ، أو الغيبوبةِ مجدّدًا، ولا أشعرُ بشيءٍ...

٣٥

أفيقُ من غيبوبتي. أحاولُ أن أستمعَ بتركيز لصوتِ المذيعِ في الراديو، ولكنّني لم أعدْ أسمعُ ولا أرى شيئًا. الألمُ والحمّى تدقّ عظامي من الداخل. العرقُ الغزيرُ ينزّ من كلّ جسدي. أشعرُ بالظمأ وبجفاف في حنجرتي. أحاولُ أن أنادي الرجل الأسمر فلا أستطيع. كأنّ مسافات تملؤها الوحشة تفصلني عنه رغم قصرها. أعودُ إلى النوم أو الغيبوبة مرّةً أُخرَى. أصحو بعد وقتٍ لا أعرفُ مقداره، فأجدُ الرجلَ نائمًا على ظهره قريبًا منّي. النارُ في الخارج انطفأت، فلم يبقَ إلاّ الجمرُ متوهجًا. أقولُ بصوتٍ واهنٍ لا يكاد يُسمع: "أريدُ شربةَ ماء".

لا يسمعني. أكرّرُ كلماتي الواهنة ذاتها. لا يسمعني. أرفعُ نبرة صوتي بكلّ ما استطعت، فتأتي كلماتي مبحوحةً، جافّةً: "ماء، أريدُ ماءً". يحسُّ الرجل بي. ينهضُ من رقدته. يقرّب أذنه مني. يسمعُ كلمة ماء. يتناولُ قربةَ الماء الجلديّة المعلّقة على باب العشّة. يقترب منّي. يضع فمَ القربة من فمي. أشربُ ماءً كثيرًا. أشربُ، وأشربُ، ولا أحسُّ بالارتواء. ينفدُ ماءُ القربة. يدني منّي بقربة ماء أخرى. أشربُ، ثمّ أشربُ. بعد أن شعرتُ بالظمأ يتلاشى، أزحتُ رأسي إلى الجهة

الأخرى. يسألني: "هل اكتفيتَ؟".

أهزُّ رأسي أنْ نعمْ. يعودُ إلى مهجعه. يستلقي على فراشه، ثمَّ يستغرقُ في النوم مرّةً أُخْرَى. أسمعُ شخيره يتصاعد. أغبطه على سرعة الدخول في النوم بهذه السرعة في هذا المكان المقفر. لا أنام. ألبثُ أحملقُ في الظلام. أسمعُ رغاءَ الإبل في الخارج يتصاعد كلَّ حين وآخر. أحاولُ أن ألمس جرحي. أضعُ سبابتي بحذر فوقه. لا زال الألمُ شديدًا. أحاولُ أن أنام. أتذكّر ما حدث لي. أبكي بصمتٍ. دموعي أشعر بها حارقةً كأنَّها ماءٌ ساخنٌ. في فجر اليوم التالي، أشعرُ بآلام حادَّة في مثانتي. أصرخ. أريدُ أن أتبوَّل، ولكنّني لا أستطيعُ. يقتربُ منّي الرجلُ الأسمرُ. يسألني ما بي؟ أقول له بصوتٍ ثقيلٍ: "لا أستطيعُ أن أدلقَ مائي المحبوس".

يهزُّ رأسه. يكشفُ عن مكانِ جرحي. يتأمّله لوقتٍ قصيرٍ. يمسك به. أحسُّ بألم ولكنّه بدرجة أقل من السابق. يقولُ لي: "مجرى البول لديك مسدودٌ بالرملِ، والدمِ المتخثِّر".

لمْ أسمعْ جيدًا كلماته. أقولُ له برجاءٍ: "أريدُ أنْ أتبوّلَ، ولكنّني لا أقدر. مائي يأبى مغادرة مثانتي".

ينهضُ على قدميه. يدورُ ببصره في أرجاءِ العشة. يلمحُ شيئًا لم أره. يغيبُ قليلاً ثمَّ يعود. يحملُ بيد اليمنى سِلكًا حديديًّا رفيعًا، ولامعًا. يقولُ لي: "لا بدَّ من تنظيف المجرى. سأدخلُ هذا السلك في المجرَى بكلِّ هدوء. سوف أحرِّكه قليلاً حتَّى أزيلَ الدَّم المتخثِّر، والرمل الذي يسدُّ المجرى".

أهزُّ رأسي، لا... بإصرار. أقولُ له مستعطفًا: "أرجوكَ لا تفعل".

يقولُ لي: "ستموت بسببِ بولِكَ المحتقِن".

أطلبُ أنْ أشربَ ماءً. يقولُ: "الماءُ سيزيدُ احتقان مثانتك، وعذابك!".

لا يهمُّ. فقط أريدُ ماءً. يقرِّب من فمي قربة الماء. أشربُ كثيرًا من الماء. بعد قليل أصرخُ من الألم. بطني سينفجرُ. يدنو منِّي. أقول له: "أرجوك، أريدُ أنْ أتخلَّصَ من مائي المحتقِن".

لا يجيب. يرفع السلكَ الرفيعَ في وجهي. أهزُّ رأسي موافقًا. يقتربُ منِّي. ينحني فوقِ جزئي الأوسط. يمسكُ بشيئي أو ما تبقى منه. يُدْخِل السلكَ برفق في المجرى. يحرِّك السلكَ بحركة لولبية دخولاً وخروجًا. أشعرُ بآلامٍ لا قِبلَ لي بها. أصرخُ عاليًا، ثمَّ بعد قليل يندفعُ البولُ مثلَ نافورةٍ. أفتحُ فخذي والماءُ يندفع منِّي حارًّا ملوَّنًا مخلوطًا بالدمِ والترابِ. يستمرُّ كذلك حتَّى يخرجُ البول صافيًا. يتوَّقف البولَ. يبدلُ الرجلُ الأسمرُ فراشي المتَّسخ بالبول بفراشٍ آخر. يجرفُ الرملَ الذي وقع عليه مائي، ويرميه بعيداً خارج العشةِ. أشعرُ بالراحةِ قليلاً. يقولُ لي: "لا بدَّ أنْ تشربَ ماءً أكثر حتَّى ينظف المجرى تمامًا".

أعبُّ من الماءِ حتَّى أكتفي. أشعرُ بالنوم يغزو عينيَّ ثمَّ... أنام...

٣٦

اسمُه عبد الجبار. سودانيّ. يعملُ راعيًا للإبل في صحراء تهامة. لهُ أكثرُ من خمسة عشر عامًا يعملُ هنا. يقولُ لي ذات مساءٍ رائقٍ، ونحن نفترشُ الرملَ ذات مغيب:

الصحراءُ وقطعانُ الجِمال أصبحتْ جزءًا منّي. لمْ أذهبْ إلى السودان طوال خمسة عشر عامًا مضت سوى مرّة واحدة فقط. عدتُ إلى هناك بعدَ أن قُتل أخي الوحيد في حرب السودان الأهليّة الثانية. بالمصادفة عرفتُ خبرَ موته عن طريق الراديو في أحدِ البرامج المحليّة التي تبثها إذاعة أم درمان، والتي تعلنُ أسماء القتلى في الحرب، وتقدّم العزاء إلى ذويهم. قُتل في ولاية أعالي النّيل في معركةٍ بالقربِ من مدينةِ ملكال. وجدوه ميتًا أسفل شجرة تبلدي على ضفة نهر السوباط أحد روافدَ نهر النّيل الأبيض. قيل لي في ما بعد أنّه أُصيب في إحدى المعارك إصابةً بالغةً. تحاملَ على نفسه وزحفَ حتّى وصل ظل شجرة التبلدي. لم يسعفه أحدٌ. استمرَّ

ينزف حتّى مات. رتبتُ أوضاع بيته وزوجته وطفليه. أعطيتهم عن طيب خاطر نصفَ مدّخراتي التي كوّنتها في الغربة. فتحتُ لهم بها حسابًا استثماريًّا في أحد البنوك، ثمّ لمْ أطق المكوثَ في قريتي. الحبلُ الذي كان يربطني بالوطن انقطعَ بمقتلِ أخي الوحيد. لم أمكثْ سوى أقل من شهرين. عدتُ بعدها إلى هنا. هناك مثلٌ شعبيٌّ عند المصريين يقول: الرَّجلُ تدبْ مكانْ ما تحبْ. لا شيءَ يجعلني متصالحًا مع نفسي سوى الصحراء، ورمالها، وكثبانها، وقطعان الجِمال، والراديو، وأشجار القرض، والسلم التي تفضّل الإبل أكلها. صاحب الإبل رجلٌ غنيٌّ. يزورني في العامِ الواحد مرّةً أو مرّتين. يسلّمني رواتب عامٍ كاملٍ، ثمَّ يعود أدراجه بعد أن يوصيني خيرًا بإبله. هو رجلٌ طيّبُ القلبِ ومحترم. جاءتني الأخبارُ منذ نصف عام بأنّه قد مات. لم أعدْ أراه منذ ذلك الحين.

يصمتُ عن الكلام. يجولُ ببصره في الفضاء الرمليّ الممتد أمامه، ويصمت. أحترمُ بدوري صمته، فأصمت...

لبثتُ في ضيافته ثلاثة أشهر. طابتْ جروحي الجسديَّة، ولكن جروحي الداخليَّة لم ولنْ تطيبَ. ذاكرتي المثقلةُ والمعذّبةُ تبحثُ عن مأوى فلا تجده. كلّ يوم يمضي يتصاعدُ فيه غضبي، وتتقافزُ في ذهني صورٌ غايةٌ في القبحِ، ويمتلئُ قلبي ببقع سوداءَ تنزُّ قيحًا وحقدًا لا حدَّ له. كان يترك لديَّ ماءً، وتمرًا، وحليبًا، ويغيب عنّي يومين أو

ثلاثة. يسوق فيها الجِمال إلى حيث يكون المرعى، ثمَّ يختم جولاته في مسقى الجِمال حيثُ تشرب حتَّى ترتوي فيعود بها إلى هنا.

قال لي ذات يومٍ ونحنُ جلوسٌ أمام النار، وحولنا الجِمالُ رابضة مثل وحوش صحراويَّة خرافيَّة، كنا نشرب حليبها، ونلوك تمر عجوة: "مَن هُو الحلّاجُ؟".

انتبهتْ كلُّ حواسي. توقَّف فمي من مضغ التمرة التي ألقيتها فيه. سألته باستغرابٍ: "الحلّاجُ؟! وما أدراكَ به؟".

أجالَ ببصره في العراء اللانهائي المنسكب أمامه، وقال: "أسمعك دائمًا أثناء نومك تناديه: يا حلاَّجُ اقترب منِّي. يا حلاَّجُ لا تتركني بمفردي. يا حلاَّجُ أنقذني... وشيء من هذا القبيل. مَن هُو الحلّاجُ هذا؟ هل هو أبوك، أو أخوك، أو أحد أصدقائك؟ هل تريد أن تكتب رسالة له. لا تقلق سوف أحملها وأسلِّمها بيده، إذا أردتَ منّي فعل ذلك...".

ابتسمتُ من كلامه، وسرعان ما تحوَّلت ابتسامتي إلى ضحكة مجلجلة، ولكنَّها مشوبةٌ بالمرارةِ... قال لي منزعجًا: "وما يضحككَ في ما قلتُ؟".

– "لا شيءَ...".

– "إذن، لماذا تضحكُ كالمجنون هكذا؟ مَن هُو هَذَا الحلّاجُ الذي لمْ يغبْ عنكَ يومًا واحدًا؟"

بماذا أجيب؟ قلتُ له: "هو رجلٌ ماتَ منذ ألفٍ ومئة عامٍ، وربما أكثر...".

يتوقَّفُ عبد الجبار عن شرب الحليب. رمى نواة التمرة على

الأرض بعد أن استخرجها من فيه. يطفئ الراديو، ثمَّ ينظرُ إليّ باستغراب، وريبة، وشك. أقولُ له: "لستُ مجنونًا. عقلي سليمٌ، ولكنّني أكتبُ كتابًا عن هذا الرجل. وهو سببُ شقائي هذا كلّه...".

- "الرجلُ أم الكتاب سببُ شقائك؟".

حرتُ بماذا أجيبُ عن هذا السؤال الغريب الشائك. قلتُ له بعد لحظة تفكير: "الاثنان معًا".

قال لي بعدَ لحظة صمت: "إذن، لا تكتبْ عنهُ حرفًا واحدًا. دَعِ الأمر. هكذا بكلّ بساطة...".

- "فات الأوان يا عبد الجبار... فات الأوان...".

- "وماذا ستفعل؟".

- "سأعودُ مرّةً أُخْرَى إلى المكان الذي أتيتُ منه...".

بعد تردُّد كبير يسألني عبد الجبّار عن سبب كلّ الذي حدث لي. أخبره القصّةَ بإيجاز. يقولُ متفكِّرًا: "إذن، هو الحسدُ. قاتلَ اللهُ الحسدَ. هذا الداءُ جعل حتّى أبناء الأنبياء يقتلون بعضهم بعضًا...".

نعمْ. هو ذاكَ يا صديقي العزيز، ربّما ليس السبب الوحيد ولكنّه بكلّ تأكيد يأتي من ضمن أسبابٍ كثيرةٍ. يسألني: "متى سترحل؟".

- "غدًا، أو بعدَ غدٍ على أبعد تقدير...".

أسأله: "أين نحنُ بالضبط؟".

يخبرني بالمكان. كنّا في أبعدِ نقطة في الصحراء. أسأله لماذا اختار هذه البقعة البعيدة؟ فقال لي: "كلّما أوغلت في الصحراء، شعرت بالراحة والانسجام مع نفسي أكثر". أسأله: "لماذا؟"، فيجيبُ بشرودٍ: "شفائي في العزلةِ، والوحدةِ، والإيغالِ في البُعد". أفكّرُ في

جوابه الفلسفيّ قليلاً. أبتسمُ في وجهه. أدركُ أنَّه ليس مجرَّد راعٍ لقطعانِ الجِمال. هو أكبرُ من ذلك بكثير. الصحراءُ جعلته فيلسوفًا وربما حكيمًا. كان كثيرَ الصمتِ قليلَ الكلام. الصحراءُ التي تنجب الأنبياءَ، والحكماءَ، والعشَّاقَ، والشعراءَ غيَّرت كثيرين، فلماذا لا تغيِّره وتجعل منه إنسانًا آخرَ؟

أغبطه على ما هو عليه، ولكنَّني كنتُ في وادٍ آخرَ. أسأله عن أقرب طريق عموميّ. فقال لي: "إنَّ أقربَ طريقٍ مطروقٍ بالسيَّارات يبعدُ مسيرةَ يوم، إذا كنَّا سنستخدمُ الجِمالَ في التنقّل، ولأننا لن نسيرَ إلاَّ ببطءٍ شديد، ولن نتحرَّكَ سوى سويعات قليلة أثناء الصباح الباكر، وعندَ زوالِ الشمس بسببِ سخونة الأجواء...". قال لي إنَّنا في الأيَّامِ الأخيرةِ من شهر أكتوبر حيث يكون الصيفُ في مراحله الأخيرة، لكنَّ الشمسَ في مثل هذه الصحراء، وفي مثل هذا المكانِ لا تعترفُ بشهورِ الصيفِ أو الشتاء.

و... شملنا الصمتُ.

٣٧

أقولُ له بهدوءٍ ذات يوم، وقد برز في مخيّلتي وجهُ الدكتور فالح مشوَّهًا، كلّ هذا الصفاء، وكلّ هذا الفراغ الذي أحسُّ به فوقَ هذه الأرض البور الشاسعة: "أريدكَ أن تساعدني في الخروجِ من هنا. هل ستفعل؟".

– "بكلّ تأكيد. إذا رغبت في الخروج من هنا فسأمدُّ لك يدَ العون...".

اتفقنا أن نتحرَّك من هنا فجرَ يوم الغد...

لا أدري لِمَ كلّ هذه العجلة؟ ولكنّني شعرتُ لوهلة أنَّ موعد أوبتي قد حان، ولا مجال للتأخير. لننهِ هذا الأمر قبل أن يتحوّل في قلبي وجسدي إلى داء وبيل يصعب السيطرة عليه وعلاجه.

ماذا سأفعل؟

سألتُ نفسي كثيرًا هذا السؤال، ولم أجدْ جوابًا شافيًا له.

سأدعُ الأيّام تنسجُ بمهلٍ ما سوف أفعله وأزمع به.

المهم أنْ أعودَ قبل أن تغلغلَ هذه الصحراء داخلي وتكون سجني الأخير وعزلتي المشتهاة والنهائيّة مع مرور الوقت. ربما جعلتني

نسخةً ثانية من عبد الجبار الهارب من نفسه، ومن النَّاس، ومن الدنيا برمتها...

بعد أن صلَّينا فجر اليوم التالي، تحرَّكنا من مربض الإبل. أعدَّ عبد الجبار ثلاثة جِمال للسفر. امتطيتُ جَملاً، وركبَ هو على الجَمل الثَّاني، وخَصَّص الجملَ الثالث لحملِ متاعٍ بسيطٍ مكوَّن من زوَّادةٍ من تمرٍ عجوة لرحلة الذهاب والإياب، وخمس زمزميَّات من الجلد مملوءة ماءً للشربِ، وفرشين من الإسفنج، وشايًا وسكرًا وإبريقَ الشاي، وبعض أعواد الحطب... وأيضًا الراديو. قال لي: "سنسيرُ حتَّى قرابة الظهيرة، ثمَّ نتوقَّف عن المسير حتَّى تميل الشمس إلى الزَّوال لكي نتحاشى الشمسَ، وأشعتها الحارَّة، والرمال وسخونتها".

نمتطي الجِمالَ ثمَّ نسيرُ. خيوطُ الفجر الأولى بدأت تلوحُ عند نقطةِ التحام أفق السماءِ على أفقَ الأرض في هذه المفازةِ الصامتة. وضعتُ على رأسي قطعةَ قماشٍ تحسبًا لحرارةِ الشمسِ الوشيكِ اندلاعها. هواءُ الصباحِ الباكر نقيٌّ. تهبُّ نسماتٌ من الهواء تلطِّف حرارةِ الرّمال التي كانت حرارتها تتصاعدُ مع مضي الساعات. تزيدُ فجأةً حركةُ الهواء قليلاً. ألتفتُ إلى عبد الجبار فأجده صامتًا زامًّا شفتيه. يقلِّب وجهه في السماء كلّ لحظة، والقلق بادٍ عليه. بعد أربعِ ساعاتٍ من المسير البطيء والمتمهل، يصيحُ بي عبدُ الجبار والقلق مرتسمٌ على ملامح وجهه: "ستهبُّ العاصفةُ".

- "أيّ عاصفة؟".

لا يجيبني في التوِّ، لكنَّه بعد لحظة يقولُ بيقينٍ بعدما قلَّب بصره في السماءِ الصافيةِ الأديم: "إنَّ هبوبَ مثل هذه العواصف والزوابع في

مثل هذا الوقت أمرٌ شائعُ الحدوثِ، وخصوصًا في نهاياتِ الصيف، لكنَّ العاصفة التي نحن بصددها ستكون شديدةً لأنَّها بدأت في وقت أبكر ممَّا هو معتادٌ". توقَّف عن الكلام برهةً، ثمَّ أردفَ قائلاً: "وربما تستمرُ وقتًا طويلاً".

يوقفُ جملَه وينيخه. يمسكُ برسن جَملي فينيخه، وكذلك الجمل الثالث. يرتِّب أماكنَ إناخة الجِمال على شكل مثلث. يأمرني بغلظة أن أدخلَ في المساحة الواقعة بين الجِمال الثلاثة. يطلبُ منّي أنْ أشدَّ لثامي على وجهي، وأن أغطي قدميَّ ويديَّ بإحكام، وأن ألصق جسدي بالقرب من بطن وظهر الجمل. جلسنا بين الجِمال ننتظرُ هبوبَ العاصفة، وما هي إلاَّ لحظات حتَّى انطفأ نورُ الشمس كأنَّه مصباحٌ هبَّت عليه موجةُ هواءٍ قوية فأطفأته بلمحِ البصرِ. ازدادتْ سرعةُ الرياح قليلاً، ثمَّ تصاعدتْ وأصبحت تعوي كأنَّها وحوشٌ خرافيَّةٌ مطلقةُ اليدين في رسم المصائر، وتتصارعُ في معركة دامية وسط الصحراء. رأيت عبد الجبار يتكلم ويشير بيده نحوي ولكنني لم أستطع سماع صوته بسبب زمجرة الريح رغم المسافة البسيطة التي تفصل بيننا. اقترب مني بصعوبة ثم قال لي بصوتٍ عالٍ، ولكنَّه بدا لي غيرَ واضح بسببِ اشتدادِ الرياح وعوائها: "اقتربْ أكثرَ من جملك، ودسَّ رأسَكَ أسفل بطنه. شدّ لثامكَ ولا تنظرْ حولكَ".

٣٨

ثارت العاصفةُ وزمجرتْ أكثر من ذي قبل. وانطفأ نور الشمس حتى ساد ظلام خفيف. كنتُ أحسّ بذرّات الرمالِ المتطايرة، وهي تصطدمُ بيدي كأنّها دبابيسُ تريدُ أن تدخلَ عنوةً في جلد يديَّ. كانت الريحُ تأتي من قلب الصحراء ومن أطرافها، تعبرُ ذلك الخضمَ المتلاطمَ من الرمالِ بنزقٍ ورعونةٍ. تكنسُ في طريقها رائحةَ القحطِ، والنباتات اليابسة، وتدحرج بقايا الحيوانات النافقة. أثناء هبوبِ العاصفةِ رفعت رأسي بصعوبة لكي أرى عبدالجبار ولكنّني لمْ أره إلاّ بصعوبةٍ. كان يبدو لي مثل كومة من ثياب ملقاة بالقرب منّي. دسستُ رأسي أسفل جملي الذي زوى رقبته الطويلة، ودسّ رأسه قريبًا من منبعِ رقبته. لا أعرفُ كمْ مرّ من الوقت، ولكن العاصفة تلاشت قليلاً، وبزغت الشمس بنورها الواهن من بين سحبٍ ركاميَّة. كانت مائلة إلى الزوالِ. رفعتُ رأسي فككتُ لثامي. التفتُ نحو عبد الجبار فرأيته ينظر إلي مبتسمًا ومهنئًا بالسلامةِ. نهضَ إلى الجَمل الثالث. مدَّ يده نحو زوّادة التمر، تناول منها بعض التمرات وقسّمها بيني وبينه. أشعلَ بعض الحطب، ووضعَ فوقه إبريق الشاي. جلسنا

على الرمل، وحولنا الجمال الثلاثة نلوك حبات التمر، نتحدّثُ كثيرًا، نرشفُ الشاي، ونستمعُ إلى الراديو، ونحنُ نراقب جنوحَ الشمس أكثرَ وأكثرَ نحو الغروبِ...

استأنفنا المسيرَ بعد أن صلّينا المغرب، ومع حلولِ التاسعة مساءً وفق راديو عبد الجبار الذي كان يقلّب في موجاته وهو راكبٌ على جمله، وصلنا إلى شجرة آراك ضخمة بجانبها حوضٌ كبيرٌ مبنيٌّ من الإسمنت فيه القليلُ من الماء. صاح عبد الجبار: "المسقَى. الحمدُ للهِ وصلنا المسقى...".

– "أيّ مسقى؟".

– "مسقى الجِمال. بناهُ أحدُ فاعلي الخير. نستخدمه لسقيا الجِمال، أنا وكثيرون من الرعاة المنتشرين في هذه الصحراء. تأتي إلى هنا سيّارة كبيرة لها صهريجٌ ممتلئٌ ماءً تسكبه في الحوض هذا، ثمّ يغادر. أنا أعرفه، صاحب سيّارة صهريجِ الماء. سودانيّ مثلي. نتحدرُ من المكان نفسه في السودانِ. اسمه عوض الله. رجلٌ ثقةٌ. طيّبُ القلب، دائمًا ما كنتُ أطلبُ منه أن يحضرَ إليّ ما ينقصني كبطارياتٍ جافّة للراديو، أو قطعٍ من البسكويت، أو ماء الشربِ المعبّأ داخل قناني البلاستيك، أو الدقّيق والزيت، وخلافه...".

يتوقّف قليلاً. يلتقطُ أنفاسه ثمّ يقول: "مع هذا الرجلِ سوف تغادر. سيوصلك إلى حيثُ تحبُّ أن تكونَ. سننتظره هنا. سيأتي، إذا لم يكن اليوم، فغدًا...".

لمْ يأتِ عوض الله إلاّ عصرَ اليوم التالي. احتضنَ عبد الجبار لمّا رآه، ومدَّ يده لمصافحتي والحيرةُ مرسومةٌ على وجهه وهو يكزّ

ببصره عليّ. سكبَ الماء في الحوض، وهو يعتذرُ لعبد الجبار عن تأخره عن وقته المحدد. يقولُ له إنَّ أوضاع الحرب الكويتيَّة العراقيَّة تتأزَّمُ أكثر من ذي قبل. الحكوماتُ الخليجيةُ قلقةٌ من وقوفِ عددٍ من الدول العربيَّة، ومنها السودانُ بجانب صدَّام حسين، وتأييده في احتلالِ الكويت. بعض تلك الدول الخليجيَّة تفكرُ جديًّا في إجلاء رعايا تلك الدول التي أطلقوا عليها "دول الضدِّ" لتعودَ إلى بلدانها مرَّةً أُخْرَى بسبب ضغوط شعبيَّة متزايدةٍ في هذا الصدد، وخصوصًا بعد أن أقدمت ثلَّة من جاليةٍ لدولةٍ عربيَّة من دول الضدّ تمتلك شبكةً واسعةً من المطاعِم على تقديم وجباتٍ مسمَّمةٍ إلى الأهالي في إحدى المدن. اللهُ أعلمُ عن مدى صحة هذه الحادثة من كذبها، لكنَّ الضغوط تتصاعدُ يومًا بعد يوم.

كنا نستمع لحديثه صامتين. التفتُّ نحو عبد الجبار فوجدته قلقًا وواجمًا، وعيناه تلمعان وهو مستغرق في سماع حديث عوض الله بكلِّ تركيز. ينتهي من ملء الحوض بالماء. رأيتُ عبد الجبار ينفردُ به جانبًا. تحدَّث الرجلان قليلاً. اقترب منّي عبد الجبار مدَّ يده مصافحًا ومودِّعًا. احتضنته. لم أعرفْ كيفَ أشكره نظيرَ ما قدّمه إليّ. لقد أنقذني الرجلُ من مصيرٍ مؤلم. حانت ساعةُ الفراق. أمسك بيدي، ثمَّ قال لي وهو ينظر في عينيَّ مباشرةً: "عشتُ وحيدًا في الصحراء أجمل سنواتِ شبابي، ولم أندم. تعلّمتُ هنا أهم دروسٍ يمكن للمرء أن يتلقّاها في حياته. تعلّمت هنا أن الأمورَ ليست كما تبدو عليه في أول وهلة، وتعلّمتُ أن الحياةَ أثمنُ من أن نضيّعها في سبيل شيءٍ نسعى إليه، وهو ليس لنا بحالٍ من الأحوال...".

توقَّف قليلاً وكأنَّه يقيسُ وقع كلامه عليَّ: "اعذرني يا صديقي، يبدو أنَّ الصحراءَ قد جعلت منّي حكيمًا...".

- "أنتَ كذلك بالفعلِ... أجبته".

حكَّ أرنبةَ أنفه، ثمَّ قالَ لي: "عِدني يا صديقي ألاَّ تفعل شيئًا ما تندمُ عليه طول حياتك...".

- "..."

- "عدني...".

- "الوقتُ والظرفُ غير مناسبين لإطلاق الوعودِ، يا صديقي...".

- "عِدني، بحقِّ الأيَّام القليلةِ السعيدةِ والمؤلمةِ في آنٍ التي قضيناها معًا، عدني ألاَّ تفعلَ شيئًا تندمُ عليه...".

- "سأفعلُ كل ما بوسعي...".

صافحته للمرّة الأخيرة. خُيِّل لي أن عينيه تلمعان أو مغرورقتان بالدموع وهو ينظرُ إلي بقلق. ركبتُ سيَّارة الصهريجِ وانطلقت مع عوض الله. لمحتُ عبد الجبار عبر مرآة السيَّارة الجانبيَّة واقفًا ينظرُ نحونا حتَّى غابت صورته خلفَ الرمال...

٣٩

أدورُ حول الفيلّا، فيلّا الدكتور فالح. أحملُ بيدي اليمنى ساطورًا أخبّئه داخل جريدةٍ مطويّة. أرى سيّارته السوداءَ رابضةً على المدخل. لا تزال فصولُ قصتنا معًا تُكتب بمدادٍ من تراب، ودم، وملح. أتقدّم بحذرٍ نحو البيت. أجدُ بابَ الفيلّا مفتوحًا. السكونُ يشملُ المكان. يتناهى إلى مسامعي صوتُ زمجرةِ كلبٍ. أتلفّت حولي فلا أرى أيّ شيءٍ يثير الريبة. أخطو حذرًا نحو الداخل. أسمعُ حفيفَ أجنحة من جانبي الأيمن. ألتفتُ نحو مصدر الصوت. أرى ببغاء من نوع كاسكو داخل قفص أبيض اللون. وفي الجدار المقابل لي، أرى تلفزيونًا كبيرَ الحجم بلا صوت، يطلّ من شاشته وجه نورمان شوارزكوف، الأميركي قائدُ قواتِ التّحالف في حربِ الخليج الثانية، يبدو كأنّه يتحدّثُ في مؤتمرٍ صحافيّ. على الكنبة الوثيرة أمامَ التلفزيون سلّة مزركشة داخلها قطّةٌ من النوع الشيرازي كثيف الشعرِ. تقعُ عيناي على لوحةٍ ضخمة في الجدارِ المقابل تصوّر منظرًا لقطيع من الغزال من فصيلةِ الإمبالة منتشرًا فوق مساحة خضراءَ من الأرضِ. أجول ببصري في أرجاءِ المكان. لا أحدَ. أسيرُ ببطء. أين هو؟

أتساءل بيني وبين نفسي. ربما يكون في المكتبِ أو نائمًا في سريرِه. أقطعُ الصالة الكبيرة ثمَّ... ثمَّ أسمعُ أصواتَ استغاثةٍ متداخلة غير مفهومة. أصيخُ السمع جيِّدًا. ألمحُ بابًا صغيرًا يقعُ في نهاية الصالة. أتتبَّعُ مصدر الصوت. مع اقترابي أكثر من الباب تزدادُ الأصواتُ وضوحًا. صوتُ بكاءٍ جماعيٍّ مختلط، وصراخ، وكلمات مبهمة غير مفهومة. أسلُّ الساطورَ من الجريدة، وأمشي حذرًا. كان الباب مواربًا. أفتحه بهدوءٍ. أرى درجًا يؤدِّي إلى سردابٍ شبهِ معتمٍ. أهبطُ الدرج متمهلاً. الأصواتُ تتصاعدُ. أزيدُ سرعة خطواتي. في نهاية السرداب، أجدُ بابًا آخرَ حديديًّا ضخمًا شبهَ مفتوح. أقتربُ منه بحذرٍ. أفتحه على مصراعيه. يغشى بصري سطوع نور هائل. خمسة مصابيح نيون تصدرُ نورًا باهرًا فوق خمسة رؤوس. أضع ظاهر يديّ أمام عينيّ. أضيّقهما لعلّني أتمكّن من الرؤية أفضل. أرى أربعَ فتياتٍ عارياتٍ ومربوطات أيديهنّ إلى أعلى وأرجلهنّ من أسفل. أفركُ عينيّ من هول ما رأيت. لا أصدّق ما أراه. تبدُو لي الوجوه مألوفةً. الفتياتُ الأربعُ لم يكنَّ سوى حليمة، وسعاد وزاهية، فتاتا لندن، وفتاة ذات ملامح آسيوية لم أعرفها. أقتربُ منهنَّ فأرى منظرًا بشعًا لم يسبق لي أن رأيته حتَّى في أكثرِ الأفلام رعبًا. كانت فروجهنَّ تقطرُ دمًا، وحلماتُ أثدائهنَّ مقطوعةٌ، دماؤهنَّ تسيلُ على فخوذهنَّ وصدورهنَّ. على أجسادهنَّ آثارُ ضربٍ مبرح. خطوط حمراء وزرقاء وسوداء متداخلة. على عيونهنَّ عصاباتٌ سوداءُ تمنعهنَّ من الرؤية. أقتربُ منهنَّ بحذرٍ. أزيحُ العصابات السوداء. ما إن يقع بصرهنَّ عليَّ، حتَّى يصرخنَ بفمٍ واحدٍ: فكَّ قيودنا. فكَّ قيودنا. كانت قيودهنَّ من

الحديد. تقولُ لي حليمة، والرعب يكتسحُ ملامح وجهها: "المفاتيحُ مع الخاتنة".

أسألُها كيف جاءت إلى هنا، فتجيبني قائلةً والفزعُ لم يغادرها: تزوَّجني فالح مرَّة ثانيةً. ألتفتُ إلى زاهية، وسعاد، وسألتهما: كيف جئتما إلى هذا المكان؟ تقول سعاد: لقد استقدمنا فالح كخادمات نخدم والدته، ولكنَّه جاءَ بنا إلى هنا وفعل بنا ما تراه. أسأل عن الفتاةِ الآسيوية. قالت حليمة بقلقٍ وهي تلتفتُ نحو باب الخروج: "هذه خادمة أمّه في القرية. اسمها: عايدة...".

ولَمْ يكنْ من الصعب أنْ أعرفَ أنَّها عايدة، أو آيدا، فتاة جزيرة بالي.

أسألُ بلهفةٍ: "ما الذي يحدث هنا بالضبط؟".

تقول زاهيةُ وهي تخلط كلامها ببكائها بلعابها: "يأتي فالح كلّ يوم إلى هنا، ومعه كلبٌ ضخمٌ. يربطه هناك، ثمَّ يجلدنا بسوط جلدي، ويغتصبنا الواحدة تلو الأخرى، ثمَّ يقطع أجزاء من أجسادنا".

أسمعُ أنينًا يصدرُ من وراء ستارةٍ. تصيحُ سعاد فيَّ قائلةً: "وراء الستارة هذه رجلٌ مربوطٌ مثلنا".

أقتربُ نحو الستارةِ. أزيحها ببطءٍ فأرى أرشد صاحب معمل التصوير عاريًا من ملابسه، و"شيئه" مقطوع مثل "شيئي" تمامًا. أدنو منه. أزيحُ العصابةَ السوداءَ من فوق عينيه. كادَ أن يبكي حالما رآني. طلب منّي أن أحرّره من قيوده. لحسنِ الحظِّ وجدتُ أن وثاقَه كان من الحبال. قطعتُ الحبالَ بواسطة الساطور. عدنا إلى مكان الفتيات. طلبتُ منه أن يساعدني في فكِّ قيدِ الفتيات. أسمعُ صرخةً

من ورائي. ألتفت فزعًا، كانت حليمة تصيح في وجهي: "الخاتنةُ... الخاتنةُ".

التفتُ ورائي فأجدُ الخاتنةَ وبيدها مقصٌّ حديديٌّ ضخمٌ. أقبلتْ نحوي تريد أن تطعنني بالمقصّ الضخم. أتفادى ضربتها. أدفعها بيدي، فتقع على الأرضِ، وينغرسُ المقصُّ في بطنها. تخورُ مثل بقرة ذبيحة. تتلوّى من الألم، وتتقلّب ثمَّ تستقرُ في آخر الأمر على ظهرها. عيناها جاحظتان، ويخرجُ من فمها رغوةٌ بيضاءُ كريهةُ الرائحةِ. وفي منتصف جسدها على الأرضيَّة، تكوّنت بقعةٌ كبيرةٌ من الدم. تقولُ لي حليمة بلهجة آمرة: "ابحث في جيوبها، ستجدُ المفاتيح".

أقلِّب الجثةَ الضخمةَ للخاتنةِ بمساعدة أرشد. نجدَ المفاتيح. نسرعُ بها نحو الفتيات. أفتحُ قيدَ حليمة ثمَّ سعاد، وزاهية، وعايدة. تنخرطُ الفتياتُ في البكاء. لا وقتَ للبكاء. لا بدَّ أن نخرجَ من هنا. نمسكُ بأيدي بعضنا بعضًا. نقتربُ من البابِ. يندفعُ شيءٌ كالإعصار نحونا، فنتراجع إلى الوراء. نتلافاه بصعوبةٍ. يدخلُ كلبٌ ضخمٌ من النوع الذي يطلق عليه "الراعي الألماني"، ضخم الجثةِ، لونه بُني مع لطخةِ سوادٍ حول عينيه ورقبته. يكشِّر عن أنيابٍ كبيرةٍ مخيفةٍ تعلوها لثته الحمراء اللون. يهجمُ على أرشد لأنَّه كان قريبًا منه، فيقعُ الاثنان أرضًا. يصرخُ أرشد صرخةً مدوِّيةً. كلّ هذا كان يحدث في ثوانٍ قليلة. أخرجُ من صدمةِ هول المفاجأة. أتقدَّم نحوَ الكلب، وبيدي الساطور، يدع أرشد ويهجم عليَّ بقفزة هائلة. وفي لحظة خاطفةٍ أهوي بالساطور، فيقعُ في منتصف رأسه. نسقطُ معًا على الأرضِ، وقد انتثر في وجهي لعابه ودمه. ألمحُ أرشد يتلوّى من

الألم. أنهض. أقتربُ منه فأجدُ أنَّ الكلبَ قد انتزع خصيتيه. أحاولُ أنْ أساعده لكنَّ الفتيات يصرخن بصوتٍ عالٍ: ها هو... قد جاء. ألتفتُ إلى حيث يؤشرن، فألمحُ الدكتور فالح. أنتزعُ الساطور من رأس الكلب، وأتقدَّم نحوه. يرى الساطورَ في يدي. يهربُ. ألحقه جريًا. أعبرُ السردابَ وراءَه. يصعدُ الدرج فأصعدُ خلفه. قبل أن يصلَ إلى آخر درجة من السلم، يتعثّر. يقع على ظهره إلى الوراء. يصطدمُ بي أثناء سقوطه. نتدحرجُ. نقعُ معًا في الأسفل. يهجمُ عليَّ. يمسك برقبتي. كان لا يزال قويًا كمَا كان. يضغطُ بإبهاميه على رقبتي. بطريقة خاطفة، يسلّ من جيبه العلوي قلمًا فيطعنني به في أعلى صدري. أشعر بألم لا يُطاق. أبحثُ عن الساطور بيدي. أتحسَّس المكانَ. ألمح الساطور بنظرةٍ خاطفة، كان بعيدًا عنّي. يستمر بالضغط على رقبتي. أبدأ في فقدانِ الوعي. تدخلُ الفتياتُ فيرونه ممسكًا بي يصرخنَ. تهربُ حليمة، وسعاد، والفتاة الآسيويّة من المكان. بقيت زاهية تنظر إلينا بشرود وذهول، وفمها مفتوحٌ وعيناها لا تكادان ترمشان. ينادي عليها الدكتور فالح بصوت كالرعد: "أعطِني الساطور... هيّا... بسرعة".

تقفُ زاهية متردِّدة ومأخوذة. يصرخُ عليها: "أعطِني الساطور". تمسك بالساطور وهي مأخوذة. تتقدَّم نحونا خطوة واحدة. ألمح حليمة تدخل مسرعة. تخطف الساطور من يد زاهية. تركض مسرعة نحونا. تتعثّر في جثة الكلب وتقع على الأرض. يسقط الساطور من يدها. ينزلق على الأرض الملساء حتّى يصل عندي. أمسك بالساطور ويمسك الدكتور فالح بيدي. نتصارع في سبيل الاستحواذ على

الساطور. أستخلصه بصعوبة من يده، ثمَّ أضربه في منتصف رأسه تمامًا. يتساقط نهر من الدماء على وجهي. تجحظ عيناه، ويسيلُ ريقه مخلوطاً بدماء منبعثة من مفرق رأسه. أزيح جثته الثقيلة من فوقي. أمسح الدم بباطن يدي عن وجهي. تأتي الفتياتُ صارخات. يقتربنَ مني. يبكينَ بحرقة. يأتي أرشد لا يكاد يستطيعُ المشي. كان ينزف بغزارة. أطلبُ منه فورًا أن يأخذَ الفتياتَ ويغادرَ المكانَ من الفور. أسأله: هل يقدر أن يفعلَ ذلك. يجيبني موافقًا بهزّة من رأسه. يغادرُ أرشد برفقة البناتِ العارياتِ. أمكثُ في مكاني بعد مغادرتهنَّ. أشعرُ بشيءٍ دافئٍ يسيلُ على صدري. جرحٌ غائرٌ وكبيرٌ أسفل عظم الترقوة. أتحاملُ على نفسي. أخرجُ من المكان. أصعدُ الدرج. أعبر الصالة. أفتحُ باب الفيلّا. أخرجُ إلى الشارع. في منتصف الشارع لا أقوى على الحركة. أشعرُ بكلّ شيءٍ يدورُ ويدورُ حولي. أحاول أن أتماسكَ. أفشل في الوقوف على قدميَّ، فأقع على الإسفلت...

٤٠

يسألُني الضابطُ: "أنتَ قتلتَ الدكتورَ فالح راشد؟".

- "نعمْ...".

- "اقتحمتَ بيته، وضربته بساطورٍ على رأسه حتَّى فارَقَ الحياةَ؟".

- "نعمْ".

- "هل خطَّطتَ للجريمةِ قبل تنفيذها؟".

- "نعمْ".

- "هل قتلتُه لمجرّدِ القتلِ فقطْ؟".

- "نعمْ".

- "هل تعرفُ خطورةَ اعترافِك هذا؟".

- "نعمْ".

٤١

ليلةُ ما قبلِ القصاصِ...

خمسُ سنوات قضيتها في السجنِ بتهمةِ القتلِ. سنواتٌ مرَّتْ بطيئةً وثقيلةً زادها بطئًا وثقلاً الارتهانُ إلى الماضي بكلِّ تفاصيله. كانت مجرَّد أيَّام وليالٍ منذورةٍ للقتل قصاصًا. في المساءِ، استدعاني ضابطُ السجنِ الكُبير. جاءَ بي عسكريٌّ شابٌّ إلى مكتبه. قدمايَ مربوطتان بسلسلة من الحديد، جسدي النحيلُ منهكٌ، وتفوحُ منّي رائحةٌ عطنةٌ. في المكتب، لفحني هواءُ المكيّف البارد، فانتعشتُ قليلاً. لا أعرفُ لماذا استدعاني الضابطُ؟ فلمْ يحدثْ ما يستوجبُ النداء. فلا طلبات جديدة للسجناءِ، ولا مشاحنات حدثتْ بين المساجين. كنتُ همزةَ الوصلِ بينهم وبين إدارة السجن في أمور كثيرة تخصهم. حينما دخلتُ مكتبه، كان يتحدَّث في الهاتف. لمحني واقفًا برفقة الجنديّ. أشار إلي بالاقترابِ. وضعَ السمَّاعة. أمرَ العسكريَّ بفكِّ قيدِ يديّ، وترك قيد قدميّ. طلبَ منّي الجلوسَ. جلستُ فأحسستُ بالنعومةِ من طبقةِ الكرسيّ الجلدي الوثير والمحشو بالإسفنجِ أو القطنِ. تعوّدتُ الجلوسَ على أرضِ السجن الإسمنتيةِ الصلبة المليئة

بالحفرِ والتعرُّجات. أمامه ملفٌّ أزرقُ اللونِ. لمحتُ اسمي الرباعيّ مكتوبًا بخطٍّ عريضٍ على غلافه. رحَّبَ بي بكلماتٍ قليلة، ثمّ انحنى أسفل مكتبه، ومن ترمس الشاي، ملأَ لي كأسًا من الشاي. وضعه أمامي. فاحتْ رائحةُ النعناع من الشاي، وعبقت في الحجرةِ الباردة. تنحنحَ ثمّ قالَ لي بصوتٍ خفيضٍ: "هلْ تريدُ ماءً؟".

وقبلَ أن أجيبَ نادى بصوتٍ عالٍ: "يا عسكري: أحضر قنينةَ ماءٍ بارد".

انقبضَ قلبي قليلاً من هذه المعاملة الرقيقة والناعمة...

رشفَ الضابطُ من كأسه رشفةً صغيرةً. وضعَ الكأسَ على المكتب، وشبَّك بين أصابعه. نظر نحوي طويلاً كأنّه يرى شخصًا آخرَ في الحجرة. انتبه بعد برهة قائلاً: "أنتَ رجلٌ مؤمنٌ يا عم نوري، ولا شكَّ لديَّ في ذلك...".

أعرف جيدًا هذه المقدّمات السمجة. هذه مقدّمات الموت القادم. الموتُ بضربة سيفٍ باترة على العنق المشرئب، وكأنّه ينتظرُ لحظةَ الانعتاقِ من العذاب. يبدو أن اللحظةَ المنتظرةَ كثيرًا قد حانت...

لمسَ بسبابته وإبهامه "سكسوكة" الشعرِ أسفل ذقنه ثمّ قال: "لقدْ صدرَ أمرٌ بتنفيذ حُكم القصاصِ فيكَ...".

سادَ صمتٌ ثقيلٌ بيننا، وزاغت النظراتُ، وتاهت العقولُ في خارج الحجرة الباردة.

استأنفَ الضابطُ كلامه: "سيكونُ يومَ غدٍ بعد صلاةِ الجمعةِ مباشرةً...".

ثمّ شملنا سكونٌ عميقٌ لدرجة أنَّ صوتَ الهواء القادم من جهاز التكييف بدا كأنّه قطارٌ قديمٌ يسرحُ ويمرحُ في الحجرة بكل ضوضائه وضجيجه.

"فليكنْ..."، قلتُ للضابط الشابّ في لحظةِ غيابٍ عقليٍّ تامٍّ، "أريدُ منكم أن تقتلوني كمَا قتلوا الحلّاج...".

- "مَن الحلّاجُ هذا يا عم نوري؟".

- "رجلٌ ماتَ منذُ ألفٍ ومئة عام...".

ينظر نحوي الضابطُ بنظرةِ دهشةٍ واستغرابٍ. قال لي: "هلْ تريدُ أن أعرضكَ على الطبيبِ؟"

- "لا...".

٤٢

لا شيءَ يهمُّ...

لقد سئمتُ الحياةَ، وسئمتُ السجنَ، وسئمتُ الرفاقَ، وسئمتُ كلَّ شيءٍ. ماتَ الحلمُ، وتلاشت الأمنياتُ، وانزوت روحي الوثّابة في كهوفٍ معتمةٍ مظلمة. الموتُ هو خاتمةُ كلِّ الأحياء. الكلُّ إلى زوال. لا يبقى سوى وجهه الكريم. ألمْ يقلْ سيّدي وشيخي الحلّاج: "البلاءُ مِنَ اللهِ، والعافيةُ مِنَ اللهِ، والأمرُ مِنَ اللهِ، والنَّهيُ إجلالٌ من الله"...

جاءت اللحظةُ الحاسمةُ بعد خمسِ سنوات من السجن قتلتُ فيها بساطورٍ ابنَ عمّي و"صديقي" الدكتور فالح أستاذ علم التاريخ الاجتماعيّ وحامل شهادة دكتوراه مزيّفة. سدّدتُ ضربةً قاتلةً حاسمةً على رأسِه الكبيرِ الأصلعِ الضخم. تناثرَ دمُه على ثوبي، ورأيتُ مخّه في الشقِّ الذي أحدثته ضرباتُ الساطور. كتلة من الهلامِ الأبيض اللون يسيلُ على وجهه المضرَّج بالدماء...

شربتُ دفعةً واحدةً كأسَ الشاي الذي بردَ بسببِ هواء المكيّف البارد مع الضابط صامتًا، وتجرّعتُ قليلاً من قنينةِ الماء. لمْ يكنْ هناك داعٍ للكلامِ. الكلماتُ المكتوبةُ على الورق في الملفِ الخاص بي،

قالتْ كلَّ الكلام فلمْ يبقَ شيءٌ.

أعادني الجنديُّ الشابُّ إلى حجرةِ السجنِ. ليلتها لمْ يلعبْ رفقائي في الحجرة لعبة "البلوت". تناثرتْ أوراقُ الباصرة على أرضيَّة الحجرةِ. أصابهم الوجومُ عندما عرفوا سببَ استدعائي. حاولتُ التملُّصَ وتجنب إخبارهم، ولكنَّ قلقي وتوتري تحدَّثا عنّي بلا كلماتٍ وفضحاني. أخبرتهم بكلماتٍ قليلةٍ عن سبب الاستدعاء. انفضُّوا من أماكنهم وأحاطوا بي يبكون. أعرفُ مشاعرهم النقيَّة هذه. أرى عيونهم وأنوفهم تسيلُ بالدموع والمخاط. كانت ليلة مترعة بالحزنِ، والرعبِ، والخوفِ. هؤلاء هُم رفقائي. قضيتُ معهم ألفًا وثمانمئة وخمسة وعشرين يومًا. لكنَّ هذه اللحظة كانتْ منتظرةً على كلِّ حالٍ. جاءت ولكنَّها جاءت بغتةً وبلا مقدِّماتٍ، كما هو الموت تمامًا.

لمْ يناموا تلكَ الليلة. ظلَّ كلُّ فردٍ منهم قابعًا في مكانه، زائغَ النظر، وحائرَ الفكرِ. عزَّت الكلماتُ، وأصبحَ للصمتِ قيمة كبرى...

لمْ أنمْ إلاَّ نومًا متقطِّعًا تتخلَّله الكوابيسُ والأحلام المزعجة كثيرًا...

في الصباح، حينما سمعوا مزلاجَ البابِ المصفَّح ينفتحُ مُصدِرًا صريرًا كأنَّه النواحُ، هبُّوا من أماكنهم هبَّة رجلٍ واحدٍ. وتعالى صراخُهم وبكاؤهم. نهرهم الجنودُ بغلظةٍ، وطلبوا منهم البقاءَ بهدوءٍ في أماكنهم. تقدَّم منّي أربعةُ جنودٍ ضخام الأجسام، انتشلوني من بينهم كمَا ينتشلون ريشةَ طائرٍ وقعت فوقَ الأرض. سحبوني سحبًا. مشينا بخطواتٍ ثقيلةٍ على ممرَّات طويلةٍ وضيِّقة لدهاليز عنابر

السجن. خرجنا إلى الفناء الواسع. كنَّا في ساعة الضحى. كلُّ شيءٍ كان ساكنًا. نسمةٌ من هواءِ الضحى لفحت وجهي. اتَّجهوا بي إلى سيارةٍ مغلقةٍ ومصفَّحةٍ. وضعوا أصفادًا إضافيَّةً في يديَّ ورجليَّ ثمَّ انطلقنا...

في الطريق، رأيتُ الشوارعَ والبناياتِ، والسيَّاراتِ، والنَّاسَ، والزحامَ لأوّل مرّةَ منذ خمس سنوات. لامس صيوانَ أذني الضجيجُ والصخبُ، فشعرت به غريبًا على أسماعي. شعرتُ أنَّ الحياةَ تسيرُ رغمًا عنِّي، ولا تحفلُ بي، ولا بسجني، ولا بعذاباتي. تسخرُ منِّي. توقَّف السيَّارةَ عند إشارات المرور، ومن خلال فتحات الحديد المثبَّتِ على نوافذ السيَّارة، ألمحُ حركةَ الشارعِ، وأقرأ لافتاتِ المحلاتِ التجاريَّةِ، وأسمع أصواتَ نفيرِ السيارات. يبدو أنَّ كلَّ شيءٍ تغيَّر في السنواتِ الخمسِ الماضية. أحاولُ قدرَ جهدي أنْ أتذكَّرَ الشوارعَ، وأسماءَها، وأنَ أتذكَّر أهمّ معالم المدينة التي عشتُ فيها سنواتٍ لا بأسَ بها من عمري. فشلتُ في التذكّر وفشلتُ في التركيزِ. أنظرُ إلى الجنودِ الذين معي في السيَّارة. وجوههم جامدةُ الملامحِ. كلُّهم كانوا في سنِّ الشبابِ، يرتدونَ نظاراتٍ شمسيَّةً سوداءَ. أنكسُ ببصري إلى أرضيَّة السيَّارة. مع اهتزازِ السيَّارةِ ووقوفها وحركتها أشعرُ بالنوم يجتاحني. أميلُ برأسي ثمَّ... ثمَّ... بين اليقظة والنوم، يعودُ بي شريط حياتي إلى الوراء... إلى ذاكرةٍ غائمة ومشوّشة، يعودُ بي زمنِّي إلى ذاكرةٍ مثقوبةٍ بقيت فيها للوجوهِ سطوتها، وغابت معظمُ تفاصيلها المبتذلةِ والمكرورةِ.

٤٣

نصلُ ساحة القصاص بعد أداءِ صلاةِ الجمعة. الساحةُ يوجدُ فيها عددٌ لا بأس به من النَّاسِ. صفٌّ من الجنودِ يمنعُ المتفرِّجين من الاقتراب أكثر من الجزء المخصَّص لتنفيذِ القصاصِ. يخرجوني من السيَّارة. يمسكُ بي جنديان: أحدهما على يميني، والآخر على يساري. يطلبان منّي أنْ أجلسَ على ركبتيَّ. أنفّذُ ما طلباه. خلال لحظاتٍ يتقدَّمُ منّي رجلٌ أسودُ اللونِ، ضخمُ الجثةِ، وبيده سيفٌ ما إن سحبه من غمدِه، وسمعتُ صوتَ انسلالهِ من جرابه حتَّى اقشعرَّ بدني. يتقدَّم وبيده السيفُ. خطواته بطيئةٌ. عيناه لا تكادان ترمشان. يقتربُ أكثرَ وأكثرَ. يرفعُ السيفَ بيده اليُمنى، ويهوي به على رقبتي. أغمضتُ عينيَّ. مسَّني حدُّ السيفِ في رقبتي مسًّا خفيفًا. مرَّ كلُّ شيءٍ بسلاسةٍ وخفّةٍ...

ثمَّ... ثمَّ رأيته مقبلاً نحوي. يلبسُ ثيابًا بيضاءَ ويعتمر فوق رأسه عمامةً بيضاءَ. أصرخُ في وجههِ مثلَ طفلٍ تاهَ عن أبيه لوقتٍ قصيرٍ: "لماذا تركتني بمفردي يا سيِّدي الحلّاجُ؟".

يجيبُ عن سؤالي بسؤالٍ: "هلْ ستلحقُ بي؟".

- "لماذا تركتني وحيدًا كلَّ هذه المدَّة يا سيِّدي؟"
- "ولماذَا ولغتَ أنتَ في دماء النَّاسِ؟".
- "كلُّ ما يحدث لي سببه الوحيد هو أنتَ".
- "لكنَّني لمْ أطلبْ منكَ أن تقتل ولو ذبابةً... لاَ يزالُ المؤمنُ فِي فسحةٍ مِن دينه مَا لمْ يُصبْ دمًا حرامًا".
- "سيَقطعُونَ رقبتي...".
- "ولكنَّهم لمْ يفعلوا بكَ كما فعلوا بي...".
- "وماذا فعلو بك؟".
- "ضربوني ألفَ سوطٍ، وقطعوا يدي اليُمنى، فالقدم اليُسرى، فاليد اليُسرى، والقدم اليُمنى، ثمَّ أحرقوا جثّتي، ونثروا رمادها في نهر دجلة!".
- "ماذا أفعل يا سيِّدي؟".
- "اصبرْ واحتسبْ...".

ثمَّ...

يضربُ السيَّافُ ضربتَه الباترة الأخيرة...

أرى رأسي يتدحرجُ حتَّى يصلَ إلى أسفلِ قدميه ودمائي منثورة في أرجاء المكان. يمسكُ سيِّدي الحلّاج برأسي. يلفّه في قطعة قماش بيضاء اللونِ، ثمَّ ينطلقُ ماشيًا صوبَ النهر. يصلُ نهرَ دجلة. يستخرجُ رأسي من قطعة القماش، ويرميه في النهر. يسقطُ الرأس فوق صفحةَ الماء، ثمَّ يهوي بعدَ لحظاتٍ إلى أسفل حتَّى القاع.

أشعرُ أنَّني أسقطُ في هاويةٍ، ويقتحم أذني صوتُ صراخٍ عالٍ يمزّقُ السكونَ. أسمعُ صوتًا مزعجًا. جرسٌ يقرعُ. يتصاعدُ صوته

ويتحوّل إلى شيء كالصراخ يصمّ أذنيّ. أحاولُ أن أحرِّك رأسي فيتحرّك. أحاولُ أنْ أفتحَ عينيَّ فتنفتح اليمنى ثم اليسرى. يعود لي نور بصري ببطءٍ. ألمح مروحة السقف تدور ببطء. صوتُ الجرسِ لا يزال يصمُّ أذني. أنتفض من رقدتي مستعيذًا بالله من الشيطان الرجيم. كنتُ ممددًا على كنبة الصوفا. جرسَ التليفون يرنُّ رنينًا متواصلاً فوق المكتب. أحاولُ النهوض فأنهضُ بصعوبة. أقتربُ من المكتب. أتناول سماعة التليفون. انقطع الخطّ. أبحثُ بلهفة عن شيءٍ ما فوق المكتب. أجده. المظروفُ الكبيرُ الذي فيه المستندات الخاصة بالدكتور فالح. أمسكُ بالمظروف. أتفحّصه. أجده كما هو. لم ينفتحْ ولم يُمسّ. أتنَفسُ الصعداء. أضعهُ على المكتب. أتناول علبةَ سجائري. أشعلُ سيجارةً. أنفثُ دخانها إلى أعلى رأسي. أُلقي بنظرةٍ على المظروف. هاجسٌ يلحُّ عليَّ: هلْ أرسله إلى الدكتور فالح راشد أم لا؟

لا يطول بي التفكيرُ. أمسك بالولاّعة. أتناولُ المظروف. أُشعلُ ولاّعة السجائر أسفله. يشتعلُ طرفه بالنار. تتصاعدُ ألسنة اللهب. أرميه على أرضيَّة الحجرة. أظلُّ أراقبه حتّى تحوَّل إلى رماد. أدوسُ على الرماد بقدميَّ. أفتحُ باب حجرة المكتب ثمَّ أنطلقُ إلى الخارج مسرعًا لا ألوي على شيءٍ...

٤٤

بعد مرور خمسة وعشرين عامًا على سحب شهادة الدكتوراه منّي، وفصلي من الجامعة، تلقيتُ اتّصالاً هاتفيًا، ليسَ اتّصالاً واحدًا في الحقيقة، بل انهالت عليَّ عشرات من كلِّ مكان:

- ألوو...
- الدكتور نوري...
- الأستاذ نوري. نعمْ...
- معكَ المذيعُ... من قناةِ...
- تفضَّل.
- نريدُ أن نجري معكَ لقاءً تلفزيونيًا.
- بمناسبة ماذا؟
- سوف نَتناولُ معك قضيَّة الرأي العام هذه المثارة عبرَ وسائلِ التَّواصل الاجتماعيِّ: قصة سحبِ شهادةِ الدكتوراه منك...
- ...
- ماذا قلتَ يا سيِّدي؟
- موافقٌ...

٤٥

وسم (هاشتاغ) في "تويتر" له أكثرُ من عامٍ شغلَ كلَّ الأوساطِ الثقافيَّةِ في البلد:

#أعيدُوا شهادةَ الدكتوراه للدكتورِ نوري.

٤٦

وسم (هاشتاغ) في "تويتر" أيضًا أشعلَ كلَّ الأوساطِ التعليميَّةِ والوظيفيَّة في البلد:

#حملةُ كشفِ أصحابِ الشهاداتِ المزوّرَة.

٤٧

ثم توالت الاتّصالاتُ الهاتفيَّةُ:

- ألوو... الدكتور نوري

- الأستاذ نوري بالأصحّ...

- معكَ صحيفةُ....

- نعمْ، تفضَّل يا سيِّدي.

- نريدُ أن نجري معكَ حوارًا صحافيًا.

- بمناسبةِ ماذا؟

- بمناسبةِ قضيَّة سحبِ شهادةِ الدكتوراه منك...

- لكن هذه القصَّة لها أكثرُ من خمسةٍ وعشرين عامًا...

- نعمْ، أعرفُ ذلك تمامًا، لكنَّها قضيَّة السَّاعةِ. ماذا قلت يا دكتور؟

- موافقٌ.

- هلْ أرسلُ الأسئلةَ إلى الإيميلِ الخاصِّ بك؟

- نعمْ.

- شكرًا.

- شكرًا.
- مع السلامة.
- مع السلامة.

٤٨

- ألو و...

- نعمْ.

- الدكتور "نوري"؟

- نعمْ مَن المتحدِّثُ؟

- معكَ الدكتور... مدير جامعة...

- ماذا تريدُ؟

- اسمعْ، سأكونُ مباشرًا معكَ وصريحًا، ولنْ أضيِّعَ وقتك ووقتي...

- هكذا أفضل.

- سنرجعكَ إلى العملِ في الجامعةِ، وسنعيدُ إليكَ شهادةَ الدكتوراه بشرط...

- شرط؟! أيُّ شرط؟

- أن تصرِّح للصحفِ، والقنواتِ الفضائيَّة، ومواقعِ التَّواصلِ الاجتماعيِّ بأنَّ ما يحدثُ الآن هو زوبعةٌ في فنجانٍ، وأنَّ الأمرَ تمَّ تضخيمه، وإعطاؤه أكبر من حجمهِ... ما رأيك؟

- لنْ أصرّحَ بأيِّ شيءٍ. ولنْ أقبلَ هذه المساومةَ الرخيصةَ، أمّا بالنسبةِ إلى شهادة الدكتوراه، فلا يشرّفني أنْ أحصلَ عليها من جامعتكم!

- كلامُك قاسٍ يا دكتور...

- فليكنْ... مع السلامة...

أقفلتُ السمّاعة بهدوء، ثمّ أشعلتُ سيجارةً، وأخذتُ أنفثُ دخانها إلى أعلى متأمّلاً سقفَ الحجرةِ غارقًا في الصمتِ...

٤٩

أمسكُ بصحيفة في يدي أطالعُ فيها لقائي الأخير مع أحد صحافييها. وفي المساءِ نفسه، كنتُ أشاهدُ في التلفزيون حوارًا متلفزًا لي مع قناةٍ من أشهر القنوات العربيَّة وأكثرها انتشارًا.

أنهض من مكاني. أسير ببطء نحو المكتب. أدير مفتاح تشغيل الكمبيوتر المحمول. أفتح ملف "مخطوطة الحلّاج". أراجعه لدقائق قليلة. أشعر بالملل. أقفل ملف المخطوطة. أفتحُ بريدي الإلكترونيّ. أريدُ أنْ أرسلَ المخطوطةَ إلى الناشر. أكتبُ عنوانَ بريد الناشر الإلكتروني. أتردَّدُ كثيرًا في إرسال الملف. لكنّني في آخرِ لحظة أضغطُ زرَّ الإرسال. أرى على شاشة "اللاب توب" عبارة: "تمَّ إرسالُ رسالتك".

أشعرُ بقليلٍ من الارتياح، وكأنَّ همًّا أزيحَ من فوق كاهلي. أتمدّد على الكرسيّ. أتنفَّس بعمقٍ. أصيخ السمع لأصوات المّارة في الشارع القريب، وبدأت أستعد لمباهج المساء التي افتقدّتها منذ زمن طويل...

'كاتب مبدع ولغة جميلة'

جريدة 'السفير'

تقرّر الجامعة سحب شهادة الدكتوراه من الأستاذ نوري إبراهيم. كأنّ الزمن لم يتغيّر، منذ ألف ومئتي عام حتى اليوم، أي من اللحظة التي أعدم فيها الحلّاج إلى جلسة التحقيق التي وجد نوري نفسه فيها متّهماً بالكتابة عن 'زنديق وكافر'.

في لحظة ما، يكتشف نوري أن سنوات الصداقة والقرابة بينه وبين فالح تكشّفت عن حقد دفين أدّى إلى تدمير حياته. وعندما يقرّر الانتقام، يلاحقه طيف الحلّاج...

مقبول العلوي قاصّ وروائي سعودي. صدر له عن دار الساقي: 'فتنة جدّة' (القائمة الطويلة لجائزة بوكر العربية 2011)، 'البدوي الصغير' (جائزة سوق عكاظ 2016)، 'زرياب' (جائزة أفضل رواية لكاتب سعودي، معرض الرياض 2015 - القائمة الطويلة لجائزة الشيخ زايد 2016)، 'القبطي' (مجموعة قصصية - جائزة الطيب صالح 2016).



www.daralsaqi.com

ISBN 978-614-03-2019-2



